

لازاروس.

لازاروس

الكاتب: معاذ سليم



- رقم الإيداع: ٥٩.٣٨/٢٠.٢١
- الترخيم الدولي: ٥٦٦٧-٤٠٢٨-٩٠٧٨-١٠٦٤١-٥
- تصميم الغلاف: يوسف السيد
- تدقيق لغوي: أحمد ناجح
- تنسيق داخلي: عبدالعليم منا
- إخراج فني: عبدالعليم منا
- الطبعة الأولى ٢٠٢١

الناشر: نبوغ للنشر والتوزيع

<http://www.nebogh.com/>

المدير العام: مروة المصري

darnebogh@gmail.com



٠١١٠٠٥٢٨٥٢٢

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا
تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

لازاروس

مستوحاة من قصة حقيقية في عالم خيالي.



رواية
معاذ سليم



دار نور للنشر والتوزيع



لا زلنا نعيش





إهداء...

- إلى كل من لا يُهدى إليهم شيء.. أولئك المنسيون في أطراف معمة الحياة.
- للواقفين على الحياد.. ذوي القلوب الأكثر نقاءاً.
- للأشخاص الأكثر تميزاً..
- لك أنت..

"وتحسب أنك جُرم صغير.. وفيك انطوى العالم الأكبر"



إهداء خاص

لا مجال لتحسين الكلام هنا.. لا حاجة لنا بكلام مزخرف مُقفى منمق..
مهما قلت.. لن أوفهم حقهم.

إلى كل من ساعدوني.. إلى كل من شجعني ولو بحرف.. أنتم الأفضل.

أبي.. أمي.. مهند أحمد.. أحمد المسيري.. وغيرهم.. شكرًا.

أتراني لو ظللت أكتب أعوامًا هذا الإهداء سَأُفي من ساندوني حقهم؟!

تعرف الجواب!

يعرفونه كذلك...

معاذ سليم .

لأننا نعيش .

صوت جهوري صدر من وسط الغرفة بنادي بتعجل: هيا يا علي استيقظ، سيبرد الفطور، لا داعي للتأخر أكثر من هذا.

فتح عينيه الناعستين ببطء شديد ثم أغمضهما سريعا كردة فعل لأشعة الشمس القادمة من الشباك التي دخلت عينيه اللتان لم تكونا قد تأقلمتا على الضوء بعد. فكر أن يتجاهل النداء ويعود للنوم مرة أخرى إلا أن الصوت عاد من جديد ليحبط فكرته.

- حسنا يا أبي أنا قادم. قالها متثابا بصوت واهن.

نهض متثاقلا من على سريريه، يفرك عينيه ويضغط بقوة علي رأسه ليخفف من حدة هذا الصداع القوي الذي يلازمه منذ استيقظ.

كل شئ في الغرفة يبدو مختلفا.. يبدو أكبر وأكثر بياضا.

تسائل في نفسه متعجبا: هل أصاب مكروه عيني؟ هل هذا تأثير الصداع الذي لا أعلم سببه؟!

قطع جبل أفكاره صوت عال جدا أنساه الصداع لبرهة، إنه صوت والده بدعوه لتناول الطعام مرة أخرى، أسرع علي الخطى إلي الصالة ليُلبى نداء والده ويجعله يكف عن النداء بهذا الصوت الذي يزيد من صداعه.

دلف إلى المطبخ حيث كانت الطاولة الخشبية الصغيرة مربعة الشكل وحوها ست كراس، مرصوص عليها كافة أشكال وأنواع الطعام ووسطها مزهرية بها طاقة ورد عبارة عن

مزيج رائع من اللافندر والتيليب، كان منظر الطاولة وما عليها من أشياء مهيبا، وكانت الرائحة تفوح من الطعام والزهور معا مكونة رائحة موحدة هي خليط بين كل من روائح تلك الأطعمة تدخل أنفه فتثير كافة مستقبلات الروائح الشهية وحلمات التذوق قبل حتى أن يتذوق- في آن واحد.

كان رشاد يجلس في وقار منتظرا هناك. طويل هو، رشيق.. شعره أسود كسواد الليل حليق اللحية له وجه مربع وعيناه بنيتان واسعتان يصيبها ضوء الشمس فتميل للخرقة قليلا، يرتدي قميصا أبيضاً وبنطالا له نفس درجة اللون. سحب على الكرسي وجلس على يمين رشاد الذي كان يجلس على رأس المائدة ثم سأل بدهشة واستغراب: كم الساعة الآن؟!

رد عليه رشاد بكثير من حصافة ورزانة: وما فائدة هذا السؤال؟!.. الوقت هو أغرب شيء في هذه الحياة يا "علي".. الوقت هو أكثر شيء يأخذه الناس كأمر مسلم به.. هو ليس كائنات حيا.. لكنه يؤثر في جميع الكائنات على شكل سواء، الأغرب أن جميع الكائنات تتعامل مع كأنه شيء مقدس.. إلا الإنسان فهو دائما ما يتفنن في كيفية إضاعته أو قتله.. مسكين الإنسان.. لا يدري أن الوقت هو أكثر قاتل محترف في التاريخ.. يقتل كل شيء.

ربما كُتب على بني البشر الخلود لكن الوقت هو السم الذي ينهي حلمهم الأبدي.. يستغرق في المتوسط -دون تدخل عوامل خارجية أخرى- ستين عاما ليقتل الإنسان.. يبدأ مفعوله منذ ولادته ولا ينتهي تأثيره على الإنسان حتى يصبح الجسد غير قادر على تحمل المزيد من السم.. حتى تتحلل كل خلية فيه...

ومع ذلك دائما ما يشغل المرء نفسه بالسؤال عن كم الوقت؟.. وكم مر منه؟.. وكم بقي؟ وكل هذه الأشياء دون النظر إلى الجدوى الحقيقية منه والغرض الأساسي الذي هو هناك لأجله.

توقف عن الحديث فجأة ولم يوضح أكثر من ذلك.. تاركا علي -الذي كان يأمل أن يخبره والده الجدوي الحقيقية التي يرمز إليها- مختارا ومتعجبا من عدم إجابته على السؤال. بدلا من ذلك عاد يستأنف كلامه متجاهلا تماما إكمال حديثه الأول بنبرة هادئة قائلا: ما رأيك في الطعام بابني؟ أخبرني الحقيقة بلا مجاملة.

أنساه الطعام الأسئلة التي تدور في عقله وقال بانبهار وهو يغترف بنهم من صحن الفول الذي أمامه: هممم إنه جيدا جدا، ألا تسمع أصوات تلذذي به! ابتسامة حانية ارتسمت على وجه رشاد وقال بصوت عميق حنون: حسنا، أنا سعيد جدا أنه أعجبك.

-لا، أعني أنه يبدو فعلا ممتازا. ولكن بشكل مختلف! أنا لم أر في حياتي طعام بهذه الأشكال والألوان، حتى طعمه أفضل من المعتاد بكثير!

توقف عن مديحه بشكل مفاجئ كأنه تذكر شيئا، نظر إلى عيني والده وقال: لكن ليس هذا ما أرغب في الحديث عنه الآن.

أكمل مضغ الطعام في فمه وبعدها أنهى تابع قائلا: أين كنت كل هذه المدة؟ أشعر أنني لم أرك منذ زمن بعيد جدا، حتى أنني لا أذكر آخر مرة رأيتك فيها، لكن ملاحظك مازالت تبدو كما كانت آخر مرة رأيتك فيها! أنا مرتبك جدا.

تنهد رشاد وهو يضع الرغيف الذي في يده على المائدة وقال بسكينة ووقار: إنها قصة طويلة، سوف أحكيها لك عندما نصعد إلى السطح لنستنشق الهواء النقي بعد أن ننتهي من تناول الفطور.

المهم الآن أننا معا.. لكن عليك أن تعلم ما كان البعد زهدا بيننا.. وكيف أزهد فيك وأنت أنا! هو قدر.. كتب ومررنا به.. لكن ضاق على الكون بعدنا.. فرتب لقاء لنا...

سادت الدهشة والتعجب عليه وعبر وجهه عن شيء من الانفعال، لم يدر ماذا يفعل يقول.. ماذا يقول وهو لا يدري أصلا بماذا يشعر! كان يقاوم شعورا ملحاً في رأسه أن يقوم إلى والده فيحضنه.. يحضنه حتى تتداخل ضلوعهما.. حتى يتحد قلباهما.. حتى تنصهر روحاهما.. حتى يعجز الوقت عن التقدم والعقل عن التفكير.

يشعر بلوعة فراق طويل واشتياق بينهما، لكن عقله المنهك لا يستطيع ربط الأمور ببعضها.. الأمر أشبه بحلم.. حلم ضبابي بعيد!

لم يقدر على أن ينطق سوى سؤالاً عرضياً عن والدته وأخته مشيرة.

أتاه صوت والده هادئاً رصيناً حين قال: هما بالخارج، لا أعلم بالتحديد متى ستأتیان. الأفضل أن نبدأ نحن، لا أريد أن نتأخر. أريد أن نصعد إلى السطح ونرى النور مبكراً. يفضل أيضاً أن تنتهي طعامك سريعاً كي نحصل على أكبر قدر من الضوء والهواء النقي قبل أن تلوّثه أنفاس الكسالي.

أغمض عينيه وضغط بكفيه على جانب رأسه تحديداً على "Temporal region" وتقبض وجهه بعلامات ألم، ثم قال وهو يتحامل على نفسه ولا يدري ماذا يحدث له: لا



أريد الذهاب إلي أي مكان الآن. أنا أشعر بصداع رهيب، وأسمع في أذني صوت طنين عال يشبه ذاك الصوت الذي يصدره جهاز تخطيط القلب الكهربائي عندما يتوقف قلب المريض المتصل به عن العمل ويستقيم الخط الذي فيه مصدرا هذا الصوت المزعج "تيسيسيسيت"، إنه يطن في أذني منذ الصباح.

ربت على كتفه بحنو، كانت يده باردتين كأنهما قد خلوتا من الدم!

ثم قال: لا بد أنها مشكلة ناتجة عن كثرة ضغط العمل وقلة الاهتمام بالتغذية السليمة؛ فأنت تقسو علي نفسك كثيرا في العمل يا بني.

أنزل يديه من على رأسه بعدما هدأ الصداع قليلا.. يدرك تماما أنه والده محق، لقد أجهد نفسه كثيرا مؤخرا، لكن ألم يكن والده هو من أخبره قبلا: "إن أسوء عقوبة لرفضك تولي المسؤولية أن شخصا أقل منك كفاءة سيصبح مسئولا". أفتحته المقولة مذ أخبره بها أول مرة ومازال يعمل بها.. ما زال يجهد نفسه في العمل حتى يتم على أكمل وجه.. على حساب صحته!

فتح عينيه ليرى والده فإذا بنور قوي ضرب عينيه فأغمضهما إثر هذا النور الشديد.

تمهل لحظات حتى تأقلمت حدقتا عينيه على النور.

استطلع المكان أمامه وحوله بدهشة ورهبة، ثم استدار خلفه فوجد والده واقفا منتصباً يتطلع إلى السماء باسقاطا ذراعيه جانبيه كأنها يريد التحليق!

ابتسم "علي" رغما عنه من المنظر الذي رآه، فقد كان والده يبدو مثل "جاك" في فيلم "تيتانيك" ولكن بدون سفينة أو "روز" تقف أمامه.



فجأة وعلى حين غره صرخ علي متألماً، واستلقى على الأرض ببطء إذ لم تستطيع قدماه تحمل ثقل وزنه.

أرخی رشاد ذراعيه وعاد ينظر إلى علي وهو يقترب منه ببطء شديد ويسأله عن حاله وهل أصابه مكروه ما.

أتى صوته ضعيفاً منكسراً يقول: أرجوك أخبرني أنك تسمع ذاك الصوت أيضاً، أرجوك.. أخبرني أنني لستُ مجنوناً.. علي الأقل لم أجن بعد.

بدا التعجب والاستغراب على وجه رشاد الذي سأل: أي صوت ذاك الذي تقصده؟ هل عاد الطنين في أذنك مرة أخرى؟!

حاول النهوض لكنه لم يقدر فاكتفى بالجلوس، وقال بصعوبة شديدة: لا، حسناً نعم مازالت أسمع الطنين ولكن الآن أسمع أصوات كثيرة متداخلة يبدو أنها أصوات أشخاص تتحدث، وهناك صوت امرأة تصرخ بشكل فظيع يبث الرعب في قلبي وعروقي.. صرخة من تقتلع عيناه أو يسلخ جلده أو كأم تكلّي!...

كان يضع يديه على أذنيه ويضغط عليها بقوة شديدة محاولاً تهدئة تلك الأصوات.. لكن دون جدوى.

توقف عن المشي تجاهه، توقف في مكانه وبدأ يحدق فيه وطلب منه أن يهدأ.. أخبره أنه لا داعي للفرع، ثم. وعندما أحس منه هدوءاً قليلاً عاد يسأله عن تلك الأصوات وهل يستطيع تمييز أي منها أم أنها مجرد تشويش!

قال بصوت واهن وهو يستجمع قواه الخائرة: سمعت إحداهن تصرخ طلبا للمساعدة، من بعدها تجمع عدد من الأشخاص -لا أستطيع أن أحصي عددهم تحديدا- وأصبحت الأصوات متداخلة بشكل كبير؛ فلم أستطع تمييز سوى بعض الكلمات القليلة المتقطعة مثل: "لا أستطيع، لا فائدة، حاول مرة أخرى، أرجوك!!..".

وكان آخر ما سمعته هو: "السابعة والنصف صباحا، الثلاثاء الموافق التاسع من شهر أبريل عام ألفين وتسعة عشر ميلاديا".

بعض الأصوات بدت مألوفة.. علي الأرجح كل الأصوات كانت مألوفة لكن بدا لي أنني استطعت تمييز بعضها أكثر من الأخرى.

شرد قليلا ف عالم من الخيالات والتساؤلات.. وتوقف عن الحديث برهة ثم سأل متعجبا: أليس هذا هو تاريخ اليوم؟!

أوما رشاد بالإيجاب، وأخبره أيضا أنها على الأرجح الساعة ذاتها.

كانت الحيرة تعلو وجه علي بينما وقف رشاد متفرجا بهدوء، بدا أنه يعرف شيئا لا يعرفه ولده.. لماذا لا يخبره؟.. لماذا لا يريخ ألمه.. ليس الألم الجسدي.. هو ألم زائل لا محالة.. بل ألمه النفسي!.. لماذا لا يخبره الحقيقة؟!

السؤال الأصح هو: هل يعرف رشاد الحقيقة؟!.. هل يعرفها أحدا!.. أشك.

عاد يسأله عن تلك الأصوات وما إذا كان يستطيع التعرف عليها أم لا.

-لا، أشعر أنني أعرف أصحابها، لكنني لا أستطيع تمييزهم.

عاود الاقتراب منه ببطء وحين وصل إليه جثا على ركبتيه وضمه بحنان، ثم وضع قبضة يده علي جبهته وحرك يده علي هيئة دوائر بلطف.

في تلك الأثناء لم يستطع علي أن يحرك عينيه من علي وجه أبيه، ذاك الوجه الذي يتذكره علي منذ زمن بعيد - لا يعلم مدته - لكنه محتفظ بهيئته ووسامته.. بل هو أجمل.. إنه أشبه بوجه ملائكي!

لماذا عاد؟.. لماذا الآن بالتحديد؟!.. كيف لا يقدر علي سؤاله عن تلك الأسئلة التي تدور في عقله الواهن وتثقله بأوجاع أكثر مما فيه؟.. لماذا ينقاد إليه ويحييه عن أسئلته ولا يسأله هو؟.. لماذا حتى لا يعقب علي كلامه الغامض!

لم يعرف كيف يتصرف.. وكيف يعرف وهو لا يعرف سبب فعله ما يفعله!

كيف تبني فعلا علي سبب غير موجود!

اعتصر رشاد يدا علي بقوة ثم دعاه للنهوض والنظر إلي السماء ليصفي ذهنه.

وقف رشاد خلفه وسأله بجمود: ألا تذكرك تلك الأصوات والأحداث بشيء رأيته قبل ذلك؟

شهق بشدة واستنشق هواء ملأ رئتيه حتى فاضتا ثم زفره بعنف وهو يقول مستذكرا: بلى، أنا أحضر مواقف كثيرة مثل تلك، فعندما يموت مريض ما في المستشفى ويكون أقاربه حاضرين يبداون في الصراخ بهذا الشكل، وأكون أنا واقفا هناك لتهدئتهم.

أحس والده يبتسم علي الرغم من أنه لم ير وجهه لكن أحسها عندما تحدث بتفاخر قائلا: ألم أقل لك؟

أمسك معصميه ومدهما إلى جانبيه وطلب منه أن يغمض عينيه ويملاً رثتيه مجدداً بالهواء النقي بعيداً عن هواء المكيفات الصناعي.

سحب رشاد نفساً قوياً ثم زفره ببطء، قلده علي تماماً عدة مرات، حتى تابع كلامه: قلت لك أن الأصوات التي تسمعها هي بسبب الإجهاد في العمل. وها أنت ذا تسمع أصواتاً تحدث في أحد أكثر المواقع حزناً وكآبة علي الأرض.. موقف يميت النفس.. حتى وإن لم تدرك حينها.. مشهد موت إنسان ليس بالهين على النفس البشرية أبداً.. ولا يمر مرور الكرام.

لا بد أن مثل تلك المواقع الكثيرة التي مرت عليك تركت في نفسك أثراً سلبياً.. ومع توالي مثل هذه المواقع.. بدأت كرة الثلج تتدحرج.. وأصبح التأثير الضعيف الذي تركه فيك مع الزمن تأثيراً قوياً حتي جعلك عاجزاً عن الوقوف أو التركيز هكذا. هز رأسه ببطء موافقاً كلامه، لا بد أن هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.

ينشغل الإنسان كثيراً بعمله.. وينسى أن لروحه قدرة.. ينهمك في عمله وينهك روحه فضلاً عن جسده.. هو تماماً كمدمن مخدرات.. ينهك عقله ويضيع النعمة التي وهبها الله إياها.

على الأقل حصل على إجابة أحد الأسئلة التي كانت تدور في رأسه.

قد يتحمل ألم الصداق وطنين أذنه لكنه أبداً لا تحمل ألم التفكير الكثير دون جواب...

قال رشاد بخفوت بين تنهيدتين: أرجو ألا يعلمك الاحتكاك بتلك القسوة القسوة كما يفعل مع معظم الأشخاص.. أرجو أن يعلمك الرحمة والتعاطف كما القلة المختارة.

لماذا يكثر من إلقاء الحكم اليوم؟ ليس عادته.. على الأقل كما يذكر.

لكنه أيضا في تلك المرة كان محقا. كان علي قد قرأ منذ أيام مقالة عن أن الأشخاص "العصامين" (من مروا بظروف قاسية حتى كونوا أنفسهم)

يكونون أكثر الناس قسوة على غيرهم وأقلهم تعاطفا مع من مروا بنفس ظروفهم على غير ما يتوقعه معظم الناس، والسبب أنهم دائما ينظرون إلى ما مروا به في حياتهم ويقارنوه بغيرهم.. يشعرون أن من سواهم مُنعم مُرفه.. أنهم وحدهم من ذاقوا المرار.. فإن ذاقوا الذل والهوان وصعدوا إلى قمة المجد فلماذا يشتكي من هو في نفس ظروفهم أو أفضل؟ هو تفسير لا يعجب أصحاب الأحلام الوردية ودعاة التفاؤل لكنه الواقع..

كون والده محقا أم لا لم يشنه عن أن يسأل بأنفاس متهدجة: هناك شيء واحد لا أستطيع فهمه الآن.

-ماهو يا بني؟

فتح عينيه ببطء ورفع رأسه الملقى على صدره وأكمل حديثه: لا أستطيع تذكر كيف صعدنا إلي هنا؟.. آخر ما أتذكره هو أننا كنا في المطبخ.. وفجأة وجدت نفسي هنا أنظر إليك أنت.. باسطا يديك وتنظر إلى السماء!

بذات الهدوء ونفس الثقة حدثه رشاد مخبرا إياه أنه لا بد أن هذا نوع من فقدان الذاكرة القصيرة المدى المؤقت، ربما حدث بسبب الصدمة، قد تكون لم تشعر بشيء لكن عقلك

الباطن كان يخزن الكثير والكثير من الذكريات السلبية.. حتي فاض به الكيل وبدأت تظهر عليك هذه الأعراض.

استدار علي لكي يرى والده وهو يأخذ طرف الحديث مرة أخرى: ربما في هذه أيضا تكون محقا، ولكن الشيء الذي أنا متأكد منه هو أن هذا ليس شكل السطح الخاص بنا، إنه مختلف، هذا أجمل وأكب.....

توقف عن الحديث فجأة. انتفض للخلف عدة خطوات وقد بدت علي وجهة الدهشة الشديدة وقد انفرج فكه وضيق بين حاجبيه، فرك عينيه بشدة عليها تكون إحدى التهيئات التي سببها لها الصداق أيضا، لكن دون فائدة، فقد وجد والده واقفا مادًا يديه كما رآه أول مرة.. لكن هذه المرة كانت قدمه لا تلمس الأرض.. كأنها.. يطفو!

قال بتردد وشفته ترتعشان حالهما حال باقي أعضاءه: أ.....أبي؟.. ماذا يحدث؟! كان قلبه يخفق بشدة وسرعة شديدة.. خشي أن ينقبض مرة فلا ينبسط من هول ما رآه. ساد صمت فترة وجيزة بينهما، حتى جاء صوت رشاد بعيدا خافتا يطلب منه أن يصمت ويتأمل هذا الجمال. طلب منه أن ينظر إلى النور.. دعه يتغلغل في أصداء روحك المتصدعة.. دعه يزيل هذا الحمل عنك.. دعه ينقي روحك التعب. لم تزل الدهشة من وجه علي وظل يحدق إلى والده في حيرة وخوف.

- هل تريد أن يبقى الحال كالعادة؟.. مرت سنن من التعب وأنت مستمر في سباق الدنيا.. قطعت مسافات ممتلئا بالآلم.. نجوت من معاركك السابقة.. لكن ماذا بعد؟.. أتظنك تنجو من القادمة!

عين الأعمى تعرف طريقها جيدا يا بني. لا تضيع الفرصة بتحليلها.. لا يفهم العقل كل شئ.. الروح تفعل.

رغم غرابة الأمر كله إلا أنه كان صادقا؛ فالسما صافية بصورة غير طبيعية.. يميل لونها إلى الأبيض أكثر منه إلى الأزرق.. أما الشمس فهي بيضاء تماما وتبدو أكبر من المعتاد.. بكثرة لا يرهق عينيه النظر إليها كما المعتاد.. النظر إليها حقا يبعث على السكينة.. على الراحة. كأنها هي قرص تنويم مغناطيسي كبير لا تستطيع أن تبعد نظرك عنه مهما حاولت.. وبعد بضع ثواني تفقد رغبتك في إبعاد ناظريك عنها.. بل في كل شئ آخر. ولم تبعد نظرك عن هذا المنظر الجميل المهدئ للأعصاب الذي ييث السلام والسكينة!.. يبدو فعلا أنه نور من نوع آخر.. نور ملائكي!

يقطع فترة الاستجمام تلك نزول رشاد إلى الأرض مرة أخرى. يستدير ليوواجه علي فلا يرى أي علامة من علامات الدهشة علي وجهة وإنما وجدها قد استبدلت بعلامات من الرضا التام والانشراح.

بصوت خافت همس رشاد: ماذا كنت تقول؟

بتردد وعدم وعي قال: لا أدري.. لم يعد مهما الآن. المهم هو مالذي حدث هنا منذ قليل؟ - من الحين للآخر يجب عليك أن تفتح قلبك وعقلك لترى النور الحقيقي. إن الذي تراه العيون هو نور لا فائدة منه.. هو نور مرهق.. يجلب التعب والمشقة فحسب. النور الحقيقي هو الذي يغسل الروح.. ويصل بالعقل إلى مراحل الكمال وكلما تعمقت أكثر كلما زادت درجة فهمك للحياة.. ونفسك.

قد تدرك يوماً أن النصف الفارغ أنقى من النصف المלא..

انقشعت ملامح الرضا من وجهه وعاد يقطب حاجبيه مجدداً.. كأنها قد زال تأثير مُسكِره،
ثم قال بهدوء يشبه هدوء والده: لا أستطيع إنكار كل هذا الكلام الجيد، ولكنك كنت
تطفو.. كانت الشمس بيضاء وكبيرة جداً، السماء أيضاً كانت صافية وبيضاء! هل هذا نوع
من الأحلام؟!

تنهد رشاد تنهيدة قصيرة ثم رد: يبدو أنه مازال لديك الكثير لتتعلمه. الإنسان الجاهل هو
فقط الذي يعتقد أن الأشياء التي يراها كل يوم هي الحياة الحقيقية ومادونها سراب
وأحلام.. ما نراه بأعيننا كل يوم هو جزء ضئيل جداً من الواقع.. والذي هو في ذاته جزء
من الخيال.

العين ترى والقلب يرى والعقل يرى، كل عضو في جسد الإنسان يرى.. ولكن بطريقة
مختلفة.

يصل الإنسان إلى أعلى مراحل الكمال - وليس الكمال المطلق - حينما يستطيع أن يدرك ما
يراه كل عضو فيه.. وقتها لا يصبح هناك واقع أو أحلام.. عندها يصبح الإنسان حياً
بحق.

ساد صمت طويل كالح بينها كأنها الصمت كان هو المسيطر في هذا الحوار؛ فله هيبه
لايضاهيها أي كلام.. ولو كان من أبلغ الخطباء.

يقف كلاهما على مسافة محددة من الآخر، لم يتحرك أحدهما كأنهما يخشيان أن تنقطع تلك
اللحظة الغريبة الممتعة في ذات الوقت.

أستطيع أن أطفو؟

وهو يطفو.. لكنك لا تدرك ما وراء ذلك.. لا تبصر.

سواہ.. ولکنہ اکتفی فقط بالنظر إلی والدہ.

شيء قد فقد معناه.. كل شيء خلا تلك النظرة إلى والده.

شراسة ممتزجة مع نظرة خوف وقلق في إحساس لم يختبره من قبل.. أو بعد.

اللجنة على الأجدية العقيمة.. تعجز عن وصف شعوره حتى.

يَهْيَأُ إِلَيْهِ.

انتفض للوراء متقهقرا وقال بهلع وحذر شديدان: أ... أألسـت ميتا؟!...

✿✿✿✿

(2)

حيث بدأ كل شيء..

"قد يكون بالغ الشتاء في حزنه هذا العام.. وقد يكون امتد حتى الربيع .. حتى أن الظلام امتد حتى وصل لأعماق قلبه.. لكن هذه طبيعة العالم.. لم يكن ذنب الربيع أن يكون مظلمًا إلا لأنه جار الشتاء.

إنها الخيبة يا عزيزي إذا أصابت قلبًا.. هدمت مشاركته ومغاربه.. قد تكون الخيبة فعل لم تستطع أن تتدارك أمرك من بعده.. قد تكون كلمة.. فأنا أتعجب.. كيف يستهين البعض بالكلمة وقد بلغ من أمرها ما بلغ.. إنها لتؤرق مجلسًا.. وتُعكّر مزاجًا.. وتبدّل حالًا.. وتُريق دمعة.. وتُوحش أنسًا.. وتُثيّر شعورًا.. قد تُورث ضغينة.. وتُفزع سكينه.. أو أسوء! تُميت قلبًا، وتأتي بأشياء قد لا تقدر حوادث الأيام وخطوب الزمان على المجيء بمثلها.. أو بعضها.

بدأت أنفاسك تتزايد.. أستطيع سماع كل زفير رغم المسافات بيننا.. أسمع أيضًا صوت ضربات معاول.. أم هي دقات قلبك!

أعتقد أنك تشعر الآن وكأن حرارة هذا العالم عالقة في عينيك.. ولكن اعلم دومًا أن الحرارة لا تنتج من تلقاء نفسها وأنها تضاعفات من تراكمات لا تحصى.. هي رماد متراكم. يا صديقي.. نحن جميعًا لا نعيش أيامنا.. نحن ننجو منها فقط.. على الجميع الاستعداد للجلوس على هذا المقعد من بعدك.

أعلم أنك تشعر وكأنك على مفترق طرقٍ عدة.. متشابكة ومتعرجة كأفكارك تمامًا.. لا أنت مستقرٌ على فكرةٍ واحدة حتى النهاية.. ولا بمُريدٍ للمزيد.

وأعلم أيضًا أنَّ خلال الباقي من عمرك.. ستتنازل عن بعض أحلامك وتبني غيرها.. ستغضب لسببٍ مهم وآخر تافه جدًا.. ستُفصح عن ربع ما فيك وتخبئ ثلاثة أرباعه.. أو على الأرجح لن تفصح أبدًا.

وأنه مهما كان العمر والحياة مليئة بالمتع.. سيأتي ما يؤلمك.. وينغص عليك راحتك.. فقط ليذكرك أن لا شيء يدوم أبدًا.. وأن عالمنا دومًا ممتلئ بالظلام لأي شيء قد يظهر به مجرد بريق .

فهل تظن بأنَّ قلوب البعض أكثر صفاءً من قلوب إخوة يوسف!.. أتمنى ألا تقصص أحلامك عليهم.. فيكيّدوا لك كيدًا.. فتَهوي في بئر خيبتك وحسراتك.. وأخشى عليك ألا تنهض..."

فُتح الباب برفق، ودخل شاب طويل قمحي اللون مائل إلى السِمنة انحسر شعره عن مقدمة رأسه حليق اللحية وله شارب كثّ لكن قصير (قد يخيل إلي بعضهم أنه أشبه بشارب هتلر).

بفضاظة لا تتناسب وطريقة فتح الباب مطلقًا قال: هل مازلت تكتب مثل تلك المقالات؟! لقد امتلئت الصحف والمجلات بالمئات من هذا الكلام القديم.

- من أخبرك أنني أكتبها من أجل أن تنشر في الصحف والمجلات!

أنا إن فعلتها فقد فعلتها لا لشئ سوى أني أحب الكتابة مذ كنت صغيرا.. وأنت تعلم ذلك.

رد عليه بسماجة وسخرية وهو يارجح قدمه ببطء للأمام والخلف: بالطبع ستقول أنك لاتفعلها من أجل الصحف وأنها هوايتك الأزلية، لأنك تعلم تمام العلم أنه لا توجد جريدة أو أي شخص عاقل يريد أن ينشر مثل هذا الكلام. يجب الناس الكتابة حول الأشياء التي يريدونها لكنهم لا يقدرُوا على فعلها.. إنها نوع من أنواع الهروب من الواقع.. يغضب عليك مديرُك فتتقهقر إلى غرفتك لتكتب مقالة طويلة عن المديرين وكم أنهم بغضين.. تدرك أن لا أحد غيرك يريد قراءة هذا.. تلقيه في سلة المهملات أسفل منك.. تعود للنوم مرتاح البال، لقد كنت بطل قصتك التي صنعتها.. أليس كذلك! هي ملجأ الفاشل...

انفجر بعدها أحمد ضاحكا فاهتزت على وقع ضحكاته كل ثنية في جسده الضخم المترهل، ليس مترهلا من الزمن، لا بالطبع، فهو مازال شابا، وإنما هي تلك الكيلوات من الدهون التي اكتسبها مؤخرا، الدهون التي صاروا يدسونها في كل الأطعمة هذه الأيام.. إنها مرض العصر.

ليت الأمر بالسهولة التي وصفها به أحمد.. ليت يستطيع أن يوافقه الرأي.

لم تكن من عادته أن يدخل نقاشات دفاعا عن أعماله فهو يؤمن تماما أن الكلمة لا تغير إلا من يريد أن يتغير.. لكن تلك المرة أحس بشئ مختلف.. كان يشعر أنه لا يبالي بشئ.

تحتاجه مشاعر حماسية فياضة، ربما هي بسبب أنه لم يكتب شيئاً بهذا الجمال منذ مدة طويلة.. لم تمس يده قلماً منذ أكثر من أربعة أشهر، وهاهو الآن يعود ويكتب تلك المقالة التي تعبر عما بداخله بصدق.

بالرغم من أنه لم يخض أية علاقات غرامية فاشلة أو يغدر به صديق مؤخراً لكنه دائماً ما أحس بشئ ناقص في حياته الروتينية.. شيئاً يكسر أسوار الملل ويهدم أسقف الروتين.. كانت الكتابة كفيلة بذلك.. تحرره من أسوار عبوديته.. تطلق لروحه حريتها.. صوب نظره تجاه زائره وهو يلوح بيده للخلف ثم قال بنبرة تعجب لا تخلو من سخرية: فاشل! مازلت كما أنت.. وقح لا تتغير أبداً.

باعد بين يديه بحركة سريعة وعقف شفثيه ثم قال: ولماذا أتعير؟! التغير للملابس والبضائع، أما نفوس الناس وشخصياتهم لا تتغير أبداً.

- بل تتغير يا عزيزي، صدقني تتغير. على كل حال، ما سبب قدومك المفاجئ هذا؟

أرجع رأسه للخلف عدة سنتيمترات وحقق فيه بذهول ثم قال: ألهذه الدرجة أنستك الكتابة نفسك! ألم يكن بيننا اتفاق أن نذهب اليوم لنزور قبر والديّ! حينما أخبرتني أنك تريد أن تزور قبر والدك أيضاً، أيعقل أنك لا تتذكر!

انتفض من على كرسيه وهب واقفاً، لقد نسي تماماً هذا الأمر، كيف يتسنى له أن ينسى أمراً بتلك الأهمية وهو الذي دائماً يعيب على الأبناء عقوق أهلهم وعدم زيارتهم في المقابر أو الدعا لهم. هاهو الآن ينسى أمر زيارة قبر والده تماماً ولا يذكره إلا صديقه، يالل عار. طلب من صديقه أن ينتظره خارج غرفته حتى يقوم بتغيير ملابسه والاستعداد للذهاب.

وبينما أحمد يلتف نحو الباب كي يخرج لطم "علي" جبهته بكف يده اليمنى فأصدرت صوت جذب انتباه أحمد وصاح يقول: أوووه كدت أنسى وضع أهم شيء في المقال. عقب عليه باستهزاء وهو يغلق الباب ببطء خفله: نعم، بالطبع نسييت.. الجودة. ابتسم "علي" ابتسامة خفيفة ساخرة ولم يرد. عاد للتدوين مرة أخرى.

"الأربعاء الموافق السابع والعشرون

من شهر مارس لعام ألفين وتسعة عشر ميلاديا"

بقلم/ علي رشاد"

صباح اليوم التالي، سمع صوتها الهادئ الباعث للأمان والسكينة في قلبه يخرج ناعماً رقيقاً يسأله: إلى أين تذهب بهذه السرعة؟ ولماذا لم تتناول فطورك مثل كل يوم؟! لقد أعددت لك البيض بالجبن الذي تحب.

تجاوزت عقدها الخامس بقليل لكن مازال وجهها ينبض بالحياة والشباب، بيضاء قصيرة ملامحها بسيطة لكن جميلة.. على الأرجح سبب جمالها هو بساطتها. تمتلك عينين سوداوتين جميلتين يحيطهما أهداب كثيفة ورقيقة، شفتاها مكتنزتان تبتسم فيظل منها صف أسنان أشبه باللؤلؤ رغم كبر سنهما وأيضاً رغم عدم اهتمامها بنظافة أسنانها بشكل كبير.. لا أحد يعلم سرها.. هي غالباً جينات.

تجلس جلستها المعتادة على كرسي الصلاة الذي خصصته لها، تصلي الفجر وتظل تقرأ قرآناً حتى يستيقظ من نومه استعداداً للذهاب إلى المستشفى فتعد له الفطور وتعود إلى ذات الجلسة.

تضع وشاحاً على رأسها معظم الأوقات حتى في المنزل، على الرغم من أنها تمتلك شعراً طويلاً جميلاً لم يحرقه الشيب بعد.. أقسمت على نفسها ألا يمسه رجل آخر بعد وفاة زوجها رشاد.. حرمت جسدها على جميع رجال الأرض.. لن تظهر زيتيتها لأحد أبداً.. حتى شعرها!.. بل حرمتها على نفسها أيضاً.

لم يرها تقف أمام مرآة تُزين وجهها قط أو تضع مساحيق تجميل كما تفعل النساء.

لم ترتدي الذهب قط بعدة وفاة والده خلا ذاك السوار الذي أعطاها إياه رشاد قبل وفاته بعدة أيام.

لم يرها متزينة سوى تلك المرة في فرح مشيرة ابتتها.. فعلتها على مضض؛ فلولا إلحاح مشيرة عليها وإصرارها أن تأخذها معها للكوافير يضع لها بعض المساحيق تخفي آثار الإرهاق البادية على وجهها بشدة من تعبها في التجهيز لفرح ابتتها ما وافقت.. أخبرته قبلًا أنها لن تتزين وتكون سعيدة بحق إلا يوم فرحه.. واليوم الذي تمسك فيه حفيدها منه بيديها.. كانت تلك آخر أمانيتها في الحياة.

ليس معنى أنها لا تحب الزينة أنها ليست جميلة.. إطلاقاً، بعض الناس وهبهم الله جمالاً طبيعياً يطغى على أي مستحضر تجميل صناعي.. هي منهم.. تمتلك جمالاً خلاباً ووقاراً في ذات الوقت!.. هي هبة الله لهم.

بينما هو يغلق آخر أزرار قميصه الأبيض بلون الطباشير رد عليها: آسف يا أمي. لقد تأخرت علي العمل اليوم. يمكننا أن نتناول الغداء معا عندما أعود.

-إنها لا تزال السادسة والنصف يا عزيزي. أنا سيدة عجوز بالفعل ولكني ما زلت أتذكر كيف أقرأ الساعة.

ابتسم "علي" ابتسامة حانية تظهر وجنتين واضحتين كالشمس -كأنها ثقب أحدهم خديه بمشار- ورثها عن أبيه، ربما لم يرث عن أبيه إلا هاتين الوجنتين وبعض الديون، ثم اكمل متعجلاً:

إنه يوم غير عادي. مالك المستشفى الدكتور حاتم السعيد عاد من باريس بالأمس وسيأتي ليطمئن علي أحوال المستشفى ومن الضروري جدا وجود "كاست" الموظفين كاملا، وأن يظهروا بمظهر يليق بالمستشفى وسمعتها. لا أريد أن أتأخر.

صوت طرقات مدوية علي البوابة قطع حديثهما.

نظر علي من النافذة ليرى من الذي يطرق بتلك القوة، ثم يزفر قائلا: -إنه أحمد. دائبا يأتي في ميعاده.

زفرت عطيات بعنف هي الأخرى وهي ترمش برفق، ثم قالت بحنق وهي تهز كتفها: طوال عمري لا أشعر بالارتياح تجاه هذا "الأحمد" الأفضل أن يدعوه "أحق" لا "أحمد". قال علي بابتسامة صغيرة: لا أعلم سبب عدم تقبلك له مذ كنا صغارا يا أمي.

-إنها أفعاله تلك التي تجعلني لا أطيقه، هل نظرت إلي وجهك أول أمس بعدما خرجت من غرفتك بعد أن جاءك بقليل؟! من عرفتك بعد أن جاءك بقليل؟!

أدركت حينها أنه هو الذي أغضبك.

-أنها فقط تلك الانتقادات الأدبية اللاذعة التي تعود عليها منذ الصغر، لكنه بخلاف ذلك شاب طيب ومحترم. هو من ذكرني بزيارة المقابر.. هو ابن بار وصديق مخلص. =ليتها تلك الانتقادات الأدبية فقط.

أدراة وجهها إلي الجانب الأخر من الغرفة بعد أن رفعت حاجبها بنظرة غيظ، وضربت ظهر يدها اليسري بكفها الأيمن كما اعتادت أن تفعل عندما تكون مغتاظة من أحد أو تسمع كلاما لا يعجبها.

بالطبع هي لا تستطيع أن تنسي انتقاداته لطعامها عندما كانا صغيرين ويأتي ليلعب مع علي، إذ كان دائما مايقارن بين طعامها وطعام والدته وبالطبع يكون الشاء كله من نصيب الأخيرة.

هي متعاطفة معه بسبب ظروفهم المادية ووفاة والدته المفجعة، ولكنها في النهاية أنثى لا تتحمل أن ينتقد أحد طعامها أو ثيابها وبالطبع شكلها. لا يجد لهذا الكره سببا آخر يستطيع تفسيره به.. خصوصا أن كرهها له زاد بعد وفاة والدته بفترة بسيطة، على الرغم من تعاطفها التام معه ومع والدته.

هذا الاهتمام بأدق التفاصيل الذي ينجص علي الرجال حياتهم. لذلك لا أتعجب عندما أرى رجل فقد شغفه للحياة بعد الزواج بعدما كان سعيدا يفرح ويمرح.. بل ربما يفقد عقله أحيانا. إنها صفات يولدن بها - للأسف - لا سبيل لتغييرها.

لبس حذائه مسرعا وأخبرها مجددا أنه قد تأخر. بهمّ يفتح الباب والنزول فتنظر له نظرة غاضبة على إثرها يتذكر أنه نسي تقبيل يدها كما اعتاد أن يفعل.

رفع رأسه ونظر إليها في لطف وقال: أنا مغادر الآن يا مصر (كما يحب أن يدعوها) هل تريدني شيئا آخر؟

أتى صوتها عطوفا جدا وهي تقول: لا إله إلا الله



"حين تستبد كآبة ثقيلة بالنفوس التي صارت من المحن في ظلام.. تأتي
الذكريات فتنعش النفوس وتحييها، مثلها كمثل تلك القطرات من الندى
التي تضع رطوبة المساء على الأزهار بعد نهار خانق.. فتبعث الحياة في هذه
الأوراق الحزينة التي كادت تمحوها الشمس المحرقة.."

-دويستوفسكي



-السلام عليكم؟

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

يجيب جميع الطلاب في وقت واحد كأنها "أوركسترا برلين الفيلهارمونية" لكنها فقط لمن هم في الحادية عشر من العمر.

لون رمادي فاتح مدهونة به الغرفة من الأرضية وحتى السقف، دون أي شكل من أشكال الزينة أو أي اختلاف في الألوان، إلا من بعض اللوحات القديمة المهرولة التي صنعها الطلاب يدويا كأحد أنشطة المدرسة، تلك التي لا يعود منها بفائدة علي الطالب إلا بضع درجات يعطيهم إياهم المعلمون، ولا حتي تفيد المعلمين ولكنها فقط مجرد إجراءات ورقية في دولة من الورق، في حين لم يستفد منها الا بائع اللوحات والأقلام الملونة فقط، أما الأهالي فهم الطرف الوحيد الذي يتأثر بهذا الموضوع بالسلب طبعاً -أعني النقود-.

لوحة كتابة "سبورة" كبيرة في المنتصف الجدار الملاصق لباب الفصل، لونها أسود ولكن مع كثرة الكتابة بالطباشير عليها وعدم إزالته بشكل جيد استحال لونها رمادياً أيضاً. يزينها في المنتصف من الأعلى وبخط جميل عريض جملة "بسم الله الرحمن الرحيم".

لا يعلم أحد متي تم كتابتها علي الأغلب أنها تأتي مع السبورة، يعتقد جميع الطلاب أنها شيء مقدس وأن من يجزؤ علي محوها ولو بالخطأ فإنه سيخلد في العذاب.

يرتدي جميع الطلاب زياً موحداً -بالطبع كما توقعت- لونه رمادي دائماً ما يكون كبيراً علي الطلاب ويضطرون لثنية عدة ثنيات داخل البنطال حتى لا يبدون كالمهرجين، نستطيع أن

نجزم أن هذا المقاس هو من اختيار الأم أملا منها في أن يستطيع ابنها أن يرتديه عدة أعوام متتالية، ولكن بهذا الحجم يبدو أنه يمكن للطلاب أن يرتدوه حتي التخرج!

تبدء المعلمة في أداء مهمتها وشرح الدرس، ويبدء الطلاب أداء مهامهم أيضا، فالأكثريه يحاولون النوم هناك بعضهم لا يستطيع بسبب صوت المعلمة المزعج وهي تشرح، ولكن بعضهم لا يهمه حتي ما إذا كانت الأوبرا نفسها تعرض في الفصل فإنه سينام لا جدال في ذلك.

بعض الطلاب يحاولون اختلاس قطعة طعام من الـ "سندويشات" التي أعدتها لهم والدتهم بالرغم من أنها الحصنة الأولى ولم يمر علي إفطارهم سوى ساعة أو أكثر بقليل، إلا أن الأكل في الفصل له طعم خاص طعم جميل.. لا أحد يدري لما كل الأشياء الممنوعة تكون لذيذة وجميلة عن غيرها؟!

الأغلب بسبب فضول الإنسان.. والرغبة في الحصول علي بعض الإثارة التي يصحبها تدفق الأدرينالين؛ فإشباع الانسان لفضوله له طعم أفضل ألف مرة من أي طعام على وجه الأرض.

أما القلة المتبقية من الطلاب فهي تحاول التركيز مع شرح المعلمة وسط أصوات الشخير والأكل التي بجوارهم.

يوجد في العالم ثنائيات كثيرة لا يمكن تفرقتها عن بعض مثل: قيس وليلي، روميو وجوليت، عنتر وعبله. أما في هذا الفصل فهناك ثنائية من نوع آخر، سالم ومنير، أصدقاء العمر.

يدرك علي معنى الفراق ولوعة الاشتياق؛ فقد توفي والده وهو صغير، كان في السادسة من العمر حينما أحس أنه يجب أن يكون رجل البيت، تحمل المسؤولية في سن صغيرة لكن عطيات كانت تريحه قدر الإمكان، لم ترد منه أن يشعر أنه مختلف عن أصدقائه، أرادته أن يعيش طفولته كأبي طفل طبيعي.

هو الآن يحاول أن يقوم بدور عطيات مع صديقه.. لا يريد أن يتركه وحيدا.. سيتحمله كما تحملت عطيات عصبيته واحتوت حزنه بعد وفاة والده.

قال بصوت خفيض فيه نبرة من فرح محاولا تلطيف الوضع: على الأقل اعتبرها تسلية للوقت.

-الجلوس علي الهاتف تسلية قراءة كتاب تسلية أما هذه سخافة، بالإضافة الي أننا سنصل المستشفى بعد دقيقة، والأفضل أن نركز علي مظهرنا وماذا سنفعل أمام الدكتور حاتم.
-أوافقك الرأي في موضوع الدكتور حاتم فقط.

ربما يكون أحقما معظم الوقت لكنه يصل للذروة حينما يكون حاتم موجودا، لا يعلم أيجه أم يكرهه.. يشني عليه دائما ويمدحه في أي شئ يفعله.. لكن لا يبدو سعيدا أبدا.. هو يهابه!.. يشعر أنه صاحب فضل عليه بعدما أعطاه فرصة أن يعمل عنده خصوصا بعد الظروف العصيبة التي كان يمر بها إزاء وفاة والدته. أوقف سيارته في مكان بعيد عن المستشفى؛ لا يريد أن يراها أي أحد أو يسأل من أين حصل علي المال الكافي لشرائها.
حتي إنه لم يخبر علي أنه مقبل علي شراء سيارة أو قام بالتلميح لذلك. هو فقط وذات مرة أخبر علي أنه أشتري سيارة.

أخبره أنه اشتراها بالتقسيط من المال المتبقي له من ميراثه من والده. لم يكن أمرا غريبا حتى لو كان اشتراها من مرتبه، هو ليس فقيرا ولا قريبا من ذلك حتى.

لم يستفسر علي أكثر من ذلك فهو يؤمن جدا بالخصوصية، لكنه تعجب من أن صديق عمره لم يخبره عن هذا الموضوع شيء!

(5)

المشفي في أبي حلة اليوم..

الورد يملأ المكان، والنظافة بادية علي كل ركن كما العادة لكن اليوم كانت مبالغ فيها. يبدو أن الشائعات حقيقية فعلا وأن الدكتور حاتم عاد من سفرته إلى باريس قبل الميعاد المحدد بثلاث أيام.

كان من المفترض أن تكون هذه زيارة مفاجئة ولكن لا شيء يخفى في مصر.. جميع الأخبار قديمة حتي وإن كانت حدثت منذ ساعات فقط.

ليس هذا هو الشيء العجيب بل الغريب هو أن رؤساء العمل في أي مكان عندما يأتون في واحدة من تلك "الزيارات المفاجئة" لا يتعجبون من كم النظافة وكيف أن كل شيء يبدو مثاليا، هل يعتقدون حقا أن هذا هو الوضع دائما؟! إذا فهم مغفلون. وإن كانوا يعلمون أن هذا ليس هو الوضع دائما فهم فاسدون.

الوضع يختلف هنا قليلا إذ أنها مستشفى خاصة، وللأمانة هي طوال العام نظيفة ومرتبّة.. كل شيء في مكانه.. لا مجال للأخطاء، لا عجب أنها واحدة من أشهر المستشفيات في مصر بل العالم العربي كله.

في الطريق إلى قسم الباطنة الذي يتوجه إليه يوجد حوالي مايقرب من عشر لافتات تحمل عنوان مستشفى "الأمل" وتحتها بعض الكلام عن رؤية المستشفى وماتسعي إليه وتلك الأشياء التي لا يقرؤها أحد؛ لأنها في الاغلب لا تمت للواقع بصلة، وفي هذه الحال هي فعلا غير صحيحة.

مكتوب أن المستشفى سميت كذلك لأنها تخلق الأمل للمرضي في الحياة و..... إلخ.

لكن الحقيقة هي أنها سميت كذلك تيمنا باسم زوجة الدكتور حاتم المتوفية "أمل شيرين".

يعتقد البعض -وب"البعض" هنا أقصد المرضات فلا يخفي عليهن شيء هنا- أنه فعل ذلك كنوع من التعويض عن سوء معاملته لها والانشغال بالعمل عنها. هناك أيضا بعض الشائعات عن أنه كان يخونها مع أكثر من امرأة أجنبية وأنها ماتت كمدا وحزنا على ما يفعله زوجها بها.

وأعتقد أنه بذلك قد عوضها ولو قليلا عن تقصيره. لكنها مجرد أوهام قد وهم نفسه بها؛ فقد انشغل عنها في حياتها وكذلك في وفاتها فلا هو يزور قبرها ولا حتي يتابع العمل الخيري الذي كان قد تبرع به صدقة علي روحها متعللا بانشغاله الدائم! ومع ذلك فهو من أفضل الشخصيات التي تعامل معها علي الإطلاق.

"الانطباعات الأولى تدوم" لطالما اعتقد علي أن تلك هي القاعدة في أي لقاء بين شخصين وما دونها هو الشاذ، لكنه أدرك -وخاصة ما حدث مع الدكتور حاتم- أن هذا المثل لا ينطبق عليه الصواب أو الخطأ.

ففي أول مرة قابل فيها الدكتور حاتم كانت مقابلته له جافة.. ولم يعامله بالقدر الكافي من الاهتمام. كان أول انطباع أخذه أنه شخص قاسي لا يهمله سوى مصالحه التي تدر له مال.. لكنه لم يكن يُكن له ضغينة أو ما شابه. وبعد مدة من تعيينه في المستشفى لم يكن قد قابل فيها الدكتور حاتم مجددا بدأت مشاعره تجاهه تتغير!.. بدأ يكن له ضغينة وبكرهه.. بل وصل به الأمر أنه فكر أن يترك تلك الوظيفة -التي ما كان يحلم بها- لا لشيء سوى أنه أحس أن رئيس المستشفى لا يحبه!

تبدلت انطباعاته الأولى عنه مع الزمن!.. حتى دون أن يقابله مرة أخرى!..

لكن. ومع أول لقاء مباشر بينهما تبدلت مشاعره تماما تلك المرة؛ فقد اعتذر د. حاتم من تلقاء نفسه عن عدم معاملته بلطف أول مرة وتعلل ببعض الحجج التي بدت منطقية.

وعلى الرغم من أنه لم تتح فرص كثيرة للحديث بينهما أو الحوارات المباشرة بسبب كثرة انشغاله بالإضافة إلى العدد الهائل من الموظفين في المستشفى ناهيك عن مشاريعه الأخرى إلا أن علي لم ير منه إلا كل خير فهو محترم وذو خلق.. على عكس ما يردده البعض عنه! للأسف سوء خلقه ليس أسوأ مما يتناقله الناس عنه!.. يعتقد البعض أنه زير نساء سكير.. قد يفعل أي شيء ليصل إلى مبتغاه، وأنه ما وصل إلى ما هو فيه إلا بسبب مكره وخداعه ليس لتمييز في ذاته.

كل هذه الأشياء لا تتعدى كونها مكائد يروج لها المنافسون له في مجاله، فإذا دخلت مجال "الزنس" يكون التشنيع والشائعات هما الوسيلة الأساسية للريح وليس العمل على تحسين ما تملكه! لذا فهو لا يشغل نفسه كثيرا بنسل التراب وضجيج الألسنة.

المتسبون إلى هذا المجال يهتمون بعضهم البعض بأشع الأفعال والجرائم، ولا تقف حدودهم عند هذا بل تمتد حتى لا يسلم عضو من أعضاء عائلة الشخص من السب والتشهير!

نفوس بعض الأشخاص المريضة التي تسول لهم الحسد والحقد على أي شخص ناجح هي الخطب الذي يساعد على انتشار تلك النار.. ليس النجاح ما يؤلمهم.. بل رؤيتهم شخص آخر أفضل منهم.. إنه يشعرهم بمدى ضعفهم وعجزهم..

أيضا الملل من العمل الروتيني في المستشفى يفتح للعمال مجال للتخيل والأوهام وتصديق الشائعات حتى مع معرفتهم أنها من المرجح أن تكون خاطئة!

كيف يمكن لشخص أن ينام وهو يعلم أن هناك العشرات يراهنون على فشله!.. وأضعافهم ينتظرون وفاته حتى يمكنهم أن يحصلوا على قطعة من الكعكة!.. وأضعاف أضعافهم يحسدونه على كل ما يملك!

إذا كان هناك شيء واحد يحسداهم علي عليه فهو بالتأكيد قدرتهم على التعامل مع كل تلك الأشياء.. ومواصلة حياتهم بصورة طبيعية!

على كل حال هذه الأقوال والفلسفة التي يحبها علي لن تفيد في التفتيش الذي سيقوم به الدكتور حاتم علي جميع الأقسام اليوم.

كان "قسم الباطنة" الذي يعمل فيه يعد أقل الأقسام ازدحاما، إنه مزدحم لكن ليس مثل باقي الأقسام؛ فسواد الشعب لا يفضل القدوم لمستشفى خاصة إلا للحالات الطارئة فمن هذا الذي سيدفع مبلغا يساوي أضعاف أضعاف المبلغ الذي سيدفعه ف مستشفى حكومي أو مستشفى خاص آخر أقل تكلفة بكثير ليحصل علي نفس الخدمة هنا تقريبا ولكن مع معايير نظافة أعلى؟!

قسم الجراحة هو الأكثر ازدحاما طوال العام، لذلك لطالما حظي بكامل اهتمام الدكتور حاتم، فلا يتم قبول أي شخص يود العمل في هذا القسم إلا بعد موافقة شخصية من الدكتور حاتم، عكس باقي الأقسام حيث يمكن للمشرف علي أي قسم ان يقوم بتعيين الطاقم الذي يريد دون الرجوع للدكتور حاتم وربما يحتاج فقط موافقة من الدكتور "باهر سليم" نائب المدير.

يُمَيِّن نفسه لو استطاع أن يتخصص في الجراحة، آه لو وافقت والدته وتركته يفعل ما يريد لكان الآن من الطبقة العليا -كما يجب أن يطلق علي أعضاء قسم الجراحة هنا- ولكن كان لعطيات رأي آخر.

كانت تريدني أن أتخصص في الباطنة حتي استطيع أن أعالجها، أما الآن وقد صرت طبيبا فهي لا تثق في حكمي ودائما تريد الذهاب لطبيب آخر ليقوم بمعالجتها!

كان أحمد مسرعا في مشيته فقد كان يعلم أن دكتور حاتم يجب أن يتفقد قسم الجراحة أولا.

طبيب ماهر هو.. قلما يخطئ.. إحصائياته تشهد بذلك، هو من أقل الأطباء في تسجيل وفيات أثناء العملية.. لم يكن كذلك قبل عام ونصف.. قبل أن ينضم إلى هذه المستشفى بعدما توفيت والدته.. لكنه سريع التعلم.

قاطع شروده صوت خشن من جانبه: قهوة يا دكتور علي؟

-نعم، من فضلك ياعم سليمان.

-العفو، ستكون جاهزة فوراً. ولكن عليك أن تُسرّع الخطى إلي مكتبك؛ فالدكتور حاتم يبدو مغتاضاً اليوم.

ظهرت ابتسامة سخرية على وجه علي وهو يقول: من يترك باريس ليعود إلي هنا لابد أن يكون مغتاضاً.

-معك حق ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد، يبدو أن هناك مشكلة مع أحد الأطباء في قسم الجراحة، وقد توعد الدكتور حاتم بأن يُحيل حياته جحيماً بعدما قام بطرده.

تمتم علي بصوت خافت: كما يقولون "فلقت العين الحجر".

يضع عم سليمان يده على أذنه ويبرزها للأمام حتى يستطيع أن يسمع بوضوح أكثر: ماذا قلت؟

-أحضر القهوة بسرعة إلي مكنتي ياعم سليمان.

"إن من الضروري لأي شخص أن يكون مهماً لأحد ما في هذا العالم.. أن تكون بطلاً في قصة واحدة على الأقل.. أن تكون داخل رأس شخص ما.. وجودك لا يقتصر على إدراكك لنفسك.. أنت بحاجة لشهود.. وجودك بحاجة إلى شهود.. وعيك الخاص يسبب لك إحراجاً في هذه المسألة.. أنت بحاجة لشاهد واحد على الأقل ليؤكد لك -قبل أي أحد- أنك حقيقي! وأنت لست شبحاً كثيلاً مملاً.. ولا يخيف أحد.

مهما بلغ بنا العمر.. يبقى الاحتواء والشعور بالأمان أول مطالبنا.. أطفال نحن في أعماقنا. والقدر اللطيف عندما يساق لك شخص من أقصى الدنيا لا تعرف كيف التيقته.. ولا متى تحدثت إليه أول مرة.. مجرد نعمة صادفتها يوماً وتتمنى بقاءها معك دوماً.. تؤنسك باقي عمرك وإن قصّر.. المهم أن تشعر بهذا الشعور، على الأقل مرة واحدة قبل أن تموت. يحدث أحياناً أن تشعر بشيء لن تشعر به مرة أخرى.. أول خطوة.. رؤية القمر لأول مرة.. أو ربما عندما تمسك يدها لأول مرة.. بداية الحب دوماً مختلفة.. كذلك نهايته!

يؤسفني أنك كنت دائماً بحاجة لشخص يفهم روحك.. يفهم عمقك.. يفهم أنك لست جيداً ولا سيئاً.. يفهم أنك متعب.. في الوقت الذي يتصور الكل أنك بخير.. كنت بحاجة لمن يفهم ضعفك.

لطالما أملك الكتمان.. أما الآن ستشعر أن شيئاً بك يتلع كل شيء دون أن تشعر وكأن روحك اعتادت على الاحتراق.

الجميع سيصل لنهاية الطريق.. الكل سيتجرع مرارة الكأس.. فيما أن تصل وأنت
تعيس.. أو تصل وأنت متقبل لكل ذلك الظلام!"

فتحت مشيرة الباب بسرعة دون أن تطرق على الباب مقاطعة جلسة استجمامه وانشغاله
بالكتابة ثم ببرود لا متناهي ألقت التحية.

رد علي متجهما: أخرجني وأغلقني الباب ثم أطرقني عليه قبل أن تدخل.

رفعت حاجبها الأيسر في استنكار مع نظرة تعجب وتقول بغضب: حقا؟!

أشار بيمنها إلى خارج الغرفة ويهز رأسه قائلا: بسرعة من فضلك.

من قال أن البنات مثل سكر النبات؟! لا أعلم لكنه بالتأكيد لم ير مشيرة.

لا يعيب أخلاقها شيء لكنه ذاك الاستفزاز الذي لا تنقطع عن فعله له هو الذي يضايقه.

هذه إحدى عيوب أن تكون لك أخت صغيرة مدللة؛ فعندما اختطف الموت والدنا

وهرب كانت لاتزال صغيرة فلم تتذوق إحساس الألم والفقد. وبعد وفاته لم تتوان والدتنا

في توفير كل احتياجاتنا علي أكمل وجه، لم ترد أن نشعر أننا أقل شأننا ممن هم في مثل عمرنا.

أما أنا فقد كنت بمثابة الأب والأخ لها في نفس الوقت. دائما ما كنت أرهاها كوالدها

ولكن لا أستطيع أن أفسو عليها.. فأنا في النهاية أخوها.

تصغره بثلاثة أعوام، تخرجت من كلية التربية بتقدير عام جيد جدا.

قصيرة بيضاء شفتاها مكتنزتان بلون الكرز عيناها بُنيتان تميل إلى الخضرة -تماما مثل

رشاد- لا يظهر علي وجهها أو بشرتها أي شكل من أشكال التشقق أو الإجهاد، ولما

عساها تكون مجهدة؟ وهي المرفهة كأنها وُلدت بنتا لملك أو أمير.

ما إن خرجت من بيتنا الذي كانت تعامل فيه كأمريرة حيث دائما تتعلل أنها لا تعرف أو لا تقدر أو أي شئ المهم ألا تتحرك، فتقوم عطيات - بكل صدر رحب - به نيابة عنها، وذهبت لبیت زوجها "مؤمن السبع" حتى أصبحت تقوم بكل المهام التي كانت ترفضها سابقا.. وأكثر.. عجيب أمر الإنسان!

- طق طق طق

- من الباب؟

- هل تمزح؟ ركلت الباب بلا مبالاة ودخلت.

- علك تكون قد ارتحت الآن.

تنهد متظاهرا بالراحة ليستفزه ثم يسألها عن حالها، فتجيب الإجابة التي يحفظها الأطفال منذ الصغر "بخير. الحمد لله" حتى وإن كانوا لا يشعرون بخير أبدا، لكن هكذا أخبرتهم والدتهم أن يقولوا.

عاد مرة أخرى يسألها عن أخبارها؛ فترد نفس الرد على السؤال السابق. مرة ثالثة يسألها عن الأوضاع وكيف أحوال الدنيا معها، تتأفف بضيق وتنظر إليه شزرا. يعلم أن تكرار تلك الأسئلة يضايقيها، ولم يتاون عن فعل أي شئ لرد الدين لها.. هو مدين لها بكثير من الاستفزاز.

تلتقط طرف الحديث وتسأله بدورها عن أحواله فيجيب بكل برود وهو يرجع بكرسيه للخلف ويوجه نظره إليها مباشرة: لا يمكن أن تكون أفضل. يتسم ابتسامة خفيفة تُظهر

"الغمازة" علي خده فتضحك أخته تأثرا به، ولأنها تحب أن ترى "غمازته" .. تذكرها
بوالدها.

تقفز للأمام في حركة واحدة مباغتة محاولة معرفة ماذا كان يكتب قبل أن تدخل . يعلم
حركاتها، يعلم فيم تفكر قبل أن تفكر؛ أعطاه هذا أفضلية ورد فعل سريع فاستطاع أن
يخفي مذكراته قبل أن تنظر ماذا كان يكتب.

لا يجب أن يرى أحد أعماله ليس لشيء إلا لأنه دائما يرى أنها ناقصة .. يرى دائما أنها بحاجة
لمزيد من التعديل .. يصعب إرضاءه .. حتى كتاباته شخصيا لا ترضيه تماما!

لو أتاح لجميع الناس رؤيتها لن يريها لها خصيصا، يعرف تماما أنها ستسخر من أعماله،
حتى وإن كانت لا تقصد ذلك وكان هو يعلم أنها لا تقصد الإهانة .. لكنه لن يقبل حتى
المزاح .. يشعر أنهم أبنائهم .. ربما يسامح في السخرية منه شخصيا .. لكن أعماله! .. إياك أن
تحاول.

رجعت للخلف منهزمة . طرقت على المكتب قبل أن تبعد فتعود لمكانها الأول جوار الباب
ثم قالت وهي تدير رأسها: كدت أنسى السبب الذي جئت لك من أجله في الأساس . ماذا
فعلت في المستشفى اليوم؟ سمعت أن الدكتور حاتم عاد من سفره مبكرا، عسى
الايكون قد أمسكك متلبسا وأنت تنهرب من عملك كما تفعل دائما. ضحكت ساخرة
وهي تضع يدها على فمها مخفية انفراجة طفيفة في أسنانها تسبب لها حرجا منذ الصغر .

نظر لها نظرة استحقار وهو مازال ممسكا بمذكراته، أردفت علي إثرها حديثها: أمزح
أمزح. أنا أعلم مقدار الجهد الذي تبذله في العمل وأنت لا تجد مجالا للراحة. كنت أحاول
أن أستفرك فحسب.

إذا كان هذا غرضها حقاً.. فقد نجحت.

- اطمئني. كان د. حاتم على عجلة من أمره ولم يتفقد إلا قسم الجراحة والحسابات بالطبع.
والآن دعينا نسأل الأسئلة المهمة...

قاطعته مشيرة وهي تحرك يديها في الهواء مشيرةً إليه أن يتوقف عن الحديث: دون أن
تكمل. إنه في الخارج ينتظرك.

لقد ظل طوال الليل ينادي باسمك ويجري في أرجاء الشقة فرحاً لأننا سنأتي لزيارتكم
اليوم. أخبرني بالله عليك كيف تجعله يحبك هكذا؟
عدّل أزرار قميصه وقال بفخر: إنه سر الصنعة يا عزيزتي.

خرج إلي الصالة ليقابل زوج شقيقته وابنها. انتفض مؤمن من مقعده فرحب به أشد
ترحيب وعانقه كمن عاد من سفر دام العمر كله، يتضايق علي كلما تعانقا لأنه عندما يعانقه
مؤمن فإنه ينحني من أجله وذلك لفرق الطول الواضح بينهما. يجعله ذلك يحس بالقزامة!
طويل وسيم مفتول العضلات ذو قوام ممشوق إلا من بعض الدهون التي ترهلت أمام
بطنه، لا يتذكر علي وجود تلك الدهون لديه قبل الزواج.

وهذا يعني إما أنه يحب الطعام الذي تطبخه مشيرة فيأكل منه كثيراً، أو أنه يعتمد علي
الوجبات السريعة و"الدليفري" من المطاعم وهذا الخيار هو الأقرب للحقيقة فلا يوجد
عاقِل يعجبه طعام مشيرة!

- كيف أحوالك يا حضرة الطابط؟

- الحمد لله أنا بآتم حال. وأنت؟

- بخير. الحمد لله. سمعت أنك قبضت علي عصاة كبيرة من المجرمين وأنت تنتظر ترقية قريباً، عليها تكون أخبار صحيحة.

بالرغم من أنه نسيبه إلا أنه لا يعلم كيف يدير معه حواراً جيداً، دائماً ما يشعر بالتوتر وتخرج الكلمات منه غير مرتبة أو في غير محلها.. هي "عقدة الميري" كما يقولون!

- إنها أخبار صحيحة بشأن القبض علي العصاة، ولكن بشأن الترقية فلا شيء رسمي حتي الآن. كلها توقعات أحتك أو دعنا نقول آمنيات. ضحك ضحكا خفيف وقورا.

- أين ياسين؟ أنا لا أراه.

- إنه مع طنط عطيات ف المطبخ (لا يستطيع إلا أن يناديها "طنط" فهي ترفض أن يدعوها "ماما" كما يفعل معظم الناس مع حماوتهم أو أن يناديها باسمها مباشرة). لا تتعجل رؤيته؛ فأنا مسافر لمدة أسبوع من أجل العمل على قضية مهمة وسيبقى هو والدة معك طوال الأسبوع.

- غريب! لم يخبرني أحد بهذا قبل. ربما خافوا عليّ من الصدمة إذا علمت أن مشيرة ستبقى معنا أسبوعاً كاملاً.

- أنظر للجانب المشرق. سيبيت ياسين معك.

للوهلة الأولى بدا هذا خبراً جيداً، لكن بعد إعادة التفكير في وجود طفل في المنزل لمدة أسبوع! حتى وإن كان "ياسين" حبيبه، يظل طفلاً، مزعجاً.

رباه أزع الغمة سريعاً....

خلق الفجر بجناحيه وعم الدنيا ليمحو آثار خطيئة الليل.. ويبدأ عهداً جديداً في العالم..
عالم سيلوئه الإنسان بالخطيئة أيضاً.. خطيئة النهار.

استيقظ علي وجمع أوراقه وحاجياته، طبع قبلة على جبهة عطيات ثم نزل.

راح يتمشى ببطء نحو المستشفى متأملاً معالم القاهرة، ربما لا يسكن منطقة تعج بالآثار أو
بالمعالم السياحية، لكن في الصباح عندما يخيم الصمت ويرتدي العالم عباءة الهدوء يكون
كل شبر في القاهرة -بل مصر كلها- معلماً أثرياً.

وطأت قدماه المستشفى وفي غمضة عين حدث آخر ماكان يتمناه. رأى البشمةهندس محسن
مسئول الحسابات.

كاد أن يفلت منه ولكن ما إن وضع أول قدم في المصعد حتي سمع صوت هلاكه، صوتاً
جهورياً من الخلف يناديه: أهلاً أهلاً بالدكتور علي. ماذا تفعل في تلك الساعة المبكرة في
المستشفى؟

أرجع قدمه في حسرة على أعماله التي لن تكتمل وتنهذ ثم استدار مقابلاً المهندس محسن
وقال بسرعة محاولاً أن ينهي الحديث سريعاً: أختي وابنها يبيتان لدينا هذا الأسبوع.

لا أستطيع أن أركز في وجودهما؛ فقررت أن آتي إلي هنا بحثاً عن الراحة-التي يبدو أنني لن
أجدها- حتى أستطيع أن ألملم شتات أفكارى وأكتب مقالة جديدة. وأنت ماذا تفعل في
هذا الوقت؟! فالنشاط هو ليس أحد الصفات الحسنة القليلة التي تتمتع بها.

-ربنا يسامحك يا حضرة الدكتور. أنا لم أذهب إلى البيت أصلاً حتي آتي مبكراً.

ثني علي قدمه اليمنى وعقف شفتيه ثم قال: لا تجربني. مشاكل مع زوجتك.. كالعادة!

-لا، أنت سئ في التوقع مثل الكتابة.

قالها ثم هز رأسه كأنها استبعاد وعيه الذي سلب منه غضبا قبل قليل وقال: سامحني يا

دكتور، أنا لم أنم طوال الليل ولا أدري ماذا أقول.

كانت جولته الصباحية في أحياء القاهرة جعلته متشياً بالسعادة ولم يرد أن يشغل باله

بأشياء تعكر مزاجه؛ فhez رأسه متجاوزاً الموضوع.

أكمل محسن يقول متذمراً: إنها أوامر الدكتور حاتم عليه لعنة الله، لا يستطيع أن يرى

شخص يجلس مرتاحاً ويتركه هكذا، لابد أن تعمل وتعمل حتى لو لم يكن هناك عمل..

سيخترع عملاً -ولابد أن يكون شاقاً- ويأمرك أن تفعله. بالأمس كانت هناك مشكلة في

الحسابات وطلب مني ألا أغادر حتي أنهيها، ولكني لم أستطع أن أنهيها حتي الآن.

خلع علي عنه رداء الوقار وتحمس، لا يغيظه شيء أكثر من أن يستخدم مدير سلطته كي

يفعل بموظفيه ما يحلو له.. إنه استعباد القرن الحادي والعشرين. قال منفعلًا: ماذا؟ كيف

يطلب منك أن تجلس كل هذه المدة؟! هذا مخالف للقانون، علي الأقل يجب أن يعطيك مالا

من أجل هذا العمل.

أشاح بكفه أمام وجهه وهو يقول: ولاااااا قرشا واحدا. للأمانة إنه ليس ذنبه؛ فالخطأ في

الحسابات كان بسببي وأنا تعهدت أن أصلح ذاك الخطأ.

زفر علي بقوة مغتازا، فبعدما أخذته الحساسة وشعر أنه نصير المظلومين، كان الخطأ في النهاية يقع على هذا الموظف المهمل.

استدار نحو المصعد وضغط على الزر بسرعة قبل أن يعود محسن ويكمل ثرثرته. لكن هيهات.

-لقد بعثك لي الله من السماء. هي دعوة أمني -الله يرحمها- لي قبل موتها. أريد منك مساعدة في تلك الأعمال. ستقوم ببعض الحسابات البسيطة فقط. سأكون مدينا لك مدى الحياة.

يجب المبالغة بشكل مبالغ فيه.. يعشق تهويل الأمور.

أطرق علي برأسه بعيدا. لقد انقطع جبل أفكاره، السبب الذي أتى إلى المستشفى باكرا لأجله تلاشى. لم يكن من مانع أن يقضي الوقت المتبقي في فعل أي شيء حتى مساعدة محسن لم تبد فكرة غبية.. لكنها كانت كذلك بالفعل!

-بالرغم من تأكيد الدكتور حاتم أن تبقى الحسابات سرا إلا إنني منهك جدا ولن أقدر على إتمام الأمر بمفردي.. بها أنه لا يوجد في المستشفى أحدا أكثر منك أمانة فلا مانع أن تساعدني قليلا.. لن يعرف أحد أليس كذلك؟

كانت آثار الإجهاد بادية على ملامحه كما كلامه الذي لم يكن مرتبا بأي حال من الأحوال.

لا يوجد سبب حقيقي لمساعدته، فمحسن نادرا ما يقدم مساعدة لأي أحد أو يقوم من كرسيه من الأساس، لكن هناك سبب واحد يجعله يفضل بقاء محسن في وظيفته بدل من أن يستبدله الدكتور حاتم بشخص آخر.. إنها الثقة. فبالرغم من عدم تقديمه المساعدة إلا أنه

من أكثر الأشخاص الذين يمكنك أن تأتمنهم علي سر . يمكنك أن تحكي له ما تشاء، إنه لا يستمع إلى حرف مما تقول، لكن يضمن لك أن أحدا لن يعرف ماذا قلت.

من الجيد أن يوجد شخص تستطيع أن تحكي له حتى لو كان لا يستمع.. على الأقل هو أفضل من أن تحدث الجدران!

تقدم محسن نحو غرفة الحسابات، يمشي مسرعا فيصطدم حذائه الجلدي ذو الكعب العالي بسيراميك الأرض فيصدر صوتا أشبه بصوت حوافر الخيول وهي تضرب الأرض في الحروب.

أغلق الباب ثم أشار بيده إلى أريكة فجلس عليها علي ثم أحضر له رزمة من أوراق وضعها أمامه ثم قال وهو يشعل سيجارة: تفضل يا دكتور تفضل . مهمتك بسيطة جدا، ستعمل علي كومة الورق الموضوعة علي هذه الطاولة أمامك، أما الأوراق علي الطاولة الأخرى فهي لي سأعمل عليها. أنت فقط ستقوم بتجميع هذه الأرقام وكتابة الناتج النهائي في المكان المخصص له أسفل كل صفحة.

كان أكثر ما يضايق علي منه هو لامبالاته تلك، يشعل سيجارة داخل مستشفى! يعلم أنه لو أخبره أن يطفئها فسيغفل لكنه سينتظر حتى يغادر ويشعلها لا محالة.. يكره بروده.. ويغبطه عليه!

مدد ذراعيه في الهواء متمطيا والسيجارة تلوح في يده، ارتدى علي الأريكة المجاورة له ثم قال وهو يأخذ نفسا عميقا من سيجارته: لا أخفيك سرا ولكنني لا أستطيع أن أرى أمامي الآن، سأخذ قبولة صغيرة علي هذه الكنبه بجوارك ريثما تنتهي من أوراقك وأنا سأنهي أوراقك عندما أستيقتظ. وسأكون ممتنا لك بعمرى علي هذه الخدمة.

- هذا ما نأخذه منك، كلام فقط. قبل أن تنام عندي سؤال لك، لماذا لا تقوم بهذا العمل علي الحاسب الآلي؟ أنت تمتلك هنا أحدث جهاز كومبيوتر، لماذا لا تعمل عليه؟!

أشار بيده التي يحمل بها السيجارة إليه وحرك يده لأعلى وأسفل في الهواء وهو يجيب: سؤال جيد. هذا ما كنا نفعله بالضبط، لكن منذ عامين كان هناك عطل في المكيف وكان الجو حارا والحاسب الآلي ظل يعمل فترة طويلة مما أدى إلى ارتفاع درجة بعض الأسلاك وتلف في "الهارد ديسك" وتم محو بعض البيانات المهمة. من بعدها والدكتور حاتم يجعلنا نقوم بعمل نسخة ورقية دائما.

صوت شخير عال ظهر مرة واحدة. سقطت السيجارة من يده على الأرضية فانطفأت. نظر إليه علي نظرة حسد واستغراب من قدرته علي النوم بهذه السهولة، فمهما كان علي منهكا فإنه لا يستطيع النوم بهذه السرعة أبدا.

إنه يقسم مرحلة ما قبل نومه إلى مراحل أولها: عندما يستلقي على السرير مباشرة، في تلك المرحلة من كل ليلة يظن أنها الليلة المنشودة وأنه سينام سريعا دون تفكير. لكن هيهات. دائما تأتي المرحلة الثانية وهو مرحلة "جلد الذات والذكريات السيئة" يفكر في ذكريات محرجة حدثت منذ عشرة أعوام أو أكثر.. يفكر كيف أن عشرة أعوام تفصله عن تلك الذكريات.. يفكر كيف مرت من حياته عشرة أعوام وأكثر لم يفعل فيها شيئا يذكر.

يجلد ذاته كأنه شيعي أصيل.. يشعر بألم لكن لا يستطيع أن يتوقف.. هناك لذة في هذا الألم. غالبا ما ينام بعد المرحلة الثانية، أحيانا يظل مستيقظا حتى يدخل في المرحلة الثالثة: مرحلة "التفكير المفرط" يفكر في ما حدث وما لم يحدث لو حدث ماذا كان ليحدث. يتصور

مواقف محرّجة لم تحدث ولن تحدث إلا في مخيلته، ويبدأ الكز علي أسنانه من الضيق والخرج وهو يعلم تمام العلم أنها مواقف خيالية.. لكنها لعنة التفكير.

ولكن أكثر ما كان يؤرق نومه هو تخيله أنه عندما يتوفى لن يأتي أحد ليحضر جنازته، لن يفتقده أحد. لن تنسى الأرض أنه مشى عليها.. لأنها لم تدرك وجوده أصلا!

حتى عطيات التي يعلم أنه نور عينيها وعكازها في الحياة يتخيل أنها لن تتأثر بموته، بل ربما تزوج بعد وفاته من شاب يصغرها بكثير.

يستغفر الله من هذا التفكير ويبدأ لوم نفسه ويعيد مرحلة جلد الذات من جديد حيث يسخر من عدم تحقيقه شيئا مما كان يسعى إليه وبدلا من التفكير في طريقة للخلاص من مستنقع فشله هاهو يتخيل أشياء لن تحدث حتى لو حدثت لن يكون موجودا ليعرف.

وهكذا دواليك حتى يغلبه النعاس أو تشرق الشمس!

وبعد نصف ساعة تقريبا من العمل على الأوراق التي أعطاه إياه محسن بصوت عال قال: يا بشمهندس محساان.

يتثائب محسن بشدة كأنها أستيقظ من ثبات أهل الكهف وبصوت ضعيف نعس قال: ماذا هناك؟ هل أنتهيت؟

-إذا كنت تتحدث عن كومة الأوراق التي أعطيتني إياها فالإجابة هي نعم، أما كومة الورق خاصتك فمازالت كما هي.

رأيت أنك متعب ولن تقدر أن تنهي عملك فقررت مساعدتك، وكنت قد بدأت لتوي في تجميع الحسابات من رزمة الأوراق الموضوعه أمامك، ووجدت اختلافا كبيرا جدا في الأرقام، لابد أن هناك خطأ يجب عليك تداركه فورا.

انتفض محسن من على الأريكة ورمقه بنظرة حادة بعينين شزرتين منتفختين من الإجهاد وقلة النوم ثم صرخ بفضاظة: من طلب منك أن تقوم بهذا؟! ألم أخبرك بمهمتك؟ مهمة واحدة سهلة وبسيطة كيف لم تستطع أن تفعلها؟ هل أنت غبي لهذه الدرجة؟! نهض من أريكته هو الآخر وألقى الأوراق التي في يده أرضا ثم زجر بحق: ليس لك حق أن تحدثني بهذه اللهجة. كان غرضي الوحيد هو المساعدة. هل يكون هذا جزائي؟! أسرع محسن نحو الباب وفتحه بعنف ومد يده طالبا منه أن يخرج من من الغرفة. لم يقدر على تحمل تلك الإهانة ولم يكن يريد أن يتخذ قرارا سريعا يندم عليه فيما بعد. خرج علي يمشي في غضب مسرعا وجذب الباب خلفه بقوة دوى صداها أرجاء المستشفى الهادئ...

كان يوما شاقا وكان العمل كثيرا. في الأيام العادية لا أكون سعيدا عندما يكون العمل بهذا القدر؛ إذ أن جسدي المتعب حينها لا يساعدني في تصفية ذهني والتفكير في مقالة جديدة أكتبها. لكن اليوم كنت سعيدا بهذا العمل لأنني -علي الأقل- وجدت فيه مايشغل بالي عما حدث في الصباح. لا أستطيع نسيان نظرة محسن لي أو الطريقة التي حدثني بها.. هل أصبح هذا جزاء الإحسان هذه الأيام؟!

ولكن هذا لا يبدو منطقيا، محسن شخص كسول فلماذا إذا رفض مساعدة مجانية مني؟

في البداية فكرت أنه ربما لم يرد أن يشق عليّ.. لكنها فكرة مستبعدة.

لو كان يريد راحتي لما صرخ في وجهي هكذا! ومن المستبعد أيضا أن أكون قد أخطأت في الحسابات مما جعله يعتقد أنني لا أصلح لهذه المهمة وربما تسبب خطئي في حصوله هو علي جرعة توبيخ من الدكتور حاتم، فما يزال هو المسئول أمامه.

لقد أعدت حساباتي أكثر من مرة، وتأكدت بالآلة الحاسبة أكثر من مرة. هو حتى لم يأخذ وقتا لكي يراجع الأرقام ويرى ما إذا كنت مخطئا أم لا. كل هذه الأفكار قادتني إلي فكرة واحدة مجنونة.. هي أن البشّمهندس محسن يسرق المال من المستشفى ويخطئ عمدا في الحسابات..

أنا متأكد أنه ليس من هذا النوع من الأشخاص، فهو يملك الكثير من العيوب ولكن السرقة!.. لا أعتقد أنها من صفاته.

ما يقلقني أنه في هذا الزمان لا أمان لأي شخص. هل أخبر الشرطة؟ لكن ما دخلها في مثل هذه الأمور! هذه مستشفى خاصة وليس هذا مال عام يستدعي منهم التحقيق فيه. أخبر الدكتور حاتم؟.. هذا هو الحل الصواب. لكن الدكتور حاتم دائما مشغول، فبجانب أنه مدير المستشفى فهو رجل أعمال ناجح جدا، وله أعمال تجارية داخل وخارج مصر لا أحد يعرف كثيرا عن ماهية هذا الأعمال التي يديرها خارج مصر فهو يعمل بالمثل القائل: "داري على شمعتك". كل هذه المشاغل تجعل مقابلي له تتطلب ميعادا مسبقا.. وربما أنتظر أياما كي أقابله! في هذا الوقت سيكون محسن قد صحح الأخطاء التي ارتكبتها

كلها.. وعندما يباشر الدكتور حاتم التحقيق في الموضوع لن يجد ما يثير الريبة.. باستثناء أقواله.. التي اتضح أنها كذب وافتراء.

وربما يمتلكه الغضب تجاهي خصوصا أنني لا أمتلك أي دليل حقيقي ملموس علي صحة كلامي.

الأفضل أن أتحدث مع أحمد فهو من المقربين من الدكتور حاتم.. يعمل في قسم الجراحة كما كان الدكتور حاتم يفعل قبل فترة ليست بالقليلة.. بل ربما مازال يمارسها في أحيان قليلة، فقد تفرغ لإدارة أعماله المكتبية وانزوى عن العمل اليدوي مؤخرا.. لكنه مازال يكن كل الاحترام لأصدقائه من "الطبقة السامية".. أطباء الجراحة! كما أنني أحترم رأي أحمد فغالبا ما يأتي بأفكار خلاقة.. أو كما يقولون هذه الأيام "خارج الصندوق".. وكثيرا ما تكون صحيحة.

لم تسنح لي الفرصة في المغادرة معه اليوم، فقد كنت مشغولا جدا، وكان قد غادر هو مبكرا.

الموضوع الذي أحتاجه فيه خطير. ويجب أن أتخذ أي خطوة قبل أن يتدارك محسن أخطائه.. فمن المؤكد أن هذا ليس خطأه الأول.. لذلك ربما سيحتاج بعض الوقت لتعديل هذه الأخطاء.

والشئ الأهم من كل ذلك الذي يجعلني أرغب في مقابلة أحمد في أسرع وقت هو عقلي. نعم. عقلي الذي لا يتوقف عن التفكير ويضع ألف "سيناريو" و"سيناريو" للأحداث.. بل ويبدأ في اختيار أسوأ سيناريو وإقناعي أنه الأقرب للصواب.. يُجن جنوني عندما تحدث مثل هذه الأمور.. عندما لا يكون بيدي حيلة غير التفكير!

معاذ سليم

لذا قبل أن أنهي عملي اتصلت بـ "أحمد" لكنه كان قد غادر بالفعل، فدعوته علي العشاء كي يتسنى لي أن أفاتحه في هذا الأمر، بيد أنه كان قد تمت دعوته للعشاء عند حماته؛ فالיום هو الخميس وهو اليوم الذي يذهب للعشاء معهم كل أسبوع. هي أحد تلك الزيارات العائلية، أجل. تلك الاجتماعات المملة والتي لولا عقاب قاطع الرحم ما استطاع أحد أن يفعلها، لكن في هذه الحالة هو يذهب خوفاً من "نكد" منار وغضب حماته صعبة الإرضاء. وعندما أخبرته بجدية الموضوع اقترح أن نلتقي في المساء.. كالأيام الخوالي.. أيام الجامعة.

اتفقنا أن نتقابل في منزله الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل.

الحادية عشرة إلا خمس دقائق...

- أهلاً علي تفضل بالدخول، تماماً في الميعاد. كعادتك. يستطيع المرء أن يظبط ساعته علي مواعيدك.

ابتسم علي ابتسامة صغيرة رغماً عنه وقال: "خير عادة ألا تكون لك عادة" أما أنا فأحاول الحفاظ علي عاداتي الجيدة.. في هذا الزمن أصبح من الصعب أن تجد شخصاً له عادات جيدة يحافظ عليها.. السيئة منها فقط تبقى.

ضحك أحمد وهو يقول بتهكم: بدأت تتكلم مثل جدتي مجدداً.

ريثماً وصل إلى الصالون أشار بيده إلى الأريكة وطلب منه بلطف أن يجلس.

وضع الهدية المتواضعة التي كان أحضرها له على المنضدة الصغيرة المستديرة. الصالون يعد جزء من الصالة الكبيرة التي تغطي ما يقارب نصف مساحة المنزل أو أكثر. صالة واسعة مطلية بلون رمادي ولكنه ليس كذلك إنه أبيض، لولا أنه يعرف هذه الشقة منذ الصغر لما استطاع أن يلحظ أن لونها أبيض.. غطى التراب الجدران كلها حالها كحال باقي أثاث الشقة. يبدو أن أحمد لا يهتم بنظافة الشقة منذ وفاة والدته.

في الأغلب هو لا يقوم بالتنظيف إلا عندما تأتي خطيبته وأهلها لزيارته، ويقتصر التنظيف على الأشياء الظاهرة فقط من الصالة التي يمكن لـ "العروسة" وأهلها رؤيتها، أما باقي الغرف فعلى الأرجح لم تنظف منذ وفاة والدته رحمها الله. بالرغم من شراء أثاث جديد فخم جدا ومكلف مؤخرا إلا أن إهماله جعله يبدو أقل روعة.

الصالة مقسمة إلى ثلاثة أقسام، لا يفصل بينهم جدران أو أي شئ سوى اختلاف نوع الأثاث في كل قسم منهم، فمثلا مكان المعيشة أو الـ "Living room" كما يسمونها تقع في الجزء الأيسر من الصالة الكبيرة.. المكان مكون من ثلاث كنبات أمامهم منضدة صغيرة يتناسب لونها ولون الكنبات الثلاث، وعلى الجدار المقابل لهم توجد شاشة مسطحة "LCD" مثبتة على الجدار قد قاربت ان تملأ الجدار بأكمله من حجمها!

أما القسم الأوسط فيقع على اليمين من مكان المعيشة ويتكون من نيش أسطوري مهيب معظمه من الزجاج ومسلط عليه أضواء تُخيل للناظر أنه من الماس!

أما في أقصى يمين الصالة يوجد القسم الذي تدور به أهم الحوارات التي من الممكن أن تحدث في هذا المنزل.. الصالون.

أريكة كبيرة قديمة جدا قد غارت إلى الأسفل ورثها عن أمه التي ورثتها عن جدته مركونة في أحد جوانب الصالون، أمامها منضدة صغيرة جميلة مزخرفة لا تتناسب أبدا وشكل الأريكة المهلهل ابتاعها أحمد منذ عدة أشهر عندما أقدم علي خطبة "منار"، لكنها تتناسب تماما والأثاث الحديث الذي اشتراه معها. قام بتغير معظم أثاث المنزل لكنه لم يقدر علي تغيير تلك الأريكة إذ تجمععه معها ذكريات كثيرة.. بحلوها ومرها.. لم يقدر حتى أن يغير مكانها!

عبيد نحن لذكرياتنا...

كلما حاولنا أن نلوذ بالفرار من كل ما يعيقنا.. يورق نومنا.. يقتلنا من الداخل.. تطعننا الذاكرة بخناجر مسومة بأكثر الذكريات تأثيرا.. الحنين للماضي.. أخطاء فادحة.. وأسوأهم جميعا.. ألم الفقد!

جلس أحمد في الجدار المقابل له على كرسي هزاز قد اشتراه مؤخرا أيضا وهو يرتدي ملابس فضفاضة أشبه بملابس النوم.. بدا منظره وهو يتأرجح عليه طفوليا جدا. -لم يكن هناك داعي لأن تتعب نفسك وتشتري هدية. أنت هنا في بيت أخيك لا داعي لهذه الرسمية.

رد علي مازحا: عندما أذهب إلي مشيرة أحمل لهم معي هدية أيضا. ثم تابع في جدية: لا أريد أن أطيل عليك فأنا أعلم أنك تنام مبكرا.

زفر أحمد وهو يحرك يديه للأمام والخلف: لا تقل هذا. لقد وجد الأصدقاء ليحلوا مشاكل بعضهم، وأيضا لقد جلست مع حماقي ثلاث ساعات قضت معظمها في الحديث عن

طعامها وأنها أفضل طباخه و..... إلخ.. على الرغم من أن طعامها أسوء طعام قد تذوقته في حياتي، لذلك قل ماتريد شريطة أنه بعيد عن الطبخ والطعام.

ابتسم علي رغما عن عقله القلق الذي لا يتوقف عن التفكير: لا، لا تقلق الموضوع بعيد تمام عن هذا.

وثب من على كرسیه الهزاز وأمسك ثمرة فاكهة من الموجودة على طبق الفاكهة الموضوع على الطاولة أمام علي وقربها منها بلطف وطلب منه أن يتناولها ولا يرده خائبا.

لم يكن عقله متفرغا لتلك الرسميات، يجب أن ينهي هذا الحوار بسرعة كي يزيح هذا الحمل من على كاهله: شكرا.

بينما يعود أحمد إلى كرسیه الهزاز تابع علي بصوت متردد خافت:

- ذهبت باكرا إلى المستشفى اليوم، لا فائدة من ذكر الأسباب لذا سأدخل في الموضوع سريعا. قابلت المبشمهندس محسن الصباغ. تعرفه؟ رجل الحسابات.. طلب مني مساعدة في أداء بعض الحسابات الورقية كان قد طلبها منه الدكتور حاتم بالأمس. في النهاية وافقت أن أقوم بمساعدته. وبينما أقوم بالحسابات وجدت خطأ كبيرا في الأرقام.

اعتدل أحمد في جلسته واتكأ إلى الأمام وتوقف عن التحرك بالكرسي الهزاز واختفت الملامح الطفولية من وجهه ثم سأل: كم يبلغ هذا الخطأ بالتحديد؟

راح يهز ساقه اليسرى بسرعة شديدة وهو يقول: يربو على الخمس مئة ألف. كذلك قال علي وهو يضع ثمرة الفاكهة على الطاولة مجددا دون أن يتناولها أو ينظر إليها حتى.

- في البداية هل أنت متأكد أنه خطأ حقاً؟ ربما تكون بدلت مكان بعض الأرقام أو شيء من هذا القبيل.. اتهام الناس بهذه السرعة ليس بالأمر السهل.

لم لا يصدق أحد من أول مرة؟ لم يشكك الجميع في قدرته؟! يعلم أنه محق.

- لا، لقد أعدت حساباتي أكثر من مرة، كنت سأبلغ الشرطة أو أيا تكن الجهة المسؤولة عن التحقيق في قضايا السرقة هذه.. ثم أدركت أن هذا سيقودني إلى عدد من الأسئلة لا حصر لها.. كما أنني لا أملك دليل على صحة كلامي التي لا أملك لها دليل.

قال أحمد وهو يتفكر وجهه بدقة: حسنا فعلت. هل أخبرتك الدكتور حاتم بهذا الموضوع؟

كانت نظرات أحمد له تخيفه.. لا يشعر بالارتياح أبدا عندما يحدق فيه أحد هكذا.. يشعر أنه تحت الاستجواب!.. على الرغم من أنه حديث ودي ولا داعي لذلك، إلا أنها ترسخت في عقله منذ الصغر عندما كانت تطلب منه والدته أن ينظر إليها عندما تسأله عن شيء خاطئ فعله.. يتلوها توييخ..

بعينين حائرتين قال: لا، فكرت في التحدث إليك قبل اتخاذ أي فعل، كما أنه لا يمكنني مقابله بهذه السرعة فجدوله دائما مشغول..

سأل بصوت جاد فيه نبرة من الحدة: هل يعلم أي شخص آخر بهذا الأمر؟
- لا، إنه أنا وأنت فحسب.

استلقى للخلف مجددا ثم نظر إلى السقف وقال بهدوء: هذا جيد جدا. اسمعني الآن.. أنت لست خبيراً في الحسابات فأخبر عهد لك بالرياضيات كان منذ الصف الثاني الثانوي،

ومهما أعدت حساباتك فلن تكون متأكد تماما أنك لم ترتكب أي خطأ. وأنت بالطبع لا تريد أن تظلم رجل برئ دون أن تتأكد.

هذا صحيح. أكثر ما يخشاه أن يظلم رجلا بريئا.. كيف سينام لو حدث وعلم أنه لطنخ سمعة رجل شريف؟! أيقدر على تحمل النظر لأولاده؟! لو كان يقدر إذا فليتخذ ضده إجراءات حاسمة دون أن يتأكد من صحة اتهاماته تلك.

-لست أجزم أنه لص.. جل ما في الأمر أن ردة فعله العنيفة جعلتني أشك في أمره.

عاد أحمد يقول بصبر نافذ: هو دائما عصبي هكذا، ليس من المستبعد أنه كان نائما بينما تركك تقوم بالعمل كله وحدك معتقدا أنه يقوم بعمله هو الآخر، ربما كان غاضبا لأنك أيقظته.

حك علي ذقنه بلطف. أحمد محق فعلا.. يمتلك عقلا محكما فعلا.

هدأ توتر علي قليلا بعدما توقف أحمد عن التحديق به فتوقف هو الآخر عن هز قدمه بسرعة: هذا صحيح تماما. لكن كنت أفكر واستنتجت أن أحدا ما ربما يساعده في هذا الأمر.. هو ليس بتلك القدرة كي يسرق كل هذا المبلغ دون أن يعرف احد، أليس كذلك؟

ابتسم أحمد ابتسامة ساخرة خفيفة ثم قال: أحد مثل من ياجهبذ زمان؟

قطب بين حاجبيه وبدا عليه الاستغراب من الطريقة التي قالها بها أحمد ثم قال بحيرة واستنكار: جهبذ زمان! يبدو أنني كنت ثقيلا عليك.. سأخرج الآن ولن نتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى. أعدك.

سريع الغضب ولا يتحمل النقد أبدا.. يعرف ذلك، لكن هل يحاول تغييره؟ كلا، يخاف دائما أن تكون تلك الكلمات العابرة وسط الكلام حقيقية لكن قائلها يخشى من مواجهته بالحقيقة.. يخشى أكثر ما يخشاه أن يكون عبثا على أحد.

انتفض أحمد من مكانه ومشى مسرعا حتى جلس مجاورا لعللي تماما: لا تكن سخياف، كيف تكون ثقيلا علي وأنت أعز أصدقائي! أنا فقط لا أريدك أن تقع في مشاكل.. وتلقي باللوم علي شخص برئ أو تخترع شخصا وهما لكي تحقق في عقلك الجريمة الكاملة.. وتعتقد أنك "شيرلوك هولمز" وحصلت علي قضية وتقوم بحلها.. فقضية مثل هذه هي بمثابة الحجر الذي حرك بركة حياتك الساكنة.. ولكن ليس بالضرورة أن توجد قضية من الأساس.

يأخذ الموضوع بسخرية واستهتار شديد.. أو ربما هو الذي يُجمل الموضوع أكثر مما فيه.. ليت يستطيع أن يطفأ عقله قليلا ويرتاح.. ليت حقا لا يظل يفكر دائما كأنه من يقع عليه مسئولية فعل كل شيء.

لكن هذه المرة بالتحديد فكر في الأمر أكثر من مرة.. يصعب ان يكون مخطئا.

-لست اخترع أشخاصا وهمية.. كنت أفكر في نادر الدرندي. هو أيضا يعمل في قسم الحسابات وهو قريب جدا من محسن ولا بد أنه متواطئ معه.

ضحك أحمد ضحكة قوية فاهتز جسده البدين كله واستلقى على الأريكة من كثرة الضحك. أحس علي أنه ضحك استهزاء متعمد وليس ضحكا حقيقيا لكنه مسح دموع الضحك سريعا وقال:

- ألم أقل لك أنك جهيد! مازلت مقتنعا برأي بنيتة على عدة حسابات صغيرة قمت بها.. حتى لو كانت حساباتك صحيحة هذا لا يعني أن هذه سرقة.. أنت لست محاسبا لا تعرف كيف تجري هذه الأمور. كل ما أقوله هنا هو أنه عليك أن تتروى ولا تطلق الأحكام بهذه السرعة.. قد تخطئ وتصيب شخصا بريئا وربما يعرف الدكتور حاتم ما فعلت فلا تضمن حينها ردة فعله.. أتود أن تخسر وظيفتك لأجل سبب تافه كهذا؟!

صمت برهة يتدبر ما قاله أحمد ولم يعقب على الموضوع، كان شاردا يفكر.

لا يريد أن يخسر وظيفة أحلامه.. خصوصا بعدما قدم أستقالته من العمل الحكومي بعد تعرضه للاعتداء في المستشفى حيث ألقى به تكليفه.

قاطع أحمد تفكيره سائلا إياه ببهجة: لماذا لم تتزوج حتى الآن؟!

انطفأ الحماس الذي لديه، يبدو أن أحمد قال ما عنده وانتهى.

- لم أجد الشخص المناسب حتى الآن.. لم أجد فتاة احلامي، ولم تكن الظروف سانحة.

- آه... هذه "الأكلشييات" مجددا! كلما سألت أحدا أعزبا عن سبب عدم زواجه يروح يخبرني هذه الأكلشييات "لم أجد الشخص المناسب، لم تكن الظروف جيدة، مازال العمر طويلا أمامي.... إلخ"

هل تعرف هذا الشعور؟ عندما تحب أحدا ولا تظهر له أية مشاعر أو حتى تلميحات وبالتالي لا يظهر هو أية مشاعر قبول تجاهك ولا حتى رفض.. لذا تعتقد أنه غير مهتم بك.. فتكرهه وتكره كل شيء فيه.. تترقب له غلطة.. تنتظر أن يخطئ حتى تعود إلي سريرك

ليلا وتقول: أنظر. هذا الأحق يخطئ كثيرا، أنا لست بحاجة إليه.. لكنك هذا لا يزيدك سوى حبا فيه أكثر.

هذا تماما ما يحدث مع علي إذا ما أحس أنه يميل إلى فتاة ما.. يظل واقفا على البر يمني نفسه أن تأتي اللحظة التي يعترف فيها بكل شيء.. لكنه يدرك أنها لن تأتي.. لم تأت اللحظة المناسبة في أي من المرات السابقة فلماذا تكون هذه المرة مختلفة؟!

يدرك أيضا أنه لا فائدة من انتظار ظهور فتاة الأحلام من العدم خصوصا وأنه لا يكلف نفسه عناء البحث عن واحدة حتى. يعلم أين الخطأ.. لكنه لا يقوى على تصحيحه.. سيموت كالنساك.

هو جبان...

قبل أن ينهي آخر جملة في عقله قال أحمد بسرعة وإحباط: أنت جبان. داخل كل منا كلمة لو قيلت له لشطرته نصفين.. ولحمل صدى أحرفها معه إلى القبر.. تحمل في ثنائتها عيب ذاته الأكبر. كانت تلك هي.

لو كان هناك شخص واحد يعرف نقطة ضعفه فهو بالتأكيد صديق طفولته أحمد. يعلم تماما أن أحمد لا يمكن أن يستخدم هذه الصفة ضده وأنه يقول هذا من أجل النصيحة.. لكنه مازال لا يتقبلها.. يريد أن يسمعها من نفسه فقط.

-ألا تعتقد أن العثور علي الشخص المناسب وانتظار الفرصة المناسبة كي تحين أمر جيد! ربما يكون هذا هو سبب المشاكل بينك وبين منار.. عدم اختيار أوقات مناسبة.

- لم أطلب منك أن تكون مثلي في هذه الأمور، المشاكل تحدث دائما وسر نجاح العلاقة هو في كيفية التفاهم واحتواء هذه المشاكل. أنتم لا تدركون أن الفرصة لن تكون سانحة أبدا. عليك أنت أن تتحكم في الحياة ولا تجعلها من تتحكم فيك، الفرص دائما موجودة، ربما هي أقرب إليك مما تتخيل.

نسي علي للحظة الموضوع الأساسي الذي جاء لأجله وقال مستمتعا: ذكرتني بما كان يقوله لي والدي "إن الفرص دائما حولنا في كل مكان.. نراها كل وقت ولكن لا ندركها.. الإدراك هو قلب المشكلة. الفرصة لا تحتاج عينا تراها ولكن إلى بصيرة تدرك أهميتها وإلى ما ستؤول إليه وإلى عقل يتحكم في الفرص المتاحة - وإن كانت أقل مما يريد - لكي يصل إلى مبتغاه"

غمز أحمد بعينه وهو يقول: رأيت أنت تتهرب الآن من الإجابة عن سؤال.

أشار بيده إلى صدره وقال وقد بدأت العصبية تتخلل نبرة صوته: أنا! أنا الذي أتهرب؟! أم أنك الذي لم ترد أن تكمل الحوار عن حسابات المستشفى فاتجهت للحديث عن الزواج.

زفر أحمد بغضب ثم قال: لم أترب أبدا. لقد أخبرتك ما أرى أنه صواب. لا فائدة من الحديث في موضوع لا تملك فيه دليلا ويحتمل الصواب والخطأ وأنت لم تبد اعتراضا علي هذا. ما أخبرك به هنا هو صوت العقل وليس الأوهام.

أومأ علي بالإيجاب وقال محاولا إنهاء الحديث: معك حق. أنا أسف إذا كنت قد أزعجتك بالحديث في هذا الموضوع في هذا الوقت المتأخر. أراك غدا.

نهض يلحق به وهو يقول: اجلس نحتمي الشاي معا على الأقل. لا تغادر بهذه السرعة.

شكره على حسن ضيافته وتعلل بأن لديها عملا يؤديانه في الصباح، وقطع وعدا يعلم أن لن يفني به على أن يلتقيا قريبا في جلسة تشبه أيام الجامعة.

اتجه إلى الباب مسرعا وبصوت خافت قال: لقد كنت عوننا كبيرا اليوم. إلى اللقاء.

أغلق الباب وتمشّى نحو منزله. يريد أن يستجمع ما حدث من أول اليوم إلى آخره، فمن غير المحتمل أن يكون محسن وأحمد علي خطأ وهو وحده علي صواب. ربما أحمد محق. هو لا يملك دليلا ماديا وحتى المعلومات التي لديه لا يمكن أن يكون متأكدا منها مئة بالمئة.

تذكر أن اليوم هو الخميس وأن الغد هو الجمعة وهو يوم إجازة على الرغم من أنه أخبر أحمد أن لديهم عملا في الصباح! يجب أن يحسن من قدرته على الكذب أكثر..

يجب عليه أن يرتاح..

طبعا لا فائدة من إخبار عطيات بالأمر، فهي لا تفقه شيئا في الحسابات أو إدارة المستشفيات.. ولكن علي الأرجح سيكون رأيها من رأي أحمد.



"إن السجين ليس فقط الجدران الأربعة وليس الجلد أو التعذيب..
إنه بالدرجة الأولى خوف الإنسان ورعبه.. حتى قبل أن يدخل
السجن.. وهذا بالضبط ما يريده الجلادون وما يجعل الإنسان
سجيناً دائماً"

-عبدالرحمن منيف

حاولت تصنع صوت الشرير لكن أحبالها الصوتية خانتها فخرج صوتها مخمليا ناعما حتى وهي تزفر قائلا: هيا. انزلنا من علي الأرجوحة يا أولاد.. رجاء. لقد تأخر الوقت. يتوجب علي مقابلة بعض الضيوف بعد قليل ومازالت الشقة غير مرتبة، أمامي الكثير لأفعله.

أجابت الصغيرة متمردة وهي تلوي شفتيها في غضب لم يرضاها إلا جمالا: لا، لا أريد أن أعود إلي المنزل الآن.

اكتفى أخوها بنظرة عابرة إلي والدته، ثم أشاح بنظره بعيدا وأكمل التآرجح غير عابئ بما تقول.

أدارت معصمها الأيسر لترى الساعة -التي ترتديها بالمقلوب-، نظرت إليها في دهشة ثم وضعت يدها على رأسها الصغير وقالت: حسنا، إن لم تنزلا الآن وتعودا معي سأخبر أباكما أنكما لم تسمعا الكلام. هذا آخر تحذير.

نزلت الفتاة من على الأرجوحة وهي تزفر زفيرا يدل علي شدة الغضب، بينما توقف أخوها عن التآرجح لكن لم ينزل من علي أرجوحته.. بل ظل يحدق إلي والدته كأنها يريد أن يقول: يال هذه القسوة، أي أم تلك التي تحرم أبنها الأكبر من متعة اللعب! بعدما كنت مطيعا طوال الأسبوع! الآن تريد أن تقطع تلك اللحظات من فرحتي لأعود إلي المنزل أقوم بعمل الواجب السخيف. بالطبع قد تظل أياما تمنعني من الخروج واللعب مع أصدقائي بحجة أنني قد تنزهت اليوم. وهل تعتبر هذه نزّهة؟!

والآن تهددني أنها ستخبر والدي إذا لم أسمع كلامها!.. لماذا جميع الأمهات واشيات هكذا!
إن كانت تريد أن تعاقبني فلتفعل ذلك بنفسها.

أي أم تلك التي تفضل حفنة من الضيوف على صغيرها؟!
عندما أكون أبا سأفعل العكس تماما مما تفعله هذه المرأة معي.

مع كل هذا.. يحبها بشدة.

عادت تدعوه بصوت واضح أن يكون مطيعا مثل أخته، ثم راحت تهدده أن تخبر والده
مرة أخرى.

نزل من على الأرجوحة وهو يزفر ويتأفف كأشد مما فعلت أخته كأنها مسابقة من يزفر
أكثر! قال بصوت غير مسموع: لست بحاجة لتكرار الكلام يا امرأة.

أومأت له برأسها بوعيد ولم تعقب علي قال.. كل ما كان يشغلها هو كيفية استقبال
ضيوفها بشكل جيد.

بدا عليه أنه يجد صعوبة في التنفس.. يبذل مجهودا في الشهيق.. ويصدر صوتا كالصفير!
لاحظت ذلك، فوضعت حقيبتها على الأرض ثم جثت على ركبتيها ووضعت يدها على
كتفه لتطمئن عليه وقالت: ماذا بك يا علي؟

كان يتنفس بصعوبة ولم يكن من العسير ملاحظة أنه جاهد نفسه ليقول: لا أشعر أنني
بخير. لا أستطيع التنفس بشكل جيد.

على الأرجح هذه هي إحدى خدعه المعتادة أملا في البقاء في الحديقة مدة أطول. يتظاهر بالتعب ويتصنع السعال ليتغيب عن المدرسة، يتصنع ألما عضليا زائفا لكي يظل جالسا طوال اليوم على السرير. ليس هذا بجديد عليه، لن ينفعه هذا هذه المرة.

وضعت كفها على رأسه لتحسس حرارته، لا يدري ما علاقة حرارته المرتفعة بصعوبة تنفسه.. ولا حتى هي تدري. هي تفعلها فقط من باب "هذا ما وجدنا عليه آبائنا" لا أكثر. كانت حرارته معتدلة (باعتبار أن يدها تصلح أن تكون مقياسا أصلا) ولم يكن هناك سبب واضح لضيق النفس المفاجئ هذا.. لا داعي للقلق.

التقطت حقيبتها ونهضت من مكانها وأمسكت بيد أخته وبدأت تمشي في طريقها دون أن تعقب.

جاء صوته ضعيفا مبحوحا: حقا أنا لا أمزح. أجد صعوبة في التنفس. أشعر بالاختناق!

يبدو أن لافائدة مع هذا الصبي. عادت إليه حيث كان ما يظل واقفا مكانه حيث تركته، أمسكت ذراعه بلطف وسحبته بشدة.. مشاعر متضاربة تحتاج رأسها.. تلك هي الأمومة.

- لا شك أن هذا بسبب كثرة التآرجح لابد أنه سبب لك هذه المشكلة. خذ نفسا عميقا وأخرجه عدة مرات وستتحسن حالتك.

لم تقنعه إجابتها تماما لكنه شعر بالرضا لأنها -ولأول مرة- لم تخبره أن هذه المشكلة بسبب "الأثاري" كما تفعل عندما يشكو من أي شيء!

وصلوا إلى المنزل بسرعة لم يدرك معها طول الطريق. فتح لهم والدهم الباب ماذا ذراعيه في الهواء لاستقبالهم، وبضحكة صفراء مصطنعة قال: أرجو أن يكون صغيراي قد استمتعا بالنزهة اليوم.

لم يعقب الفتى ولم يعط أية انطباعات، والذي هو بدوره يدل على عدم الرضا، فهذه بالطبع ليست ملامح طفل سعيد.

ردت الصغيرة ببراءة وهي تشني ذراعيها وتضمهما إلى بعضهما البعض: لا لم نستمتع. كانت أُمي تريد العودة إلى المنزل مبكراً؛ لتقابل صاحبتهما ولم تكن قد انتهينا من اللعب بعد.

قبض ذراعيه التي كانتا ما تزالان منبسّطتان في الهواء وبلطف شديد قال: اعذرا والدتكما فهي مشغولة اليوم. أعدكما الجمعة القادمة سنخرج جميعاً وسأدعكما تلعبا حتى تتعبا.

لا ينكر الفتى أنه شعر بشيء من الفرح والارتياح لأول مرة منذ مغادرتها ساحة اللعب.

لكنه فضل كتمان تلك المشاعر والاحتفاظ بها لنفسه. أما أخته فقد طارت من الفرح وقفزت في الهواء لتسقط في يد والدها الذي تلقاها برفق وطبع على خدها قبلة لطيفة تبعها بقبلة صغيرة على رقبتها.

لا يطيق رؤية هذا المشهد. لماذا هي ساذجة إلى هذا الحد؟! بعد كل ما فعله تأتي هي لتفسد الأمر بتلك السهولة!

مدللة والدها هي.. لا تخفي عنه شيئاً أبداً.

رفض الانقياد بسهولة من أول مرة مثله، تصنع الغضب، أظهر لهم ملامح جامدة وتعبيرات تدل على عدم الرضا.. وكانت النتيجة أن تكلل عمله بمكافأة ووعد بنزهة أخرى قريباً.

هي الآن هدمت كل ما فعل. ألقت على خطته قبلة نووية (تلك الكلمة التي سمعها مؤخراً وأعجبته كثيراً)، يشعر والديها الآن بالراحة تجاه ما فعلاه، هذا سبب كافٍ لجعلها يلغيان النزهة القادمة.

الشعور بالذنب هو ما يدفعها لفعل ما يفعلان.. أدرك ذلك في سن مبكرة.

كلما أظهر مزيداً من الحزن والغضب زادت فرصته في الحصول على ترصية أكبر.

-وأنت يا أبي ماذا ستفعل الآن؟ سألت الفتاة بصوت رقيق.

-أنا سأكون في الغرفة الخلفية أقوم ببعض الأعمال.

-أريد أن آتي معك أرجوك. أريد أن أرى ماذا في هذه الغرفة. قال الفتى بحماس لأول مرة منذ وصل إلى المنزل.

تغيرت نبرة صوته وأصبحت أكثر حدة وذهبت الابتسامة من على وجهه ثم قال: لقد تحدثنا في هذا الأمر مراراً وتكراراً. هذه الغرفة التي أحب أن أحصل فيها على بعض الراحة، وليس مسموح لأحد بدخولها. غير أن لديكما واجبات لم تنهياها بعد.

تمتم في سره -كعادته- يقول: لماذا يمتلك الكبار غرف راحة وأنا لا؟ أريد غرفة راحة أنا أيضاً. لقد سئمت من الجلوس مع "هذه" (يشير إلى أخته) في غرفة واحدة.

مشى وقد عادت علي وجهة تلك التعابير الحزينة التي كانت منذ غادروا ساحة اللعب، وأضيف إليها بعض من غضب وحنق. بعدما كان غاضبا من والدته فقط.. الآن يبغض الجميع. ما بيده شيء ليفعله. تمشي أخته بجواره في بلاهة كالحمل الودود لا تعترض علي شيء.

من صوت الأقدام استطاع أن يميز أن هناك على الأقل ثمانية أشخاص هناك. هذا عدد كبير. والدته لم تعتد مقابلة كل هذا العدد في المنزل، خاصة وأن مساحة المنزل صغيرة لا تتسع لهذا العدد، لكن ليس هذا هو الغريب، الغريب فعلا هو أنه يستطيع تمييز أصوات أطفال رجال!

لماذا تستضيف أمي هذا العدد من الرجال والنساء والأطفال معا؟! خصوصا أن اليوم ليس يوم جمعة أو أحد العطلات الرسمية، يستطيع معرفة هذا فهو يتذكر أنه ذهب إلي المدرسة اليوم قبل أن تصطحبه والدته للحديقة.

اقترب من باب الغرفة ووضع أذنه عليه وتنصت عسى أن يسمع شيئا مما يقولون فيفهم ماذا يحدث. لكن دون جدوى. كل ما يستطيع سماعه هي ضوضاء تشبه الطرق على شيء أو تحريك شيء، وأصوات أشخاص خافتة لا يمكن تمييز أي كلمة ذات معنى منها.

- برأيك ماذا يمكن أن يكون يحدث بالخارج؟ همس موجهها كلامه إلى أخته المستقلية على السرير.

لم تجب. ووجه نظره نحوها فوجدها تغط في سبات عميق. لا فائدة من إيقافها الآن فهي لا تستيقظ بسهولة. بالإضافة إلى أنها صغيرة وأفكارها ساذجة مثلها، حتى لو استيقظت لا فائدة من الحديث معها.

عاودته مشكلة التنفس مرة أخرى، ولكن بشكل أكبر هذه المرة. تذكر ما أخبرته به والدته أن يأخذ نفسا عميقا ثم يخرجها عدة مرات ففعل ذلك. تحسنت حالته قليلا.. ظلت المشكلة موجودة لكن بشكل أقل من الأول.

أسرع قبل أن تعود له هذه النوبة من ضيق التنفس مجددا وبحث عن أي كوب في الغرفة حتي يضعه علي الباب فيستطيع أن يستمع بوضوح (كما يري في الأفلام). لم يجد أي كوب في الغرفة، فأحضر كراسي وثناها لتشكيل اسطوانة ثم وضع طرفها علي أذنه والطرف الآخر علي الباب. أصبح الصوت أوضح قليلا، على الأرجح ليس بسبب الكراسي لكن لأن أحد الرجال الآن يتحدث بصوت واضح وقد اختفت الضوضاء حوله. بعد كل هذا التعب والمشقة حاول أن يميز أي كلمة مما يقال لكن دون جدوي.

لم يتبق أمامه إلا خيار واحد أن يخرج إلي هناك ويسمع ماذا يقولون لكن لا بد من الحذر، أن تراه والدته خارج غرفته بعد الكم الهائل من التحذيرات التي ألقتها عليه فلن يكون عقابه سهلا.

هناك خيار آخر بالطبع وهو أن يجلس في غرفته وينتهي واجبه ثم يلعب قليلا أو يتجلد إلى النوم مثلما فعلت أخته. هذا الخيار قد يأخذه معظم الأولاد ويؤثرون السلامة ولا يخاطرون بأن يُفصح أمرهم ويتم توبيخهم بشدة -بعد رحيل الضيوف بالطبع- أو أسوء

من ذلك.. قد يتم حرمانه من الرحلة التي وعده إياه والده. وتكون عندها والدته قد وجدت الحجة المثالية لعدم الذهاب.

هو مستعد للمخاطرة بكل هذا. قد يكون الفضول دافعا كبيرا.. لكن الدافع الأكبر في الأغلب هو المماثلة.. المماثلة لعدم كتابة الواجبات التي تراكت عليه فاصبحت بالأطنان -وبالأطنان هنا أعني ست صفحات، قد تبدو لك بسيطة لكن بالنسبة له يفضل أن يعمل بالسخرة في منجم من مناجم الفحم على كتابته - ويمني نفسه أن والدته قد تسمح له باللعب مع هؤلاء الأطفال بالخارج. أيا كان الدافع لا يهم. المهم هو ما سيقدم على فعله. فتح باب الغرفة ببطء فسمع صوت صرير الباب العالى، هيا إليه أنه لو سحب فتيل قنبلة يدوية كالتي يراها في الأفلام وألقاها في غرفته الآن لن تصدر صوتا عاليا كهذا، ظن أيضا أن جميع الحاضرين قد سمعوا الصوت وأن والدته في الطريق لتعاقبه. علي الأرجح حدث هذا كله في مخيلته فحسب فبسبب الضوضاء التي بالخارج لا يستطيع أحد أن يسمع صوت صرير هذا الباب.. وربما حتى ولا صوت القنبلة التي كان يفكر فيها.

انتظر قليلا كي يتأكد أن لا أحد سواه سمع صوت فتح الباب ثم تحرك نحو الصالة يجتلس النظر...

وجد حوالي عشرين شخصا - منهم أطفال ورجال ونساء- يجلسون على الأرض وقد أراحوا الأثاث بعيدا -علي الأرجح هذا هو سبب الضوضاء التي سمعها في البداية- وجدهم وقد التفتوا في دائرة حول رجل منهم بدأ يردد بعض الكلمات التي لا معني لها وهم يرددون خلفه عبارة واحدة، هذا أشبه بنوع من الدعاء، ولكن أي نوع هذا؟!

هذه بالطبع ليست لغة عربية. إنها قريبة منها ولكن الكلمات ليست ذات معنى. ومع ذلك استطاع تمييز بعض الكلمات مثل: دنيا.. الجنة.. دار.. صبر. كلمات غير متناسقة تترك للعقل تفسير ما بينها...

ما معنى هذا؟! ولماذا يبدو صوت هذا الرجل مألوفاً؟ لكن وجهه ووجه الآخرين أيضاً تبدو غريبة بعض الشيء. وجوههم تمتلك ملامح لا تنطبع في الذاكرة ومع ذلك هي مختلفة، فهي تميل للحُمْرة ويبدو أن بعضهم يدمعون، وبين الحين والآخر بعض النسوة يصرخن صرخات تبث الرعب في قلبه الصغير.

تراجع إلى الخلف عدة خطوات. لربما كان من الأفضل له أن يبقى في الداخل كما طلبت منه أمه فصوت الصراخ هذا قد أزعجه.. كما لم يفعل أي شيئاً قبلاً، بالإضافة إلى أنه بدأ يشعر بضيق في التنفس مجدداً، لكنه لا يدري هل هذا هو ضيق التنفس الذي يصاحبه منذ الصباح قد عاد؟ أم أنه بسبب تلك الصرخات التي كادت أن توقف قلبه خوفاً وفزعاً! يرغب الآن في العودة إلى غرفته ليتلفع ببطانيته من منبت شعره حتي أخمص قدميه. ولو استطاع أن يوصد علي نفسه ألف ألف باب كيلا يسمع تلك الصرخات مجدداً لفعل.

ما من شيء يدفعه إلى معرفة حقيقة ما يحدث فهو لن يتوقف عن تذكر هذا الموقف مهما حدث.. سيلازم تخیلاته فترة طويلة.. طويلة جداً.

لقد طبعت الصور في ذاكرته.. ونقشت الصرخات في أذنه.

وقف هنيهة لا يدري ماذا يفعل ثم تذكر كلام والده عندما أخبره أن أكثر الأشياء التي نخشاها.. هي التي لا نعرفها. الشجاعة تأتي من الخوف الذي نخافه، لولا الخوف ما كان معنى للشجاعة.

الخوف من المجهول أكبر من أي خوف آخر...

لذلك أراد أن يعرف سر هذه الجلسة والصراخ وهذه الطقوس التي تشبه الدعاء، فلربما كانت لعبة أو أي شيء تافه وبذلك قد لا يظل مرعوبا منها لفترة طويلة.. مع أنه يشك في هذا.. لكن لا ضير من المحاولة.

اقترب مرة أخرى من هذه الجلسة لكن هذه المرة بحرص أكبر. ليس خوفا من أن تراه والدته كما المرة الأولى فخوفه من هذه الطقوس الآن أكبر بكثير من توبيخ أو عقاب والدته له. لو رآوه ربما يغيروا طقوسهم وإذا سألهم عما كانوا يفعلونه بالطبع سيخبرونه أنه أمور الكبار و بلا بلا بلا... إلى آخر هذا الكلام المكرر التافه الذي لا ينفك يردده الكبار، ولن يستطيع حينها معرفة السر.

اقترب أكثر بخطوات مهتزة وشفاه مرتعشة، فرأى الرجل في المنتصف مازال واقفا يردد هذه الكلمات.

حاول أن يميز أي من هذه الكلمات لكن للمرة الثالثة بلا جدوي.

أصبح الوضع خيفا أكثر وأكثر وتساعد صوت الرجل في المنتصف أكثر وهم يرددون هذه الكلمة الغريبة وراءه.

نظر إلى والدته أملا منه في أن تراه وترأف بحاله وتشرح له ما يجري بالظبط. بدلا من ذلك كل ما فعلته والدته حول الأمور إلي الأسوء.. كما لم يتخيله قط.

فقد قامت من مكانها وقد بدأ وجهها يشيخ بسرعة وأصبحت التجاعيد تغطي كل جزء في جسدها واشتعل رأسها شيئا - كانت محجة لكن بعض الخصلات التي ظهرت من الطرحة قد تلونت بالأبيض - انحنى ظهرها كزهرة ذابلة.. ثم بدأت في الصراخ هي الأخرى.

صرخات يذيب الحجر لحيبها.. تصم الأذان.. تطير الأبواب. هذه بالتأكيد صرخات لن تمحى من عقله.. لن تزور الراحة قلبه مرة أخرى بعد الذي رآه وسمعه.

لقد شبيه ما رأى.. الفرق بينهما أنه قد شاخ من الداخل أما والدته فقد شاخ جسدها كلها! أدرك أنه لا فائدة من الاختباء. هرول حتى وقف في منتصف الصالة وبدأ يصرخ هو الآخر ومن خلف الدمعات التي غسلت وجهه شديد الاحمرار وهو يشد شعره صاح: ماذا يحدث؟ هل فقدتم صوابكم؟! أنا أسف يا أمي كان يجب أن أبقى في غرفتي كما طلبت مني ولكن الآن أرجوكم أخبروني ماذا يجري؟

لم يجب أحد.. لم يلتفت أحد.. لم تتحرك فيهم خصلة واحدة حتى!

بدأ يحس أنهم سراب.. أو على الأقل هو كذلك.

كان ما حدث هو آخر ما توقعه. فقد توقع أن توبخه والدته - التي كبرت ف السن - وربما ينهال الجميع عليه ضربا، وفي أسوء السيناريوهات سيقتلوه ثم سيأكلوا لحمه كما يحدث في أفلام الرعب.

لم يكن يمانع إذا ما حدث أي من هذا.. يريد فقط أن يتخلص من هذا الجنون.

أما رد فعلهم هذا لم يكن في حسبانهم.. ولسوء حظه.. فقد أربعه تجاهلهم له أكثر من أي احتمال آخر كان قد توقع حدوثه.

أصبح يرثى لحاله. صاح مرة أخرى وهو يلطم على خديه قائلاً: أرجوكم يا جماعة أخبروني ماذا حدث؟ هل هذا حلم؟
للمرة الثانية لم يجبه أحد...

هل من الممكن أن يكون هذا حلماً؟! هذا مستبعد بشكل كبير فالأحلام لا تكون حقيقية هكذا فهو يشعر أنه صاحٍ وواعٍ ومتيقظ تماماً، وضيق التنفس هذا لا يبدو أنه حلم أبداً، بالإضافة إلى أنه لو كان حلماً لكان قد استيقظ بعد أن سمع الصرخة الأولى ولكان قد وجد نفسه بلل الفراش أيضاً من الرعب! استبعد تماماً فكرة أن هذا حلم. من المستبعد أيضاً أن يكون هذا الهراء حقيقي.. لكن لا خيار آخر أمامه.

ربما يكون الأسوأ قد حصل.. لقد فسد عقله.. أجل فسد.

لطالما أخبرته والدته أنه كثرة تناوله للمثلجات سيفسد عقله. هذا هو الحل الأقرب للصواب الذي اهتدى له.

لا يمكنه أن يتأكد من صحة هذا التوقع أيضاً، ولكن المهم الآن هو أن يجد حلاً لهذه المشكلة.

هؤلاء القوم في الصالة لا فائدة من الحديث معهم. كلما جلس معهم أكثر أو حتى نظر إلى وجوههم.. شعر بالخوف يسري في عروقه.. أحس به يخترق جوف قلبه ويفترش فيزيح باقي المشاعر.. يشعر أنه لم يُخلق شعور آخر سواه.

لا فائدة من إيقاظ مشيرة فهي لن تفيد في مثل هذا الموقف - فقد تناولت الكثير من المثلجات أيضا واستنادا إلى نظريته الأخيرة فإنه من المرجح أن عقلها قد فسد هي الأخرى - لكن حتي لو كانت سليمة فلن تفيد في حل هذا الموقف. الأفضل أن أذهب إلي أبي. هو يعرف كيف يتصرف دائما.

انتابه هلع غريزي جعله فانطلق كالسهم إلي الغرفة الخلفية.. كمن يفر من قضاة، غير مكترث بالوعيد الذي قاله والده لمن يقطع عنه خلوته.

أراحه أن الباب لم يكون موصدا كالعادة. ركل الباب بكل قوة.

سطع نور قوي جدا في عينيه أجبره على أن يغمض عينيه كليهما كيلا يحرقهما هذا النور الشديد. ثم، بعد فترة وجيزة كانت عينه قد تأقلمت على هذا النور فتحتها لكنه لم ير شيئا سوى بياض النور الشديد. صرخ بكل

قوته: أبي أين أنت؟ أحتاجك بسرعة. أرجوك تعال. لا تتركني وحيدا.

جثا بركبتيه على الأرض وأجهش باكيا منتحبا، لم يقاوم البكاء.. لم يقدر.

تساقطت دموعه كالأمطار.. أمطار لم يوقفها سوى سماعه صوت والده قادما من بعيد: ماذا تفعل هنا يا "علي"! كم مرة علي إخبارك ألا تدخل هذه الغرفة؟ ليس مسموحا لك بدخولها بعد. أخرج من هنا الآن.

مسح دموعه بيديه بعدما اطمئن أن والده مازال بخير ثم قال في عند بصوت مبحوح
خافت: لا. لن أخرج. أنا أحتاجك بالخارج ويجب عليك مساعدتي. قالها ثم تقدم داخل
الغرفة وهو يستأنف: لقد جن جنون الناس بالخارج. فهناك نساء تصيح وأمي أصابها
الشي.....

ذهول عارم اجتاح وجهه وشل لسانه فلم يقدر على إكمال جملته. شحب لونه.. تقلصت
أمعاؤه.. اصطكت أسنانه.. لم تقو قدماه على حمله فسقط على الأرض.. لكن لم يغشى
عليه.. كان مستيقظا واعيا.. يتألم.

فكر في الهرب ثم تذكر أنه لا مفر له فبالخارج هناك حفنة من المجانين ربما لو رأوه مرة
أخرى لقتلوه. بالإضافة إلى أن جسده انهار، لن يتبع جسده عقله لو أراد الهرب.
استجمع ما تبقى من قوة في جسده الواهن وبتردد وخوف شديدان قال: أ.....أبي! أنت
تطفو!!

"عندما يعود المطر إلى الأرض يبدو نثيئًا جديدًا لكنه في الواقع خارج من هذه الأرض مأوها"

أنهى كتابة مقالته الثالثة هذا الأسبوع.. وباله من إنجاز!

"ليس أرقا ما يوقظك إلى هذا الوقت المتأخر.. هي تلك الأفكار التي تجوب عقلك تنتظرك على السرير" هكذا استهلها..

لا يعلم من أين وافته تلك الحماسة ولا من أين نزل عليه الإلهام!

تعجب أيضا من نوعية المقالات التي صار يكتبها مؤخرا، إنها مختلفة عما كان معتادا عليه. في السابق كان يحدث نفسه بتخيلات وأشياء من هذا القبيل.. أما الآن أصبح يلعب دور الفيلسوف ويكتب نصائح!

لم يختبر الكثير في حياته كي يكتسب خبرة النصح.. لكن مؤخرا بدأت الأمور تسير بسرعة.. بدأ يشعر بالمسؤولية تجاه أشياء كثيرة، ربما هذا هو سبب كتابته لتلك المقالة بالتحديد. لا يهم هذا الكلام، في النهاية ستطوى داخل مذكرته والتي بدورها ستقع داخل درج مكتبه الموجود في غرفته الموجودة في منزله الموجود في العالم! سجون متتالية وأسوار لا سبيل للخلاص منها.

لكنه يؤمن بما كتب منذ قليل "تمتع بالطريق كما الوصول".

استقل سيارة أجرة يذهب بها إلى المستشفى؛ لأن أحمد -على غير عادته- لم يمر اليوم على بيته ليصطحبه للعمل.

اتصل به أكثر من مرة ولكن هاتفه كان مغلقا. همّ بالذهاب لزيارته للإطمئنان علي حالته لكنه يعلم أن صديقه يحب النوم.. وربما يكون قد نفذ شحن بطارية هاتفه ولم يوقظه المنبه. كان من الواجب عليه أن يذهب ويوقظ صديقه كي ينقذه من غرامة علي التأخير.. إلا أنه يعلم أنه لو ظل يدق جرس بابه طوال اليوم فلن يستيقظ.. ولن يستفيد من ذلك إلا أن يتأخر هو الآخر عن عمله.

في ظروف أخرى كان ليشغل هذا الموضوع باله أكثر من ذلك، لكن اليوم هو أول يوم يذهب فيه للمستشفى بعد الذي حدث مع البشمةهندس "محسن". خصوصا أن إجابات أحمد لم تكن كافية.. أو ربما كانت كافية لكن لم يتوقف عقله عن التفكير في ذاك الموضوع طوال اليومين الماضيين.

لو كان المبلغ المفقود صغيرا لربما أقنع نفسه أن خطأ ما قد حدث.

لكن مبلغ هذا القدر لابد أن يكون ورائه سبب ما!

استقر على أن يذهب إلى الحسابات أولاً قبل أن يبدأ عمله؛ كي يضع حدا لهذا الأمر ويستطيع أن يوقف عقله عن التفكير قليلا.

كان قد وضع "سيناريو" لكل الاحتمالات وروود الأفعال المتوقعة من "محسن" لذلك استعد لهذه المقابلة بشكل جيد.

وفي الطريق إلى قسم الحاسبات -ولسوء الحظ- قابل الدكتور "محمود جمال" وهو أحد أصدقاء ويعمل معه في قسم الباطنة أيضا.

-هل نسيت أين يقع قسم الباطنة أم ماذا؟!

قال محمود بسذاجته وابتسامة سخيفة.

-لديك حس دعابة قوي. قال علي ساخرا مغتاظا. ثم أكمل: لا، أنا ذاهب إلى الحمام فقط.

عاد بيتسم مرة أخرى وقال: لا تحاول أن تخدعني. لا بد أنك هنا لمقابلة صديقك. نظر تلك النظرة البلهاء التي تصاحبه دائما ثم غادر دون أن يودعه.

إنه ليس معتادا علي الكذب، لكن هذا الموقف فاجئه ولم يستطع أن يأتي بحجة مقنعة عن تواجده في هذا المكان في أول اليوم هكذا.

لكن سرعان ما فكر وأدرك حماقة إجابته.. فقد كان من الممكن أن يقلب الطاولة علي محمود ويسأله ماذا يفعل هو هنا؟ مثل هذه الردود المضحكة لا يتذكرها الإنسان وقت الحاجة أبدا.. لا بد أن يمر الموقف ويصبح غير قابل للتعديل كي يبدأ العقل في التفكير في رد مناسب!

ولكن عن أي صديق يتحدث؟!

أيعقل أن يكون قد علم ما حدث يوم الخميس بيني وبين المهندس محسن وكان قوله هذا للسخرية مني؟ ألهذا كان بيتسم ببلاهة؟!

سيكون لي حساب عسير مع هذا الـ "محسن" إذا كان قد أذاع خبر مشادتنا معا. فبعدما ساعدته في عمله وصرخ في وجهي لم يكتفي بذلك بل صار يمشي يخبر الناس ما حدث كأنه حقق انتصارا في شيء ما!

وصل علي إلي مكتب الحسابات، حاول فتح الباب فوجده مغلقا.

ظن أنهم لم يأتوا للعمل إلي الآن فالوقت كان مايزال مبكرا و"محسن" يعشق الكسل والتأخير.

همّ أن يرحل بيد أنه سمع صوت محسن من الداخل يطلب من الطارق أن ينتظر.

وبعد بضع لحظات فتح محسن الباب.. وبدأ عليه الارتياح والقلق فور رؤيته علي.. لكن علي لم ينتظر منه طلبا للدخول فلم يكن وقته يسمح بذلك. دفع الباب للجانب أكثر وممر مسرعا لكنه تفاجئي بـ "أحمد منير" يجلس في وسط الغرفة تماما على الأريكة التي كان يجلس عليها محسن عندما حدث ما حدث.

بدت علي وجهيهما الدهشة واتسعت حدقتا عينيها.. وللحظة لم يستطع أي منهما أو محسن أن يتفوه بكلمة. تبيست قدما علي التي كانتا تمشيان بسرعة منذ قليل.

قام أحمد من مكانه وأخذ علي بالحضن -على غير عادته- وسلم عليه قائلا: أهلا يا صديقي العزيز. ماذا تفعل هنا؟

لم تنطلِ الخيلة علي "علي" هذه المرة فقال بثقة: وما الذي تفعله أنت هنا؟

ارتبك أحمد للحظة كأنه لم يكن يتوقع ردة الفعل هذه ثم قال بسرعة وحنكة: البشمهندس محسن صديق عزيز وأحب الحديث معه دائما، بالإضافة إلي أنني كنت أواجه بعض المشاكل

في صرف مرتبي فأردت أن آخذ مشورته في كيفية معالجة هذا الموضوع. ابتسم ابتسامة خبيثة وهو يكمل: الرجل خبرة في الحسابات كما تعلم.

لم تبد هذه الإجابة منطقية بالنسبة له فهو يعلم أن أحمد لا يكون صداقات كثيرة مع الناس خصوصا داخل المستشفى، ولوفعل بالتأكيد لن يكون محسن ضمن أحد هؤلاء الأصدقاء. كما أنه لو كانت لديه مشكلة في صرف المرتب فلماذا ينتظر إلي هذا الوقت حتي يبحث عن حل للمشكلة ولماذا كان الباب مغلقا؟.

لكنه يعلم أن هذا ليس وقت جدال، حتى وإن كان يريد أنا يتجادل فهو يعلم تماما أن أحمد سيغلبه؛ فهو دائما م يفوز في هذه المناقشات حتى لو كان على خطأ.. لديه هذه القدرة التي ربما تشبه السحر حيث يمكنه بها إقناعك بأي شيء يريده.. ذات مرة أقنع رجل أنه من المريح وصدق الرجل!.. لو لم يكن علي حاضرا تلك الواقعة لما صدق.

تأزم الموقف فأحمد لم يأخذ كل هذا الوقت في التفكير كأنها كان قد استعد مسبقا لهذا الحوار، كما أن هذا التأخير يجعله يبدو بموقف المذنب لذا ابتسم ابتسامة مصطنعة وقال: لقد جئت لأعتذر للمهندس محسن عما بدر مني يوم الخميس الماضي. ثم استدار بجسده حتى أصبح مقابلا لمحسن وقال: لقد كانت قلة ذوق مني أن أفتش في عملك وأن أفعل شيئا دون علمك.

تقدم محسن تجاهه في حبور مرتبًا على كتفه ثم قال: لقد تقبلت اعتذارك. وأنا أيضا أسف إن كنت قد صرخت في وجهك فأنت كنت تحاول المساعدة فحسب. أيضا شكر ال "أحمد" أنه ساعدك علي أن تشي عقلك عن التفكير الساذج الذي كنت تفكر فيه.

قبض جفنيه فضيقا عينيه وقطب حاجبيه ونظر إليه في تعجب وقال: كيف علمت أنني تحدثت مع أحمد في هذا الموضوع؟

رجع للخلف قليلا إذ يبدو أن السؤال فاجئه. بدأت عينه تدور في حيرة بيني وبين أحمد الذي كان يقف صامتا ولا تبدو على وجهه أية ملامح أو تعبيرات. تنحنح محسن وقال: آ...آ... لقد استنجت هذا من ردة فعلك.. فمثل هذا الفعل (الاعتذار) لا يأتي إلا بمشورة شخص حكيم مثل "أحمد".

خرج أحمد من صمته وقال بسرعة معقبا على محسن: آه يا محسن أنت كثير الكلام، وأنا والدكتور علي لدينا أعمال لنقوم بها فليس كل الناس تجلس على المكتب لاتفعل شيئا طوال النهار مثلك.

ثم أمسك بمرفق علي ويسحبه معه للخارج بلطف وهو يكمل كلامه بصوت خافت: هيا بنا ياعلي فلدينا عمل لا نريد أن نتأخر عليه.

الآن فهم "علي" ما الذي كان يعنيه "محمود" عندما قال ستقابل صديقك.. هذا يبعث على الراحة لأنه يدل علي أن أحدا لم يعلم بما حدث يوم الخميس، وفي نفس الوقت أيضا ما حدث اليوم في مكتب الحسابات لم يكن ليخطر له علي بال، وهو الذي ظن أنه توقع كل الاحتمالات وكان جاهزا للتعامل معها!

توقفا في الرواق خارج مكتب الحسابات ونزع علي يد أحمد من على معصمه وسأل: لماذا لم تمر على اليوم؟ لقد انتظرتك كثيرا.

قال بثقة: أنا آسف جدا يا "علي" لقد استيقظت متأخرا وظننت أنك قد سبقتني إلى المستشفى؛ فأنا أعلم أنك لا تحب التأخر عن العمل.

- لكنك كنت في المستشفى قبلي!

بدا عليه الارتباك لأول مرة وهو يقول: أ... ألم تقل أنك أنتظرتني كثيرا؟ لا بد أنني كنت قد وصلت هنا بينما أنت تنتظرنني. أجدد أسفي مرة أخرى.

- لا تتأسف. فهذا فضل منك أن توصلني المستشفى وليس واجبا عليك. هل سأراك بعد العمل؟

- لا، للأسف لا أستطيع، فأنا لدي موعد مع "منار" بعد العمل؛ سنختار بعض الأثاث من أجل منزلنا الجديد. العاقبة لك عندما تخطب أنت أيضا وتجهز شقتك. ضحك ضحكة صغيرة وهو يقول جملته الأخيرة.

تغير ملامحه العبوسة وبابتسامة قال: لاتنك تذكرو موضوع الزواج هذا.. هل لديك عروسة لي أم ماذا؟

ضحك أحمد ثم ربت على كتفه تماما كما فعل محسن وانصرف.

انصرف وتركه غارقا في تفكيره..



"أكثر القصص خطأ هي تلك التي نظن أننا نعرفها أفضل معرفة ولذلك لا
نفحصها ولا نتحدى صدقها".

أغمض عينيه بقوة...

زفير عميق يخرج ما علق بعقله من تفكير. بخطى بطيئة دخل منزله، حاول تصفية ذهنه أكثر من مرة وقاوم نفسه كثيرا كي لا يبدو عليه أثر للشroud أو الحزن فيلاحظه أحدهم.. يكفيه شعورهم بالغضب لأنه تأخر.

على الأريكة الجميلة الموضوعة وسط الصالة وجد مشيرة وزوجها مؤمن السبع يجلسان.. ألقى التحية من بعيد ثم اقترب من مؤمن وصافحه ثم قبله علي خده -كنوع من أنواع التحية- (هذه الحركة التي قد أوشك "علي" على بلوغ الثلاثين من عمره ومازال لم يتقنها.. فهو لا يدري هل هم ثلاث قبلت أم اثنتين فحسب، وهذا دائما ما يضعه في موقف محرج حيث إن هناك دائما قبله زائدة لا يتوقعها وفي الأغلب تأتي في المنتصف.. يجعل هذا الوضع محرجا بشدة وقد يعتقد الرائي من بعيد أن أمرا غير أخلاقيا يحدث). نهضت مشيرة مسرعة وحيث أخاها لكن بطريقتها.. ضربته على كتفه وقالت بتدلل: مرحبا بالطبيب. الطبيب الذي لا يهتم أن هناك أشخاصا ينتظرون حضوره حتى يأكلوا.

من كثرة حديثها عن الطعام يخيل إلى المرء أنها ستسلف الأكل نسفا ولن تبقي منه شيئا، لكنها -وفي كل مرة- تتناول ملعقتين فقط أو أكثر بقليل وتنهض.. هذا فقط!

بعد قليل دخلت عطيات ومشيرة وعطيات يحملون صينيات الطعام ووضعتاه على المائدة بشكل منمق وجميل.

بعد تناول الطعام والإنتهاء من عبارات المجاملة المبالغة فيها من مؤمن مثل: "هذه أجمل صينية مكرونة بالبشاميل أكلتها في حياتي" و"شغل فنادق"

"مخشي هذا أم ورق بفرة" وغيرها (والتي بالمناسبة لم تفهم زوجته وحامته قصده بتلك المجاملة الأخيرة، أما علي فقد فهمها لكنه لم يدرك هل هي ذم -لأن ورق البفرة يكون ملفوف بشكل رفيع جدا- أم مدح لأنه يكون ملفوف بشكل جيد! على الأرجح كان يقصد الأخيرة"

دعا مؤمن علي للجلوس في البلكونة في الهواء الطلق..

دخل علي محاولا تصنع التركيز والفرح لكن مؤمن فاجئه بسؤاله بلهجته الصارمة: ما الذي يشغل بالك يا دكتور؟ أنا متأكد من أنك لست بخير.. لو كان أمرا شخصيا لا تريد الحديث عنه فأنا أتفهم الأمر لكن أرجوك لا تكذب علي وتخبرني أنك بخير. سأحاول مساعدتك قدر ما أستطيع.

رغم كل محاولاته وكل المجهود الذي بذله.. عرف مؤمن!

مؤمن ظابط وهو بمثابة أخ أكبر لعللي. بالتأكيد سيكون رأيه مفيدا في هذا الموضوع.. لا بد أنه يعلم كيفية التصرف والإجراءات التي يجب اتخاذها.

فكر عدة ثواني قبل أن يفتح فمه ويحيب على السؤال الموجه إليه وكان قد أقسم على أن يستمع إلي كلام مؤمن ويأخذ بكلامه في هذا الموضوع.. حتى وإن أخبره أن يترك هذا الموضوع تماما فسيفعل.. فلقد أعيته كثرة التفكير ولم يهتد إلي حل، فقرر أن رأي مؤمن

سيكون هو الرأي الذي سيتبعه خصوصا بعدما سمع رأي أحمد ولم يستمع له ولم يجلب له هذا إلا المزيد من الحيرة وكثرة التفكير.

أراد أن يكتسب بعض الوقت حتى يرتب الأحداث في رأسه قبل أن يخبره بها حدث فقال: دائما ما تفهم الأمور بسرعة. لديك بصيرة جيدة.

-أحب أن أسميها خبرة.

عاد علي يقول بنبرة فيها شيء من الحيرة: لم أكن أنوي التحدث مع أحد بخصوص هذا الأمر لكن بسبب خبرتك تلك فضلت أن تكون الوحيد الذي أتحدث معه في هذا الموضوع.

تغيرت ملامح مؤمن الهادئة وأصبحت أكثر عصبية واحمر وجهه من وقع كلمات علي الذي أخذ رشفة من الشاي الموضوع أمامه ثم أكمل بصوت فيه من الشرود: لنفترض أن شخصا ما وجد خطأ في حسابات إحدى الشركات الكبرى. ماذا تكون أول فكرة تخطر ببالك تجاه هذا الموضوع؟

كان الكلام مُرسلا وغير محدد وهو شخص يجب أن يحصل على أقصى قدر من المعلومات قبل أن يحكم على أي شيء فراح يسأل مستفهما: هذا يعتمد علي نوع الخطأ، هل هو زيادة أم نقص؟ وعلي مقدار هذا الخطأ.. ومُرتكب الخطأ ومعطيات أخرى عديدة.

صمت "علي" وشرد وبدا أنه كان يفكر في إجابات لتلك الأسئلة دون أن يوضح له أن هذه المشكلة حدثت في المستشفى التي يعمل فيها، فبالرغم من أنه يثق فيه تماما إلا أنه يأبى أن يورطه في هذا الأمر.. فهو لديه ما يكفيه من العمل.

قاطع مؤمن لحظة الصمت هذه قائلاً: بدلاً من هذا المثال لماذا لا تشرح لي ما حدث بالضبط حتى أستطيع المساعد بشكل أفضل.

يصمت علي مرة أخرى ثم أدرك أنه لا مفر من قول الحقيقة فقال بتأن: حسناً سأخبرك الحقيقة كاملة لكن بشرط...

-وما هو؟

قال وهو يحرك يده يمينا ويسارا لأنه يريد أن يجعل هذا الأمر يبدو حاسماً: ألا تخبر مشيرة عن هذا الموضوع.. فلو أخبرتها فستخبر هي بدورها أمي وليس أمي فحسب بل جميع من أعرفهم ومن لا أعرفهم. ز أنا أعلم أختي جيداً.

وضع كفه على قلبه بشكل درامي ثم تنهد وقال: آه لقد أرحتني. أنا أصلاً لا أحب إخبارها بأي شيء.. فهي كثيرة الأسئلة وكثيرة القلق.

أخبره القصة كاملة بإسهاب من بداية مجيء مشيرة وياسين لبيتنا عندهم حتى خروجه هو وأحمد من غرفة الحسابات.. وأخبره أيضاً بالأفكار والنظريات التي وضعها.

كان قد وضع عدة نظريات لما حدث له واهتدى في الأخير إلى أن هناك ثلاث نظريات هن الأقرب للصواب.

النظرية الأولى: هي أن محسن هو من خطط لعملية السرقة هذه كلها بمفرده. لكنها لا تفسر سبب تصرف أحمد الغريب! ولا كم المبلغ المسروق!

النظرية الثانية: هي أحمد ومحسن مشتركان معا في تلك السرقة، ربما هناك أشخاص أكثر من ذلك مثل نادر أو غيره.

لكن تظل في نفسه غصة من تلك النظرية.. أحمد يسرق؟! كان والده مثالا للشرف والأخلاق ووالدته كذلك، حتى هو ليس من هذا النوع، لا، ليس ابدا كذلك.

هذا يتركنا للنظرية الثالثة وهي أقلهم إقناعا لكن كما قال شيرلوك هولمز: "إذا استبعدنا المستحيل فإن كل شيء ممكن".

تقول هذه النظرية أنه ربما أخطأ في الحسابات وأن ما حدث بعد ذلك هي مجرد مصادفات وأوهام من نسج خياله!

لم يُبد مؤمن ملامح تدل على أي شيء حتى انتهى علي من كلامه.. كان يبدو عليه أنه كان يحلل الموقف بدقة شديدة.

لم يكن علي يتوقع منه كل هذا الإنصات والاهتمام ولكن يبدو أنه بمجرد سماع مقدار الخطأ في الحسابات وهو أولى هذا الحوار كله اهتمامه.

أفرغ مؤمن كوب الشاي كله في فمه علي مرة واحدة ثم قال بجدية:

- إن هذا الموضوع لجِدُّ مهم، لا أستطيع الحكم عليه من بعيد هكذا.. لكن النظريات التي وضعتها كلها تبدو مثيرة وتدل على عقل مفكر كبير.. وحتى الآن أنا اميل للنظرية الثانية (أن هناك من يساعد محسن في هذا الأمر) وأميل أكثر لأن يكون هذا الشخص الذي يساعده على دراية كبيرة بكيفية إدارة الأمور في المستشفى.. فمبلغ ضخّم كهذا لا يُحتفَى من الحسابات دون أن يلاحظ أحد.

إذا لابد أن هناك شخص آخر أكثر قدرة مسئول عن المساعدة في هذه الجريمة.

قاطعته علي بحماس: جريمة! هل هذه الآن تسمى "جريمة"؟

هز كتفيه وقال بثقة مبالغ فيها: بالطبع. من المعلومات التي أخبرتني بها لا بد أن تكون هذه جريمة مكتملة الأركان.. أن تجد الخطأ في النسخة الورقية معناه أنه قد سُجل قبلا على الكمبيوتر وقد تمت مراجعته.. وهذا يعني أن أحدا لم يلاحظ اختفاء هذا الخطأ وربما لم يكن أحد ليلاحظه لولا أنك عثرت عليه. ما يقلقني أننا لا نملك أي دليل حقيقي ملموس فشهادتك هذه لا تكفي.. هز رأسه وأكمل بنبرة بوليسية: لا بد من بعض البحث والتحري.

مال عليه وقال: بما أنك تعتقد أنها جريمة فلماذا لا أذهب وأخبر الدكتور حاتم بما أعرفه؟! رجع للخلف بكرسيه قليلا ثم نفث وهو يقول: يبدو أنني سأسحب لقب "عقل مفكر" منك مرة أخرى. كما أخبرتك منذ قليل نحن لا نملك أي دليل، ستكون كلمتك مقابل كلمتهم، وسيستطيعون بكل بساطة تدارك خطأهم قبل حتى ان تدرك ذلك.. أما بالنسبة لأحمد فأمره غريب جدا! أنت دائما ما تتحدث عن أخلاقه وعن أنه أعز أصدقائك، فكيف يكون مشاركا في أمر كهذا؟! لكن اطمئن فليس هناك أي دليل ملموس يثبت تورطه.. قد تكون مجرد مصادفات.

تنهد علي بأريحية وقال: كنت متأكد من أن الكلام معك سيريجني.. فأنا أخيرا وجدت شخص يفكر مثلي.

عاد يقول بنبرة الثقة الغريبة: أي شخص عاقل لن يدع قضية كهذه تمر مرور الكرام. أما الآن فأنا أعلم بعض الأشخاص وسأجعلهم يتتبعون آثار عامل الحسابات هذا سأتحري أيضا ما استطعت عن المسؤولين في هذه المستشفى وعن أحمد.. علنا نجد ما يفيدنا. وعندما توافيني أخبار جديدة سأحدثك.

قال علي بحماس: أنا سعيد جدا بحماسك الشديد لهذه القضية.

-القضية مثيرة بلا شك ومن الجيد القبض علي أشخاص فاسدين.. لكن لا أخفيك سرا قضية كهذه ستقودني إلي ترقية لا محالة.

أرجوك لا تعتقد أنني أفعل هذا من أجل الترقية فحسب ولكنها إحدى الأسباب.

أوماً علي سعيداً بإيجاب. يعلم أن مؤمن رجل خيرٍ ودائماً ما يسعده القبض على الفاسدين حتى وإن كان خارج حدود عمله.

وبعد تبادل عبارات السلوك المذهب في مسألة أسبقية الخروج خرج أحمد من البلكونة أولاً ثم لحقه مؤمن وسلمها على بعضهما سلاماً رسمياً وقد اعتلت ضحكات مصطنعة وجهيهما حتي لا يلحظ أحد أنهما كانا يتحدثان في موضوع خطير كهذا.

غادر بعدها مؤمن وزجته وابنه، ولم يبق في المنزل إلا عطيات وعلي تاركين الأخير غارقاً في العديد والعديد من الأفكار...



نحن لا نرتب أماكن الأشخاص في قلوبنا أفعالهم تتولى ذلك.

- أندري تاركوفسكي

خرج علي من غرفته فوجد والدته تجلس علي الأريكة في وسط الصالة كما تحب دائما أن تفعل.. الغريب في الأمر أنها ظلت تتبعه بعينها أينما ذهب دون أن تنبس ببنت شفه.. كان هذا أمرا غير اعتياديا.

قال علي وفي صوته شيء من بحة خفيفة إثر استيقاظه من النوم منذ مدة ليست بالكبيرة: هل هناك خطب ما يا مصر؟!

أشاحت بوجهها تحديق في اللا شيء ثم عادت ترمقه بعطف مرة أخرى وقالت: أنا التي كنت علي وشك أن أسألك هذا السؤال. فمنذ جلستك مع مؤمن أول أمس وتحدثكما في الشرفة لا تبدو طبيعيا.. بل تبدو شارد الذهن وقليل التركيز. هل هناك شيء تريد إخباري به؟

قطب حاجبيه متعجبا ثم قال محاولا أن يبدو طبيعيا: لماذا تقولي هذا؟ لم يحدث أي شيء غير عادي بيننا... مجرد حوار بين شخصين أقرباء لا أكثر ولا أقل. صمت فترة فكر فيها ثم قال مكملا: هل تواصلتي مع مشيرة؟

لم تستطع أن تخفي عليه أكثر فقالت: لا، لكن للأمانة لقد سمعت جزء من الحوار الذي دار بينك وبين مؤمن بالأمس. بالطبع لم أكن أتعمد التجسس ولكني كنت مارة بالحوار فسمعت بعضا من الحوار دون قصد. ومنذ أن خرجت معه وأنت لا تبدو طبيعيا ويبدو عليك القلق.

قالت بصوت هادئ كي يضيفي بعض المصادقية إلى كلامه: لا يوجد خطب يا أمي. أنا كما المعتاد ولكن علي الأرجح قد خُيل إليك أنني حزين لأنك ظننت أن الموضوع مهم لكنه أمر بسيط لا داعي للقلق تجاهه.

قالت غير مصدقة حرفا مما قال: حقاً! وماذا عن اعتقاد مؤمن أن هناك أشخاص في المستشفى يشاركون في عملية سرقة؟ هل هذا أمر سهل؟ هل تعتقد أنك تستطيع أن تخفي عني أمرا كهذا؟

راح يقسم لها بكل غال ونفيس أنه ما كان يحاول إخفاء الأمر عنها لأنه خطير لكنه لم يرد أن يشغل بالها بموضوع صغير كهذا.

ضربت بكلامه عرض الحائط قائلة: لقد سمعت ذكر أحمد في هذا الموضوع.. وحقيقة أنا لا أرتاح لا أشعر بالارتياح تجاهه.. لقد كان والده مثال للأخلاق والتواضع أما هو فأحس منه رائحة الغدر.

قال بصوت عال متحمسا كأنه أمسك طرف الخيط الذي سيحل عقدة هذا الجدل وسينهيه: هذا فقط لأنك لم تسمعي باقي الحديث. فأحمد ليس مشتبهاً به أصلاً ومؤمن قال ذلك بنفسه.

أطبقت والدته شفيتها علي بعضهم البعض مطلقة صوت يدل علي عدم التصديق. نظر إليها بلطف وأخبرها أن الأمر أبسط مما تتخيل ثم انحنى علي رأسها وقبل جبهتها وغادر. شعر بحمل ثقيل انزاح من على قلبه بعد أن تقبلت والدته الأمر أخيراً.. كما أن القبلية التي طبعها على جبهتها أعادت إليه بعضاً من الثقة والطمئينة التي افتقدتها منذ مدة كبيرة.

يعتقد البعض أن عطف الأبناء على الآباء هو شفقة ورحمة هؤلاء الآباء كبار السن.. لكن في الواقع هي شفقة ورحمة هؤلاء الأبناء الذين لا يجدون ما يعينهم على بلاء الحياة سوى من كان سببا في وجودهم.

حضر بسيط لأحد الوالدين هو بمثابة سفينة كبيرة مثقلة بأطنان من الراحة والسكينة.. كان علي محظوظا بما فيه الكفاية ليدرك هذا.

غادر وهو لا يستطيع أن يعد كم كذبة قالها بالأعلي هناك...

هل فعلا الأمر يسير؟ هل فعلا أحمد ليس مشتببه به؟ هل ماحدث بينه وبين مؤمن هو حوار طبيعي يحدث عادة؟

كل هذا ليس مهما فالأمر الآن بيد شخص مختص (مؤمن السبع) وهو تولى التحقيق وقد وعده أن يطلع عليه النتائج التي يحصل عليها بالتفصيل.. عندها سيعرف ما إذا كان هذا أمرا جللا أمر ضربا من خيال.

خرج من البوابة مسرعا فوجد أحمد منتظرا بسيارته كالعادة. ركب وألقى التحية بتلقائية شديدة فردها مبتسما أحمد ثم انطلق إلى المستشفى دون أن ينطق كلاهما بأي شيء أو حتي أية تعابير وجه.

وفي المستشفى قضى علي يوما طبيعيا جدا من تشخيص مرضى جدد أو الاطمئنان علي حالة مرضى قدامى يشرف عليهم والتعامل مع أهالي المرضى كلها أشياء روتينية جدا.

حتى جاء وقت الاستراحة وجلس علي يتناول طعامه في "كافيتريا" المستشفى ووجد شخصا طويلا أقنى ذو شعر طويل ولحية كثيفة يستأذنه أن يجلس ويتناول طعامه بجواره إنه "محمود جمال" صديقه في قسم الباطنة فسمح له علي ورحب به وأشار إليه أن يتفضل بالجلوس.

- ألم تسمع بما حدث صباح اليوم؟ قال محمود بشغف.

رد علي بصوت خافت: هل يحدث في هذا المكان شئ غير الملل؟!

- أوافقك الرأي، لكن اليوم حدث، فالدكتور حاتم قام بطرد البشمةهندس محسن صباح اليوم.. لا أحد يعلم السبب.. لكن اثنين من رجال الأمن كان يسحبانه من ملابسه مثلما يفعلون مع المجرمين، وكان هو يصرخ ويقول: لن أترككم وشأنكم، لا يمكنك طردي.

احمرت وجنتي علي وأذنه اليمني -كما تفعل دائما عندما يكون متوترا-

فقال وقد بدأت العصبية تتخلل نبرة صوته : وما علاقة ذلك بي؟

تعجب محمود من ردة فعله وقال مستنكرا: لم أقل أن لك علاقة أصلا. لكنك كنت عنده بالأمس فهل تعرف سبب طرده بهذا الشكل المهيين؟

قال بعصبية زائدة وجفاء شديد: لا، لا أعرف، لقد كنت هناك فقط لأنني كنت أريد الحديث مع أحمد.

- رويدك رويدك. لماذا غضبت هكذا؟! لقد كنت أحاول أن أتبادل معك الحديث ونكسر حاجز الملل هنا. خاصة أن المهندس محسن كان متورط في قضية رشوة في مكان عمله القديم قبل أن يعمل هنا.

اعتدل علي في جلسته، وقد أدرك أنه أبدى ردة فعل خاطئة.. فقال بهدوء وروية: لست غضبا أبدا.. أنا فقط حزين علي ما حدث له. لكن هل موضوع الرشوة هذا مؤكد؟ لوح بيده والمعلقة فيها ثم قال بكثير من ثقة كمن يملك معرفة العالم أجمع: نعم بالطبع. وهذا هو الغريب في الموضوع.. فبعد أن استأنمه الدكتور حاتم على حسابات المستشفى وجعله رئيسا على جميع المحاسبين الآخرين فضل الفساد وفضل أن يطعم أولاده من الحرام!.. علي الرغم من أنه كان يحصل علي راتب جيد جدا ليتني أحصل على نصفه.. لكنه الطمع وحده الطمع يفعل هذا.

كانت هذه المعلومات مفاجئة لعللي لكنه قاوم رغبة ملامح وجهه الملحة في إظهار التعجب وارتدى قناع اللامبالاة. صمت قليلا وفكر فيما يجب أن يقول كي يبعد الشكوك حول أن له أية علاقة بهذا الأمر من قريب أو من بعيد.. لكن كل ما دار في عقله وأراد أن يقوله كان بلا شك سيزيد الشكوك من حوله؛ لذا فكر أن يمحو من عقله كل ما حدث خلال الثلاث أيام الأخيرة وتكون ردة فعله كأنه سمع الخبر قبل ان يحدث أي من هذا.. فوجد نفسه بتلقائية غريبة يقول: اطلعني على المستجدات، إنه لمن الجميل أن نشعر بأي شعور آخر غير الملل هنا.

شعر بالندم على ما قال وأحس أنه بالغ كثيرا في الاهتمام وشعر أن محمود سترأوده الشكوك حول علاقته بهذا الأمر خصوصا مع عصبيته المبالغ فيها قبل قليل. يبدو أن هذا كله كان مجرد وهما في عقله فمحمود أو ما له بالإيجاب بسرور ثم أنهى طعامه وانصرف.. لم يحدث اي شئ غير طبيعي.

لم يعرف "علي" أي شعور تملكه حينها.. فقد كان سعيدا إذ أنه في النهاية يبدو أن محسن هو المذنب وقد تم القبض عليه وبذلك فلا يوجد أحد من المسؤولين متورط معه في هذا الأمر كما كان يعتقد هو ومؤمن.

على الجانب الآخر هو حزين علي ماحدث لمحسن فبالرغم من كونه لصا -ليس مؤكدا حتى الآن- إلا أنه صاحب مسؤوليات كبيرة ولديه زوجه وأولاد، لكن بما أن الدكتور حاتم لم يستدعي له الشرطة وطلب أمن المستشفى فهذا يعني أنه لن يقوم برفع دعوى ضده وسيكتفي بفصله وهذا جيد، هو حزين أصلا بسبب معرفته أن الدكتور حاتم وثق به وهو خان هذه الثقة.

حزين لأنه أدرك مدى جهل الإنسان وطمعه.. فالبعض لا يتغيرون مهما أتاحت لهم من فرص، لكن سبب حزنه الأكبر هو انه أعطى قضية كهذه وقتا أكبر مما تستحق.

يبدو أن أحمد كان محقا في النهاية فقد استغل علي هذا الموضوع ليضفي بعضا من الإثارة إلى حياته الكئيبة.. ربما اعتقد أنه سيغير العالم إلى الأحسن إذا استطاع حل هذا اللغز لكن للأسف كل هذا كان في عقله فحسب والآن انتهى كل شيء وسيعود إلي حياته المملة مجددا.

انتهز فرصة قيام محمود وسارع بالاتصال بمؤمن حتي يخبره بما حدث.

جاء صوته مرتبكا لكن فيه شيء من الفرحة وهو يقول: ألو، كيف أحوالك يا صديقي.

أحس بنبرة خوف في صوت مؤمن وهي تقول: أنا بخير يا علي. هل من خطب لتتصل بي؟

دار بينهما حديث قصير أخبره فيه علي أنه يريد أن يخبره شيء ما لكن مؤمن رفض رفضا قاطعا أن يتحدثا على الهاتف، فعلى ما يبدو أنه هو الآخر كان يمتلك معلومات مهمة عن القضية. كانت هذه المعلومات مهمة في نظره هو أما في نظر علي الذي أدرك كل شيء كان يعرف أن هذه المعلومات هي مجرد هراء لا قيمة له.

حاول أن يخبره أكثر من مرة أنه حسم الأمر تماما وأنه لا داعي لأن يتعب نفسه لكنه أصر إصرارا غريبا على أن يتقابلا مباشرة بعد العمل في أحد "كافيهات" القاهرة.

حدد مؤمن موعد ومكان اللقاء وأنهى المكالمة بسرعة لم تسنح لعللي بالاعتراض على أي شيء.. لقد وضعه أمام الأمر الواقع. زفر علي غيظا من مقاطعة مؤمن لكلامه أكثر من مرة وتجاهله إياه.. فرأى أنه من الجيد أن يدعه يمر عليه ويأخذه إلى مكان يجلسا فيه وبعدها يفاجئه علي بما عرفه وأن الموضوع منتهي أصلا.. عندها سيدرك مؤمن كما هو مغفل لثلا يسمع كلامه..

فتح عينيه الناعستين ببطء شديد، أوجعها ضوء الشمس الذي تسلل من الشباك. كان يشعر أن كل عضلة في جسده تؤلمه.. أراد أن يتمطى بأقصى ما استطاع من قوة كي يمدد عضلاته التي تيبست من كثرة الإرهاق والتعب لكنه أحجم عن قراره هذا خوفاً منه أن يوقظ الصبيين النائمين بجواره.

رفع يده اليسرى ببطء حتى اعتلت عينه وحجبت عنها أشعة الشمس التي كادت تحرق شبكية عينيه.

نهض من السرير بحركات بهلوانية كي يتفادى إيقاظ أي من أبنائه الثلاثة النائمين جواره. بصعوبة بالغة استطاع فتح باب الغرفة الذي تأكل نصف خشبه وانكسر وأصبح يشبه أبواب الحانات التي يراها الناس في الأفلام التي تتحدث عن الغرب الأمريكي القديم "American old west".. لم يسمع قبل عن الغرب الأمريكي القديم.. لم يشاهد الأفلام التي تتحدث عنه ولم ير كيف كانت أبواب الحانات في ذاك العصر.. لأنه لم يكن يملك جهاز تلفاز.

وصل إلى الساعة القديمة الخربة لكنها -وبطريقة ما مازالت تعمل- الموضوع في أحد أركان الغرفة الضيقة.. كانت الساعة قد تجاوزت موعد شروق الشمس بنصف ساعة أو أقل بقليل.

يكره الاستيقاظ متأخراً هكذا، لطالما اعتاد أن يستيقظ مع الفجر.. يذهب إلى الحقل فيظل يعمل ويعمل حتى ينكسر ظهره من كثرة التعب فيعود للمنزل يتناول ما بقي له من فتات

الخبز وبعض الجبن ثم يأخذ قيلولته صغيرة ليستيقظ قبيل المغرب وقد استعاد كامل نشاطه وقوته.. ويظل مستيقظا حتى بعد العشاء بقليل، يقوم بتحفيظ أولاده القرآن ويتابع أحوالهم وإذا تفرغ بعض الوقت يذهب إلى بيت جاره الحاج "عامر الشوبكي" يتسامران ويسترجعا ذكريات الطفولة ويؤنس كل منهما الآخر.

أما الآن وقد زادت أعبائه المادية ولم يعد المال الذي يجنيه من العمل في الحقل كافيا اضطر للعمل فترة المساء أيضا.. لم يجد إلا وظيفة حارس مقابر ليشغلها، لم يعمل حارسا من قبل لكن بجسده القوي وعضلاته المفتولة لم يكن الأمر صعبا.. إذ تكفي نظرة واحدة منه أو صرخة من صوته الأجهش لتبث الخوف في قلوب حفاري القبور ونابشي الجثث.

منذ ذاك الحين ولم يذق طعاما للراحة.. في الواقع هو لم يذق طعام الراحة منذ وفاة زوجته وأم أولاده أثناء ولادتها لابنها الأخير الذي أسماه سامي تيمنا باسم والدته سامية. ارتدى جلبابه الذي يخصصه للعمل في الحقل ولم يكن بحاجة لارتداء عمته فقد كانت ما تزال على رأسه منذ عاد بالأمس من وظيفته الثانية.

راح يتفقد أولاده بعطف وحنان.. يشعر بالحزن عليهم، ليس بسبب حالته المادية الضعيفة والتي جعلت منهم أقرب لأطفال الشوارع في هيئتهم بل بسبب فقدهم لامرأة مثل والدتهم.. كانت أرق الناس قلبا.. كانت روحه الثانية التي لم يجدها في أحد بعد وفاتها.. قبيل وفاتها طلبت من جميع من كان حاضرا بالغرفة أن يغادر وطلبت منه وحده أن يجلس إلى جوارها، وضعت كفها الرقيقة على خده الخشنه وبهدوء شديد وهي تصارع الموت قالت: أوصيك بأبنائي يا سعيد. اجعلهم في عينيك حتى لو اضررت للزواج بأخرى من بعدي لكن لا تهملهم يا سعيد.

نزلت دمعته صغيرة حارة من عينه التي ما كان يعرف أنها قادرة على البكاء.. لطالما ظن أن البكاء للضعفاء وأنه ليس بضعيف.. لكن غلبته سامية.. غلبته بضعفها.

مالت على صدره مرة أخرى وهي تكمل: اضربهم احرقهم أجعلهم يأكلون من خشاش الأرض افعل بهم ما تشاء أنت والدهم لكن لا تدع يدٌ غير يدك تمسهم.. لا تدع مخلوق يتعرض لهم بأذى مهما كان الثمن.. أستحلفك بالله يا سعيد أن تصونهم.. أستحلفك بالله.. تعلم أنه سيحملهم على كفوف الراحة.. سيهلك نفسه في سبيلهم.. لكنها أصرت أن توصيه.. لا تدري ما يفعله الزمن به.. أو بهم!

لم تكن دمعته صغيرة هذه المرة، كان شلالا من الدموع، بللت دموعه كفها الرقيقة التي لم تفارق خده حتى فارقت صاحبته الدنيا.

يشعر بضيق في صدره وألم في قلبه كلما تذكر هذا الأمر.. عزاءه الوحيد كان ابنته الكبرى "سنية"، تشبه والدتها كثيرا، تمتلك الملامح ذاتها تقريبا ولها نفس رقتها ونقاء قلبها لكنها أقوى منها بكثير.. كانت سامية لينة خاضعة أما سنية فهي قوية ذات شخصية مستقلة، ربما كان هذا بسبب أن ابنته متعلمة.. كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعله يسمح لها بأن تكمل تعليمها الجامعي، فقد كان ينوي أن تنهي تعليمها الثانوي وتتزوج لكنها أصرت أن تكمل تعليمها الجامعي، خاصة وأنها كانت حصلت على مجموع أعلى من كل أترابها في القرية.. تذكر وصية والدتها بأن يصونها ورأي أن تعليمها وعقلها المستنير هو أفضل طريقة تحفظ بها نفسها وتحفظ إخوتها أيضا.

نفذ عن عقله هذه الذكريات التي صارت تأتيه كثيرا مؤخرا، لا وقت للذكريات الآن.. لا وقت للألم.. هناك فقط عمل ينسيه كل تلك الذكريات، بل ينسيه حتى من هو.

أزاح الخشبة الموضوعة خلف الباب لئلا تمنعه من أن يفتح من تلقاء نفسه وهم أن يغادر لكنه انتفض كأنها تذكر شيئاً مهماً ثم عاد يظر إلى النتيجة المهرثة الموضوعة خلف الباب مباشرة. كان اليوم هو التاسع من أبريل ميلادياً، تغيرت ملامحه من الإرهاق واستبدلت بحزن وإحباط.. مازال أمامه الكثير حتى يقبض مرتب وظيفته كحارس للمقابر!

(13)

أتى مؤمن مسرعاً ليصطحب علي إلى المكان الذي حدده مسبقاً واتفقاً أنها سيتحدثان فيه وكان قد بدا عليه الإرهاق الشديد.

اعتذر عن تأخره وتحجج بأن العمل كان كثيراً ولم يستطع أن يخرج مبكراً. يعذره علي على الفور فهو يدرك أنه سيُصدم عندما يعلم أن محسن هو اللص وأن القضية - كما يجب مؤمن أن يدعوها - هي مجرد حادثة سرقة عادية وقد تم القبض على المجرم.. وأن مجهوده كله راح هباءً.

- حسناً يا علي هل تبدأ أنت بما لديك أم أبداً أنا؟ قال مؤمن وهو يتسهم.

كان علي منهكاً هو الآخر.. منهكاً من العمل ومن التفكير ومن تصنع ملامح غير التي يحسها، فلم يرد منه أن يتحدث ويأخذ وقتاً طويلاً في سرد تفاصيل يعلم أنه لا فائدة منها.. ثم يصدمه بما حدث؛ فاقترح أن يبدأ هو، وقص عليه ما حدث صباح اليوم بالتفصيل.

كان مؤمن يستمع بإنصات شديد رغم الإجهاد الظاهر عليه. وعندما انتهى علي من كلامه واعتذر لمؤمن بأنه جعله يأتي كل هذا الطريق ويبدل جهدا كبيرا في "اللاشيء".

ضم مؤمن راحتي يديه إلي بعضهما وقال بنبرته العملية: مممم... إن المعلومات التي قلتها بخصوص محسن وأنه طرد من عمله القديم بسبب قبول رشوة هو كلام صحيح جدا.. وأنا سعيد أنك توصلت إلي هذه المعلومات، لكن يبدو أنك تعتقد أن هذا الحوار لا فائدة منه وأنا أضعنا وقتنا هدرًا وهذا غير صحيح.. فكل ما قلته يتناسب تماما مع نظريتي والمعلومات التي وصلتني.. ولو لم تخبرني أن محسن طرد لكنت أخبرتك أنه سيتردد عما قريب.

اندهش علي من الرد وارتفع حاجباه في عدم تصديق.. فقد كان يتوقع من مؤمن أن يندهش مما أخبره به لكن العكس تماما هو ما حدث! نظر إليه علي نظرة تعجب وقد أحمر وجهه وبدأ الأدرينالين يتدفق في عروقه، فقد عاد يشعر بالإثارة مجددا ثم سأل بهدوء واستنكار:

-وما هي تلك المعلومات التي تجعلك واثقا لهذه الدرجة؟

مال مؤمن إلى الأمام مقتربا من علي ثم بدأ يقص قصته هو الآخر.. أخبره أنه بعد أن خرج من منزله آخر مرة مباشرة اتصل بصديق له يعمل في الشرطة هو الآخر يستطيع أن يحصل على معلومات تفصيلية عن أي شخص، وطلب منه أن يتتبع آثار محسن وأحمد وبعض من كبار المسؤولين في المستشفى.

اكتفى علي بسؤاله والحماس يمتلكه: هل هذا قانوني؟!

-القوانين وجدت لكي يتم اختراقها يا علي. أعلم أن هذا يبدو غريبا خصوصا وأنني رجل قانون، لكنني لا أقصد كل القوانين بالطبع؛ فبدونها يصبح المجتمع غابة.. لكن حديثي هنا عن بعض القوانين والإجراءات الورقية التي تأخر المرء فحسب.

لم يستطع علي أن يعقب على قوله هذا لكن عقله كان ما يزال منشغلا بالمعلومات التي أخبره مؤمن أنه جمعها، تنحنح ثم أشار بيده إلى مؤمن طالبا منه أن يكمل حديثه، فقال مؤمن مستمتعا بها يقول:

-لقد ألقيت نظرة علي هذه التقارير.. وللوهلة الأولى قد يعتقد المرء أنه لا مشكلة بهذه التقارير وأنها لمواطني شرفاء باستثناء محسن الذي في سجله قضية رشوة، على الرغم من بعض الشكوك التي تحوم حول المستشفى لكن لا شيء يرقى لكونه دليلا كلها مجرد أقوال لا ثبوت لها.

سجلات أحمد ونادر نظيفة تماما!

توقف مؤمن عن حديثه فجأة ليحتسي رشفة من قهوته البرازيلية من النوع المفضل لديه. انتهز علي الفرصة وأمسك طرف الحديث قائلا: أتريد أن تخبرني أنك قد وضعتهم محل شك لأن سجلاتهم نظيفة! وتطلق علي هذا خبرة؟!

نحى قهوته جانبا ثم ابتسم مرة أخرى وهو يقول: يبدو أن لم تدرك ما أقصد. فأنا أعني أن تقاريرهم بيضاء تماما خالية أعني ألم يرتكب أي منها حتى مخالفة سير على الأقل؟! أضف إلى معلوماتك أن سجلات محسن لم يتواجد بها أنه متهم بقضية رشوة وإنما هي من عمل تحري صديق لي.. أحدهم حاول إخفاء هذا الأمر.. هل يبدو لك هذا طبيعيا!

شرد علي قليلا وهو يحلل تلك المعطيات في عقله، لم يكن الأمر مستعصيا على الفهم لكنه كان غير قابلا للتصديق.. أيعقل حقا أن يكون صديق عمره مشترك في عمليات اختلاس أموال وهناك من يساعده في تنقيح سجلاته سرا! هذا آخر ما كان يتوقعه.

انتفض علي وأحس بقلبه ينبض بعنف واحمر وجهه.. لم يكن يتوقع أبدا أن يسير هذا اللقاء بهذا الشكل، كانت الصدمة كبيرة عليه هذه المرة خصوصا أنه كان قد أزاح تلك الفكرة من عقله منذ أخبره مؤمن أنها مجرد ظنون ليس إلا.. وهاهي الآن تعود من جديد لتدك حصون عقله وتتغلغل في فكره فلا يبقى سواها. أما كان يكفيه الأفكار الأخرى التي كانت تراوده!

لكنه سرعان ما أزال هذا التفكير عن رأسه فهو لا يريد أن يتسرع في الحكم على أحد مجددا. لا شيء من هذا يرقى لكونه دليلا أصلا.

راح يسأله بنبرة فيها شيء من الصرامة والجفاء عن سبب قوله أنه توقع أن د. حاتم سيقوم بطرد محسن؟ ولماذا لم يطرده هو الآخر إن كان قد عرف أنه هو من اكتشف هذا الخطأ؟ عادت إليه ثقته بنفسه وراح يقول متفاخرا بذكائه: هذا ما كنت أنوي أن أوضحه لك منذ قليل لكنك لم تترك لي فرصة لإكمال حديثي.

إن حادثة طرد محسن هذه لم تحدث إلا بعد معرفتك بوجود خطأ كبير في الحسابات.. ويال للمصادفة فهو لم يطرد حتى أخبرت أحمد بهذا! والمصادفة الأكبر أنك وجدت أحمد في غرفة محسن في اليوم السابق لطرده مباشرة. هل تعتقد أن كل هذه مصادفات؟!

هنز علي رأسه نافيا. لقد كان كلام مؤمن مقنعا هذه المرة.. هذه ليست مصادفات بالطبع، من المؤكد أن شيئا ما يربط تلك الأحداث كلها معا.. لكن ما هو؟

ربما كان الأمر أبسط من هذا بكثير.. ربما كانت الإجابة أمامه لكن عقله لا يريد أن يقتنع بها، ربما مؤمن محق.. لا بد أن أحمد له دور كبير فيما يحدث، ليس من المستبعد أن يكون هو المتهم الرئيسي في هذا الموضوع، هكذا قال عقله.. وكان لمشاعره رأي آخر....

ليس غريبا عليه أن يخالف تفكيره مشاعره، وبالرغم من أن هذا الأمر تكرر معه كثيرا إلا أنه مازال يقف أمام مواقف كذلك عاجزا كطفل صغير أمام والدته التي انهالت عليه ضربا بكل ما أوتيت من قوة.. لا يستطيع الخلاص منها.. ولا يجد له مخرجا.. ولا هو حتى مدرك سبب وجوده في هذا المكان!.. يبدأ الاقتناع أنه هو المخطئ.. حتى وإن لم يعرف ماذا فعل!

نحى عن عقله هذه الأفكار جانبا فهو يعلم أنها ستأخذ نصيبها منه بعد أن ينتهي الحوار؛ لذا ركز أولا على أن ينهي الحوار فقال بقلق وحيرة:

-إذا أن تقول أن "محسن" طُرد لأنني علمت بوجود خطأ في الحسابات لكن لماذا لم يكتفوا بإصلاح الخطأ فحسب وتسير الأمور كما المعتاد

-أحمد -ومن معه- ليسوا أغبياء. يعلم أحمد جيدا أنك لم تقتنع بما أخبرك به، يعلم أيضا أنك لا تريد أن تتوقف عن التفكير في هذا الأمر وحتما ستصل لشيء ما. لا يريد أن يثير الشبهات، فهو يعلم أنك ستقنع بأن محسن هو اللص وستكتفي بهذه الحجة السخيفة كإجابة ولن تبحث في هذا الموضوع أكثر، وهو ما حدث.. لولا أنه لم يعلم أن لديك مساعدا ذو خبرة في هذه الأمور.

من هذا الأحمق الذي قد يصدق أن شخصا بمفرده سيسرق مبلغا كبيرا كهذا مرة واحدة؟
كان محسن كبش فداء لهم..

أحس علي بإحرج من جملته الأخيرة فتنحى وحقق في عينيه حتى أدرك مؤمن غباء ما قاله
فرفع كفه في الهواء ولوح بها وتدارك كلامه قائلا: اعذرني يا علي فأنا لا أقصد أنك أحمق
بالطبع.. لقد كنت فقط أستهزأ من اعتقادهم أن هذا الموضوع سيمر بسهولة.
- لا عليك. لكن هل معرفتي بهذا الموضوع تجعلني في خطر؟! ربما يكيدون لي أيضا
ويتسببون بطردي كما حدث مع محسن؟

مال عليه أكثر حتى كاد يسقط من الكرسي الذي يجلس عليه ثم بنبرة هادئة تبعث على
السكينة والاطمئنان قال: من سجلات الدكتور حاتم يبدو أنه ليس من النوع المتهور
ويبدو أنه شخص حكيم وعاقل.. من المؤكد لن يقوم بطرد موظف لديه بدون سبب.. لا
تفتعل أية مشاكل وأعدك أنك ستكون بخير.
هذا أمر بعيد جدا..

أن يتسببوا بطرد أحد منهم ليحافظوا على أيا كان ما يفعلون؟! هذا أمر عصي على
التصديق.

بدأ علي يشعر أن مؤمن لم يشترك في تلك القضية إلا لسبب معين: أنه يأمل أن تكون هناك
عملية سرقة كبيرة في الأمر يحلها هو فيحصل هو على الترقية..
أحس علي بالاشمئزاز لمجرد التفكير في هذا الأمر.. أحس أن نسيبه كان يستغله من أجل
منفعة شخصية. أيعقل أن..؟!!

ليس الوقت مناسباً لتلك الشطوحات من التفكير..

بدأت نظرات مؤمن المطمئنة تأتي بنتيجة عكسية فجعلت علي يشعر بوجود شيء غريب وأنه يحاول إخفائه مما جعله يرجع بكرسيه للخلف قليلاً وهو يقول في عدم تصديق: ما زلت غير مقتنع أن أحمد من الممكن أن يشترك في شيء كهذا، فهو ليس من هذا النوع من الأشخاص.

قال مؤمن بلهجة صارمة مفاجئة: ماذا تعرف أنت عن الأشخاص؟! ساحمني يا علي لكن بعد وفاة والدك أصبحت والدتك شديدة الخوف والحرص عليكم لدرجة منعتكم من الاختلاط مع الناس خوفاً عليكم.. أقولك لك هذا لأنني أحس هذا الأمر أيضاً مع أختك.. ليس تقليل من شأنك لكن لا تدع العواطف تثنيك عن الحقائق.

هل أصبح الطرف المخطئ الآن؟! أيقع عليه اللوم لأنه يملك مشاعراً؟!!

تنهد تنهيدة عالية أخرجت جزءاً بسيطاً مما يدور بداخله ثم مسح وجهه بيديه بقوة وفرك عينيه غير مصداقاً لم سمعه اليوم.

اقترب منه مؤمن مرة أخرى في عدم فهم أن هذا يزيد الطين بلة فحسب وربت علي كتفه ثم قال: من الآن فصاعداً يجب التزام أقصى درجات الحذر. لن نتخذ أية إجراءات تثير الشك؛ لذا سنحاول التحقق من صحة نظريتنا عن طريق استهداف الضلع الأضعف في المثلث (أحمد - محسن وشخص آخر غير متأكدين من هويته).

- هل تقصد أحمد؟

هز رأسه نافيا وقال: لا بل أقصد محسن. فقد تم طرده ولا بد أنه في حالة مزرية وسيخر بكل ما يعرفه إذا استطعنا أن نجد الطريقة المناسبة، أما أحمد فلا أعتقد أنه سيقول أي شيء يساعدنا، فيبدو أنه شخص حريص جدا.

ضحك علي في سخرية فهو يعلم أن أحمد أحد أكثر الأشخاص الذين قابلهم في حياته حرصا.. لكن. هل حقا يعرف أحمد؟ هل يعرف أي شخص؟

- حتي نتأكد من الأمر يجب أن تتعامل معه بكل طبيعية.. فهذا مفيد لك ولل قضية.

قال علي وقد استعاد جزء من حماسه بعد رؤيته حماس مؤمن وأنه قد خطط لكل شيء بسرعة كبيرة ودقة: حسنا، متى سنبدأ التحقيق مع محسن؟

اتكأ مؤمن علي كرسيه بشدة وقال بهدوء: لن يكون هناك تحقيق.

هذا ليس أمرا رسميا؛ لذا يجب أن يتم الأمر بسلاسة دون أن يلاحظ أننا نراقبه وإلا وقع كلانا في مشاكل.. فلو علم رئيسي في العمل أنني أعمل علي قضية في السر لن يكون رد فعله جيدا أبدا. بالإضافة إلى أنك لن تشاركني في هذا.. فهذا الأمر يحتاج إلي خير يقوم به كما أن محسن يعرفك ويعرف أنك السبب الرئيسي في طرده لذلك لن يساعدنا إذا علم بتدخلك في هذا الأمر.

مهمتك الآن هي أن تكون طبيعيا مع أحمد وجميع من في المستشفى ولا تظهر أي شيء غير مألوف.

لم يكن من شيء آخر يريد أن يعقب عليه أو يسأل عنه فأوماً بالإيجاب ثم مديده وتصافح هو ومؤمن كأنه عهد تعاون فيما بينهما.. تعاهدا على إكمال هذا الأمر.. حتى وإن كان كلاهما يعتقد في قرارة نفسه أن هذا الأمر برمته قد يكون شطحا من خيال.

(١٤)

"صمتك يقلقني كثيرا وردود أفعالك الغير منطقيه بالمرة تجعلني في حيره شديده من أمرك.. هل انت ذاك الشخص الذي تعرفت عليه في أول المطاف؟! هل هذا ذاك الشخص الذي كان يدعوني إلى التفائل وتقبل الابتلاء ومواجهة الاختبارات الربانية بصدر رحب وقوه تحمل؟ ماذا يحدث الان؟!

أعلم انك منهمك من الداخل كثيرا.. ولكن هناك المزيد من الاسئله التي يجب طرحها أو بالمسمي الأفضل هناك المزيد من الوصف الأعماق والأشمل لسرد ما يحدث لك.. أرجوك لاتدع ذلك العبس ينال منك.. أنت تجعلني أخاف منك كثيرا وفي نفس الوهله تجعلني اجهش بكاءا خوفا عليك.

تحدث إلي اخبرني بروايات مدفونه داخل تلك الجدران الصلبه التي لا أستطيع اختراقها حتى في أحلامي.. أخبرني ماذا فعل هذا المرض اللعين بقلبك.. أخبرني شعورك الآن إذا كان هناك شعور!

أخبرني هل يوجد جزء بداخلك ما يمكنه أن يوقظك ويخبرك بأنك الان تموت.. وبأسوء طريقه ممكنه.. إنك الآن تموت ببطء.. ببطء شديد للغاية عليك ان تعلم ذلك، انت خارج



نطاق الحياة.. شخص صامت طوال الوقت تفكر كثيرا وعيناك كشاشة التلفاز تعكس مابداخل رأسك من معارك اقل مايقال عنها أنها دمويه.. عيناك تنزف دموعا تسببت بفقدان نصف بصرك.

حركتك أصبحت أبطأ كثيرا أصبح وصولك للمرحاض هو أقصى طموح ذاك الجسد الفاني.

أنا أجلس لا أعرف ماهو دوائك لأنني لا أعرف في الأساس سبب العله أرجوك اخرج من ذاك الصمت ولو لمره واحده.. أخبرني. ليس من أجلك.. بل من أجلي.. أخبرني كي أشعر.

اتذكر عندما كنت تردد أن الحياه ليست مجرد تنفس ونبض دائم وإنما الحياه هي ضحكه من القلب.. وعبس وبكاء من الأعماق.. وإحساس دائم بالفرح والالم.. أنت الآن لا تشعر بأي شئ أنفهم ذلك ؟!

أنت لاتندesh لاتشعر لاتتحدث بمصطلحاتنا بالبشر لا أحد يعلم أي لغة تتحدث الآن.. يظنون أنك صامت لكن عيناك.. عيناك تفضحانك.. تدلاني إلى أنك تتحدث.. تتحدث كثيرا أيضا.. لكن للأسف لا أستطيع أن أفهمك.

اسمعت ذلك الطبيب النفسي صديقك حينما أخبرك أن أسوء مرض يعاني منه الانسان هو أن يعيش ويموت دون أن يدهشه شئ واحد.. أو يرى العالم حوله لايعني شئ.. لايميز بين مايعجبه ومالايدعو لذلك!

اتحدث إلى نفسي أسأل واجيب اجابات لاعلاقه لها بالواقع فقط حتي لايشك الناس في امري بأن عقلي ذهب في مهب الريح. ما أصابك من الصدمات كانت جرعتها كافية لوصولك لهذا الحال.. أم أن قوه تحملك ضعيفه الي ذاك الحد!"

علي رشاد

انتهي من كتابة مقالته ثم أعاد قرائتها مرة أخرى وهو لا يدري من أين أتت هذه الجمل والكلمات.. لا تبدو هذه ككلماته أو التعبيرات التي يستخدمها عادة، ماذا حدث إذا؟! هل أصاب عقله الجنون فانقسم إلى قسمين كل جزء يفكر بشكل منفصل عن الآخر؟!

التفسير الوحيد الذي يؤيد نظرية أنه مازال يتمتع بكامل قواه العقلية هو أن عقله الباطن هو الذي تولى زمام الأمور وقد عبر عن نفسه بهذه الطريقة. فالكتابة هي مخرج رئيسي يعبر به الإنسان عما بداخله بلا قيود أو حدود، حتى وإن احتاج أن يقوم بتعديلها وتنقيحها بعد ذلك حتى تتناسب مع عادات المجتمع وقيمه؛ كي لا يكون من المنبوذين...

ينتهي قراءتها للمرة الثانية ويتساءل هل هذا فعلا هو ما يفكر به عقلي الباطن؟ هل هذا ما أنا عليه من الداخل حقاً؟ ألهذا علاقة بقضية المستشفى واحتمالية تورط أعز أصدقائي في عملية اختلاس أموال؟.. أم أنه مرض مستأصل في قبل أن أولد حتى؟.. هل يكتب على البعض الشقاء أم يكتبونه بأنفسهم؟

هذا الكلام يبدو أنه نتيجة تراكمات من ضغوطات كثيرة.. تراكمات من الروتين وكبت الغضب دون تنفيسه، وعلي ما يبدو أن الأحداث الأخيرة كانت هي القشة التي قسمت ظهر البعير، فلم يتحمل عقلي الباطن وأفاض عما بداخله.

قاطع حبل أفكاره صوت طرق والدته برفق على الباب...

أخفى دفتر يومياته -ومقالاته أيضا- ثم فتح الباب وقابلها مرتيدا قناع سعادة مصطنعة؛ فهو يعلم كم أنها تحزن لحزنه.. وحزنه يزداد بحزنها.. وهكذا فهي دوامة من الحزن لا يريد علي أن يسقط فيها.

بوجه بشوش قد انفرجت أساريره قال: كيف حالك يا ست الكل؟

-أنا بخير، أنا هي من يجب أن تسأل هذا السؤال فلست أنا من صارت تقضي معظم أوقات يومها جالسة في غرفتها وحيدة.

لم يجد تبريرا مناسباً، فالواقع لا يوجد أي تفسير يستطيع أن يقوله ويكون مقنعا.. لكنه يبحث عن أكثر حجة مقنعة تجنبه محادثات تربوية هو في غنى عنها.. حجة تشغل عطيات عن هذا الموضوع أطول فترة ممكنة، استجمع شتات أفكاره وقام بأسرع جلسة عصف ذهني في التاريخ حتى هداه عقله إلى أن يقول والحيرة تملأه: الحب يذيب القلوب يا أمي.

فتحت والدته شفتيها محرمة لسانها بينها بسرعة رهيبية مصدرة صوتا مدويا يدل علي الفرح (تزغرد).. احمر وجهها من السعادة وانقطع نفسها من كثرة الزغردة والتي حاول كثيرا أن يحاول من تهدئتها لكنها أبت وضمته إليها بشدة قائلة بسعادة غامرة: يا ااه أخيرا يا بني. لقد عشت عمري كله أحلم بهذه اللحظة.. أحلم أن أراك متزجا وتنجب لي حفيدا يرث اسمك واسم والدك.. تلك هي أعظم هدية تخليد لذكراه.

لم يتوقع علي كل هذا الإنفعال جراء كذبتة الصغيرة.. الآن سيصير حزينا أكثر لأنه يعلم أنه سيخيب أمل والدته وحلمها الوحيد.. ستقع الكارثة إن أجلا أم عاجلا فهو لا يفكر في الزواج الآن علي الإطلاق.. لكنه يفضل دائما أن تقع الكارثة آجلا...

هذا كله غير مهم المهم أنه سيستطيع التملص من هذه المحادثات عن كونه حزينا وتعيسا بعض الوقت.

أمسكت كتفه برفق وقالت والدنيا لا تكاد تسعها من فرط الفرحه: هل ستعرفني عليها؟

- ليس بهذه السرعة يا أمي. الأمر ليس رسميا حتى الآن.. إنه مجرد تفكير ليس إلا.

- لو كنت واثقا من أخلاقها.. تعال نخطبها لك، أنا متأكدة أنها لن ترفض، ليست هناك أثني بهذا الغباء لترفض شخصا مثلك.

- "القرود في عين أمه غزال".

لكمته عطيات على كتفه بلين وهي تقول: اخرس، من هذا الذي تدعوه بالقرود! أنت أكثر شخص وسي...

لم يرها بهذه السعادة قبل.. ربما يتذكر مرة واحدة رآها هكذا وكانت تلك المرة عندما أخبرها والده أنه تعافى تماما من السرطان وأن الطبيب أخبره أنه ليس بحاجة لأخذ المزيد من جرعات العلاج الكيماوي.. لم تكن تعلم أنها بداية الكارثة..

لم يكن والده قد تعافى بل العكس هو ما حدث.. أخبره الأطباء أنه لا أمل له في النجاة وأن العلاج سيؤخر المسألة ليس إلا.. وبرغم توصيات الأطباء له أن يكمل العلاج إلا أنه رفض..

وفي أحد المرات بعدما توقف عن الذهاب لأخذ الجلسات سمع علي والده يصرخ من شدة الألم في غرفة راحته التي كان يقضي كثير من وقته فيها بعد انتهاءه من الجلسات العلاجية.. كان ذكيا ليدرك حينها أن شيئا مأسويا سيحدث...

وبالفعل.. توفي والده بعد عدة أشهر من يوم سمعه علي يصرخ من الألم.. كانت عطيات محطة حينها.. محطة جدا لوفاة زوجها.. ومحطة أكثر لتهمش الأمل الواهم الذي أعطاه إياه..

يدرك تماما أنها ستتخطم مجددا إذا لم يكن كلامه صحيحا هذه المرة هو الآخر.. لكن عقله عجز عن إيجاد حل لتلك المشكلة كأنها هو يبرع فقط في اختلاق الأحداث.. أما إيجاد حل للمشاكل...!

كان مستعجلا ولم يرد أن يفتح النار عليه من جميع الجبهات.. يكفي ما هو فيه الآن.. طبع قبله حانية على جبينها وأخبرها أنه قد تأخر عن موعد الحفلة، نظرت إليه في عدم فهم فعاد يكمل كلامه شارحا لها عن الحفل الخيري الذي يقيمه بعض رجال الأعمال الكبار في الدولة ومن ضمنهم الدكتور حاتم بالطبع وأنه قد أعطى دعوة للعاملين في المستشفى وطلب منهم أن يظهروا بمظهر لائق.

شردت قليلا ثم تنحنحت وقالت بعدما تذكرت: آه صحيح لقد أخبرتني عنها منذ عدة أيام.. أنا آسفة لقد نسيت هذا الأمر تماما.

استدار للخلف وكاد يعود إلى غرفته ليستعد حتى أوقفته مرة أخرى وهي تقول: بمناسبة التذكر.. لقد تذكرت الآن السبب الرئيسي لقدمي إلى هنا.

- ما هو يا أمي؟ لكن بسرعة أرجوكي.

- علي، أنت الآن قريب من أن تصبح مسئولا عن منزل وعائلة ومسئوليات أخرى كثيرة.. أرجوك لا تجري وراء أوهامك وتقوم بعمل مشاكل مع الدكتور حاتم بسبب الموضوع الذي كنت تتحدث مع مؤمن فيه.

ليتها تعرف أن كل ما يفعله هو من أجل مساعدة حاتم.. ليتها تعرف من المتهم الآن! قال بلهجة صارمة: لا أنوي الوقوع في مشاكل لا تقلقي.. غير إنني أعمل في هذه المستشفى بمجهودي ولو لم أكن علي قدر المستوي المطلوب لما عينوني، أنا لا آخذ راتبي منهم شفقة ولا مئة ولا أخشى أن يرفدوني، فليس هم من يوزعون الأرزاق.

- بالطبع، بالطبع هم الذين يحتاجون إليك، أين سيجدوا طبيبا ماهرا مثلك، لا عجب أن الدكتور حاتم كان متشوقا جدا للرؤيتك تعمل معه.

ثم نظرت إليه نظرة لم يستطع تحديد معناها.. هي مزيج بين الشفقة والحب والخوف في آن واحد.. لكنها تشعره بالأمان.. تشعره أن هناك من يهتم لأمره حقا.. دون النظر لنتائج أو أي مقابل آخر...

في الحفل بدا الجميع متأقفا للغاية...

الجميع يرتدي بذلات فاخرة وفساتين أنيقة ورائحة العطور الفخمة مثل: (aqcu di GioGiorgo Armani) و (creed silver mountain)

وغيرها تطغى علي المكان. لكن أكثر من لفت انتباه علي -وجميع الحاضرين- هو "عامر أسعد نور الدين" أو كما يُلقب "البروفيسور".

أحد أكبر رجال الأعمال في الشرق الأوسط إن لم يكن في العالم كله.. يمتلك مجموعة شركات مالتى ناشيونال وعدة مشاريع إسكانية وشركة أمن كبيرة (تلخيصا للوقت يمتلك عدة مشاريع في كل المجالات تقريبا) لكن ليس هذا هو ما لفت انتباه الحاضرين بل ملابسه وأناقته التي لا مثيل لها تجعل باقي الحضور كأهم من العصر الحجري، يرتدي بذلة ماركة "بريوني" والتي قد يصل سعرها إلى ٤٣ ألف دولار، وساعة روليكس من نوع

.Oyster Perpetual

لم يكن علي ليعرف هذه المعلومات بمفرده بالطبع وإنما أخبره إياها أحد أصدقاءه الحاضرين الحفل.. الذي فيما يبدو أنه تحول من حفل خيري إلى إحدى تلك الجلسات التي يقوم فيها أبناء الطبقات الكادحة والمتوسطة بحسد الأغنياء.. يحسدونهم على كل شئ تقريبا.. لكن في هذا الحفل ليس مسموحا للفقراء بالتواجد.. إذا فالحسد كان مقتصر فقط على أبناء الطبقة المتوسطة..

كان علي يجلس على طاولة فخمة هو وثلاثة آخرون من الطاقم الطبي للمستشفى.. كان أحمد من ضمنهم بالطبع.

كان الكل مستمتعا بجمال الحفل وروعة التنظيم.. باستثناء علي الذي طلب منه مؤ من أن يكون متبها جدا.. أن يراقب أي شئ خارج عن المألوف.. وإن استطاع أن يحصل من أحمد علي أية معلومات دون أن يجعله يشعر بشئ سيكون هذا مدهشا.. لكنه عاد في النهاية وطلب منه أن يبتعد عنه خشية أن يذل بلسانه بأي شئ.

خدعة قديمة جدا.. يفعل هذا حتى يتحمس علي ويخبره علي أنه سيستطيع فعلها دون أن يخطئ.. وبهذا يكون قد جعله يفعل ما يريد وإذا أخطأ يلومه لأنه فعل الشيء رغم طلبه منه ألا يفعل!

كان يدرك هذا جيدا.. لكنه أحب المغامرة.. أحب شعور أنه يفعل شيء ذو قيمة.

ما آثار استغرابه هو أن الشكوك حول البروفيسور وأعماله غير الشرعية يفوق ما تحوم حول أي شخص آخر في هذا البلد.. يفوق محسن ومن معه بمراحل.. ومع ذلك يتعامل معه الكل بأريحية واحترام!

سيراقب الجميع.. عله يجد ما يفيده. أن تصطاد عصفورا بحجر هذا جيد.. عصفورين ممتاز.. أما أن تصطاد فيلا بحجر فهي العظمة..

وبينما هم يتحدثون عن الحفل والتنظيم المبهر بدأت الإضاءات تصبح أقل سطوعا وتوجهت كل الأضواء تجاه الـ "stage" وأمسك "البروفيسور" المايك.. عم صمت رهيب.

بدأ بشكر الناس علي الحضور وأشياء كثيرة من هذا الكلام الروتيني، حتى وصل إلي الجزء الذي أقيم هذا الحفل خصيصا لأجله وهو دعوة الناس إلي التبرع لجمعية الخيرية من أجل مساعدة الأيتام.. لقي هذا الخطاب العديد من التهكم والسخرية والخطابات الجانبية مثل: لو تبرع بذلته هذه لاستطاع أن يحسن من أوضاع مئات الأيتام، وأن تكلفة هذا الحفل كان من الممكن أن يتم التبرع بها لجهات أخرى لمساعدة الفقراء.....

وفي وسط الخطاب مال أحمد على "علي" واضعا يده على فمه وهو يقول: هؤلاء الأوباش. يملكون كل شيء لديهم المال والسلطة والصحة والشهرة ومع ذلك لا يشبعون! لا يكتفون ويتركون بعض المجال للفقراء وأصحاب المشاريع الأخرى كي يربحوا.. لا يهمهم إلا أنفسهم.. بيد أني أريد أن أكون غنيا مثلهم وأجرب هذا الشعور.. شعور أن تعيش لتعمل لا تعمل لتعيش.

صُدم علي من هذا الكلام، فلو كان مشاركا مع محسن في مشروع غير قانوني لما قال كلام كهذا.. أم أنها حيلة كي يقنعه أنه لا علاقة له بما يحدث في المستشفى وأنه من الطبقة الكادحة مثله!

شعر بتوتر شديد ولم يعرف ماذا يقول.. يبدو أن مؤمن سيربح الرهان في النهاية... فكر في أن يفعل أفضل شيء يجيده عندما يتوتر وسط حديث.. يسرد معلومات يعرفها مسبقا حتى يضمن بذلك انعدام احتمالية الخطأ وتقليل الشعور بالتوتر:

-كلامك هذا ذكرني بجملة قرأتها منذ مدة تقول "لو أن الجميع متساوون في الرزق لما كان هناك حساب ولا جنة أو نار"

-دائما ما تبهرني بفكرك الفلسفي هذا.

أحس علي أنه تملك زمام الأمور مرة أخرى وأنه مجرد حديث عام وسيتهيئ مثله مثل شاكلته من الأحاديث، لكن أحمد فاجئه بقوله:

مارأيك في ما حدث مع البشمةهندس محسن؟ في النهاية يبدو أنك كنت محقا، فلقد كان هناك شيء غير طبيعي يحدث.. من يتصور أن شخصا طيبا كهذا يسرق كل هذا المبلغ من المال؟..

اندهش علي من تغيير الموضوع فجأة هكذا.. الأمر الذي اعتاده أحمد كثيرا في أحاديثه مؤخرا.. لا يترك متنفسا له حتى يفكر في أمر ما ويشعر بالاندماج فيه حتى يكون دخل في أمر آخر..

بدا هذا غريبا وغير منطقي.. فهل من المعقول أن الكلام السابق كله كان مجرد تمهيد ليبدأ هذا الحديث!

يؤمن أن مشاعر الناس تجاه بعضهم البعض أحيانا ما تكون عبثية ولا تخضع لمنطق ولا يعول عليها كثيرا.. فهاهو زميل دراسته وصديق عمره الذي لطالما رأى فيه مثالا للصديق الوفي والرجل المحترم.. والذي لو طلبت منه قبل عدة أيام أن يذكر إحدى مساوئه لاحتار وما وجد ما يقول، يجلس أمامه الآن ولا يرى فيه -بالرغم من أن كل ما يملكه ضده مجرد تنبؤات- إلا الغدر والخيانة..

يدرك الآن أن معرفته بأحمد وحبته الزائدة له ربما تكون قد أعمت عينه عن الحقيقة، وربما كان كلام مؤمن هو ما أعماه!

لم يعد يدري.. هو بحار فقد بوصلته في وسط المحيط الهائج.. حتى لو وجدها لا يخرج له منه.. قد ضاعت نفسه في غياهب الشك في كل من حوله.. لن يعود كما كان مهما حدث...

كان من الجيد أن يبدأ أحمد الحديث في هذا الموضوع إذ أنه لم يكن يعلم كيف يفتح هذا الموضوع معه في وسط حفل خيري صاخب كهذا.

وبما أنه قد حدث.. قرر الاستفادة بمعلومات أحمد قدر المستطاع ليس ليوقع به وإنما يريد أن يجد دليلاً يثبت به أنه ليس متورطاً فيما حدث مع محسن الصباغ، ففي النهاية أحمد هو أعز أصدقاءه ولا يريد له الشر حتى لو كانت الأدلة كلها ضده فسيظل ينكرها حتى النهاية.

- نعم إنه لشئ غريب كيف أن شخص طيباً مثله يسلك طريق الشر رغم أنه أتيحت له فرصة أخرى بعدما تم العثور عليه متلبساً من قبل في قضية رشوة ليغير من نفسه لكنه لم يفعل..

- معك حق فعلاً. أرى أنه استحق كل ما حدث له.

حديق فيه قليلاً ثم سألت بخبث: هل أخبرت أحداً آخر - غيري - عما رأيت عندما كنت معه في غرفة الحسابات.

ارتبك علي قليلاً وتنحنح ثم قال: لا. لم أخبر أحداً.. ولم سأفعل ذلك؟

- إذا كيف عرفت أنه كان متلبساً في قضية رشوة؟

انتفض علي وقال بصوت عال وهو يلوح بيده في الهواء: وماذا تعني بكلامك هذا!.. ها ماذا تعني؟

- اهدها يا صديقي. لماذا تبدو متوتراً هكذا؟! كان هذا سؤالاً عادياً.

قال علي بصوت خفيض أكثر من المعتاد معتقدا أنه بذلك سيغطي على رفع صوته في جملته السابقة: أنا لست متوترا فقط طريقة إلقاءك السؤال بدت غريبة بعض الشيء.

وضع يده على فمه للمرة الثالثة وقال بصوته العميق المعتاد: جل ما في الأمر أنه قد أخفي عن الناس موضوع الرشوة هذه ولا أحد يعلم به.

كنت أتسأل فقط كيف عرفت هذه المعلومة.. لم أكن أقصد اتهامك بالكذب فلربما تكون قد بحثت عن ماضيه لتعرف سبب قيامه بهذه السرقة. بسط كفه أمامه منهايا كلامه.

لم يكن يعلم أنه أعطى علي حجته على طبق من فضة.. تنحج قليلا ثم قال بثقة: آه نعم بالطبع. لقد سألت بعض من أقاربه وعرفت منهم ماحدث.

-لابد أن هذا الأمر لم يكن سهلا، أعني استخراج معلومات من عائلة شخص متهم بالرشوة ليس بالأمر السهل، فبالأكيد حاولوا إخفاء هذه المعلومات عنك.. لكن هذا عمل تحري جيد منك يا علي.

"تحري؟! هذه كلمة تنطبق على رجال الشرطة في الأغلب..

أيعقل؟..."

أم أنها مجرد مصادفة أخرى...

اعتدل في جلسته وضم قبضة يده إلى ذقنه ثم سأل بلؤم: وكيف عرفت أنت هذه المعلومات إن كانت بهذه السرية؟

ضحك أحمد ضحكه خفيفة: آه يبدو أنك أوقعت بي. للحقيقة فإنني عندما سمعت قصتك لم أصدقها أول الأمر.. وبعدما خرجت من عندي فكرت فيها مرة أخرى ووجدت احتمالية أن شيئاً غريباً يحدث....

قاطع كلامه موسيقي عالية جدا تبعت انتهاء "البروفيسور" من خطابه.
لم يستطيعا سماع بعضهما البعض فقررا الذهاب للخارج حتي يتثنى لهم الحديث بسهولة..
وحرية أكثر.

حك أحمد رأسه محاولا التذكر آخر ما كان يقوله قبل خروجها للحديقة الخلفية التابعة للقاءة المقام فيها الحفل.

-كنت تقول أنه بعد خروجي من منزلك بدأت تفكر فيما قلته لك. ها أكمل.
طرق بأصابعه في حركة سريعة وقال:

-آه نعم، وجدت أنه من الجيد لو تحققت من الأمر بنفسي.. لم أرد أن أخبرك في بادئ الأمر
لأنني أعلم أنك كثير القلق وأنا أحب العمل منفردا.. ومثلك تحدثت مع شخص قريب له
هو صديقي أيضا وأخبرني عن قصة الرشوة هذه، فزاد هذا من شكوكي حوله أكثر..
قررت الذهاب له وحاولت أن أوقع به خلال الحديث وأجعله يعترف بما حدث لكنه بدا
واثقا جدا من نفسه ثقة جعلتني أنحي شكوكي حوله جانبا، هذا هو سبب رؤيتك لي عنده
في قسم الحسابات.

لم أكن أنوي إخبارك بما فعلته خشية أن تعتقد أنني لا أقدرك أو شيء من هذا القبيل.. لكن بعدما طُرد محسن اطمئن قلبي إلى أن المجرم الحقيقي قد تم القبض عليه؛ لذا قررت أن أفصح لك بالحقيقة. كنت قد شعرت أيضا أنك لم تصدق كذبة أننا أصدقاء وأن هناك مشكلة في راتبي.

ضحك أحمد ثم أكمل بعفوية: أعلم أنها حجة ضعيفة لكنها هي كل ما خطر ببالي وقتها. من كان يصدق!!

كأن يخبرك أحدهم أن ألمانيا كانت من الحلفاء!.. أن إسرائيل دولة!.. غير معقول. لكنه مقبول، مقبول بشكل كبير.. هذا جل ما كان يريد علي أن يسمعه في تلك الفترة العصيبة.. على الرغم من أنه آخر ما كان يتوقعه!

مسح وجهه بيديه برفق وفرك مقلتيه ثم قال بشغف وانبهار: هذا فعلا مريح مريح بشكل غير معقول.

قال أحمد وقد بدا عليه التعجب: ماهو المريح!

صعقه هذا الرد..

لماذا لم يصمت فحسب؟

هو الآن مجبر على التعامل مع كل التصرفات الغبية التي كان يفعلها في الأيام الأخيرة.. مطالب بالدفاع عن نفسه وعن أفكاره الشاذة، بعدما كان هو المهاجم أصبح الحارس! موقن تماما أن لا شيء في الحياة يسهل الوصول إليه.. موقن أيضا أن المرء في حياته أشبه ما يكون بالمهاجم في مواجهة صف من المدافعين.. عليه أن يتأقلم ويرتب استراتيجياته

ومراوغاته حتى يستطيع العبور منهم.. وإن استطاع أن يعبر وتحقيق ما يتمناه.. سيجد نفسه محاطا بخط دفاع آخر جديد.. هي سلسلة من التعب والمشاكل لا تنتهي..
خرج من سجن عقله وأفكاره الغريبة وتأكد من أن العكس هو الصواب.. لكنه الآن ملزم أن يفسر كل ما كان يفعله!

في المرة الأولى لم يكن يخشى أي شيء.. أما الآن يخشى الكثير.. أن يفقد أعز أصدقائه..
لم يدر من أين يبدأ لكنه أثر الحقيقة عما سواها، بالتأكيد سيفهم الأمر، أجل بالتأكيد سيفعل.. أو ربما سيحطم الطاولة عليه..

أأأأأأ لقد عاد عقله لتخيلاته الغريبة مرة أخرى.. لن يتبعه هذه المرة، سيخبره الحقيقة:
- لا يفترض بي إخبارك، لكنني فعلا لم أصدق ما قلته لي عندما كنت عند محسن، ولم أكن ذهابا له كي أعتذر عما حدث مني، لقد كنت ذاهبا لنفس السبب الذي ذهبت أنت له..
لكن عندما رأيته ارتبكت وغيّرت كلامي.

علت نبرة صوته وهو يقول بحقن: ماذا! هل كنت تعتقد أنني شريكه في هذه السرقة؟ عار عليك. وأنا الذي ظننتك صديقي وثق بي!

زفر أحمد بشدة وهو يشيح بوجهه للجانب الآخر من الحديقة.

لماذا لا يسير كل شيء على ما يرام؟ لماذا يشعر دائما أن خط الدفاع الذي يجب أن يتخطاه مكون من "نيستا" و"مالديني" و"راموس"؟ ماذا حل ب"جونز" و"موستافي" و"جندوزي"؟

أكبر عدو للإنسان هو ذاته.. أليس كذلك؟!

قد عقد الأمر على نفسه عدة مرات بعدما كان استراح!

قال مستدركا: لا... لا، أرجوك لا تسء فهمي، أنا لم أشك بك أبدا لقد كان صديق لي كنت قد شرحت له ما حدث وهو الذي كان يعتقد أن ربها تكون شريكا.. أما أنا فلم أشك بك لحظة يا صديقي.

حلق فيه بشدة وقال بلهجة حادة: أي صديق هذا؟ ألم تخبرني أن لا أحد يعلم بما حدث؟ أرايت لقد كنت تشك فيا حقا، لا داعي لتزييف الحقائق وتزيين الكلام.

همّ بالإصراف فأمسك علي معصمه بشدة وجذبه للأسفل بلين واستجده للجلوس مرة أخرى.

- أرجوك اسمعني، لم أكن أشك بك بل بنادر الدرندي مساعد محسن. كنت أعتقد أن محسن ليس وحده من شارك في هذا الموضوع.

زال الغضب عن أحمد واحمر وجهه وجلس صامتا لم يبد أي تعبير ولم ينطق أي حرف.

- أعلم أن الأمر يبدو غريبا عليك، فقد كان هذا شعوري أول مرة فكرت في الأمر.

أخرج أحمد منديلا ورقيا ويمسح به عرق جبهته ثم ألقاه بعنف على الطاولة وقال: لماذا تعتقد أن هناك أكثر من شريك في هذا الأمر؟

ظل بعدها عدة دقائق يلعن هذا اليوم ويلعن اللحظة التي واثت فيها هذه الفكرة المجنونة التي جعلته يتحدث معه.. فقد جاء ليزف إليه خبر سعيد بطرد اللص الحقيقي.. وهاهو الآن يخبره أنه ليس لص وإنما هي عصابة!

-لن يترك عقلك حتى تجد نفسك وحيدا في الشارع بلا صديق ولا مال..

بذل على جهدا كبيرا في تهديته وشرح الأمر له. أخبره كل ما كان يفكر فيه.. أخبره تقريبا كل ما أخبره به مؤمن.. أخبره عن استحالة أن يفعلها محسن بمفرده هو ليس بذلك الذكاء وأنه لا بد أن هناك أحدا ذا عقل أكبر يساعده في هذا الأمر وربما أكثر من واحد.. أخبره كل شيء.. هذه فرصة لا تعوض إذا استطاع ان يضمه إلى جانبه سيكون قد فاز بمعركة في حرب كبيرة.. لو وجدت!

كان أحمد متفهما تماما ومستمعا بتركيز شديد عك لى العكس تماما من أول مرة أخبره فيها بالأمر.

قال بكثير من الكياسة: هذا كلام خطير جدا.. أرجو أن يكون لديك أدلة كافية وإلا سنخسر وظيفتينا من أجل لا شيء.
"وظيفتينا"!!!

ارتسمت السعادة على وجه علي بشدة من هذا التعبير.. لقد نجح.. لقد استماله إلى فكرته.. يبدو أنه أجاد المراوغة هذه المرة...

-ليس لدينا الكثير من المعلومات إلى الآن؛ لذا لن نقوم بأي خطوة أخرى حتى نكون علي يقين.

-إذا كنت تريد أن تتحرى الدقة، فأنا أيضا أحب الدقة؛ لذا وقبل أي شيء يجب أن أعرف من أيضا يشارك في هذا الأمر.. ويستحسن لو تركت لي اختيار من يمكنه مساعدتنا في هذا الأمر.

-أفضل أن يشاركنا صديقي الذي أخبرتك عنه مسبقا.. لقد كان عوننا كبيرا لي في هذا الأمر وأتمنى أن يكمل معنا، هذا أفضل من إحضار شخص جديد وإطلاعه على الأمر من البداية مجددا.

أوما برأسه أن "نعم" ثم قال وهو يحك ذقنه بببطء: هل لي بمعرفة اسمه؟ قد تكون هناك معرفة سابقة بيننا.

ارتبك علي بشدة فقد حذره مؤمن أكثر من مرة أن يخبر أحدا أنه يشارك في هذا الأمر، قد يطرد من عمله لو انتشر أمر كهذا.. هو لا يريد أن تعيش اخته وابنها في الشارع، كما أنه مدين له بالمساعدات التي قدمها له منذ بدء هذا الأمر.. أقل ما يمكنه فعله له هو أن يفني بوعده ولا يخبر أحدا.

رقق من نبرة صوته وحلق في عيني أحمد مباشرة وأخبره أن صديقه يفضل أن يبقى شخصيته سرية.

انتفض أحمد ولم يعجبه هذا الأمر وقال بعصبية: آه فهمت. هو مازال يعتقد أنني مشبه به. ماذا؟ هل يعتقد أنني سأرسل قاتلا مأجورا لأتخلص منه إذا علمت اسمه؟

ابتسم ابتسامة سخرية ثم هز رأسه متعجبا وقال مكملا بكموميديا سوداء: ربما أفعل... لقد صارت الأمور محمومة في هذا الموقف.. يجب أن يجد حلا يرضي جميع الأطراف. سيقطع وعدا..

يعلم أنه لن يقدر أن يفني به.. لكنه أفضل ما يستطيع أن يقدمه.

-بالفعل كان يعتقد أن شريك في الجريمة، لكن الآن سأخبره أنك بريء تماماً، وأعدك أنه سيكون مسروراً جداً من معرفة هذا الخبر.

صديقي لديه معارف كثيرة متأكد أنها ستفيدنا بشدة.. أرجوك لا تبغضه.. فكما قلت منذ قليل: الدقة هي أهم شيء.

راح يلوح برأسه يمينا وشمالا ونظر إلى السماء بشروء ثم قال وعيناه مازالتا مصوبتين نحو السماء:

-أفهم من كلامك أنه هو الذي أخبرك بموضوع قضية الرشوة المتعلق بمحسن!

-نعم بالفعل. وقد كان منذ بالأمس عند محسن الصباغ يحاول أن يستجوبه ويعرف منه ماذا يحدث.

بثق أحمد قليل من الماء كان يشربه وبدأ في الكحة نتيجة دخول بعض الماء إلى قصبته الهوائية.

توقف عن الكحة بعد عدة ثواني كادت أن تزهدق فيها روحه، وشرب قليل من الماء مرة أخرى (وداوني بالتي كانت هي الداء).

نظر إليه علي الذي كان واضعا يده على قلبه من شدة الخوف على صديقه بشفقة وسأله عما إذا كان قد تحسن أو أنه يفضل أن يفعل له أي شيء يساعده به. فكح أحمد بضعة مرات أخرى ثم قال بصوت متقطع: لا بأس لا بأس أنا بخير.

ضيق عينيه في شفقة بالغة وقال محاولاً تهدئة الأوضاع: أنا أعلم أنا وقع هذه الأخبار صادم. لا أخفيك سرا لقد كنت شبه محطاً في الأيام القليلة الماضية. خصوصاً من تعامل بحسن الوقح معي.. لقد أثر بي كثيراً.

هندم ملابسه ولم يلتفت إلى ما قاله علي ثم قال: لقد اتخذت إجراءات كثيرة بالفعل بصدد هذا الأمر.. جعلني هذا أحس أن الأمر جد حقيقي الآن، فكما تعلم.....
- "الي أيده في الماية"

قالها معا في ذات الوقت. إنه نصف مثل شعبي مشهور يجب أحمد استخدامه كثيراً، كان قد تعلمه من والدته وتعلمه منه علي من كثرة ترديده إياه.

معناه أن الشخص لا يشعر بحقيقة الشيء إلا عندما يجربه بنفسه.. وقد جرب أحمد هذا الشعور منذ لحظات..

ضحكاً كما لم يضحك منذ مدة طويلة...

قال أحمد قاطعاً تلك اللحظات المؤثرة: هل استطاع أن يستخلص علي أية معلومات مفيدة منه؟

- لم أقابله حتى الآن. أنا متأكد أنه سيزف إلي أخباراً سعيدة ما أن ينتهي هذا الأمر.

اتكأ أحمد على كرسيه ومدد قدميه أمامه وفرك عينيه وتمطى بشدة..

ثم زفر بعنف وهو يقول: هذه معلومات كثيرة علي المرء ليستوعبها في يوم واحد.

هذا الوغد محسن ومن معه تبا لهم...

ثم بدأ بقول كلمات نابية كثيرة. فأوقفه علي طالبا منه تمالك أعصابه فكل ما يملكونه هو مجرد تنبؤات.

استمر في قول كلمات نابية مرة أخرى. ثم اعتذر متعللا بأن هذه الأخبار قد فاجئته بشدة؛ فقد كان يعتقد أن حادثة سرقة محسن هي أغرب ما قد يحدث في المستشفى لكن "عصابة"!.. هذا فاق كل التوقعات.

أنهى كلامه سريعا ثم رفع سبابته في الهواء بتهذب طالبا من علي أن يعذره حتى يقوم بمكالمة منار ويطمئنها عليه؛ في تقلق إذا لم يحدثها كل فترة.

أشار إليه علي موافقا فنهض من مقعده وبينما هو في يخرج هاتفه من جيبه

أمسك علي يده وقال بجفاء: لا حاجة لأن يعرف أحد -أي أحد- بها حدث بيننا اليوم. لا أريد أن نصبح كبشي فداء. هل هذا مفهوم.

هز رأسه عدة مرات وهو يبتسم مؤيدا هذا الأمر.

-هل ستعود؟

-لا، لا، لا، أعتقد اني سأقدر علي العودة إلى الداخل مجددا، سأعادر. إلي اللقاء أراك غدا.

خرج أحمد من قاعة المناسبات مسرعا.

أما علي فدخل إلى القاعة التي بها الحفل مرة أخرى، تمنى لو غادر هو الآخر لكن لبدا هذا مثيرا للشبهات أن يغادر هو وأحمد مرة واحدة دون سبب مقنع؛ لذا لم يستطع أن يغادر علي الرغم من أنه كان يريد الرحيل مع أحمد.. فقد أراحه الحديث معه جدا حتى تلك الكلمات

النايبة التي قالها أحمد واعترض عليها "علي" شعر أنها قد غسلت قلبه من الداخل وعبرت عما كان يريد... عليه أن يتحرر من قيوده قليلاً.. ربما يصبح أكثر سعادة.

ذهب إلى الطاولة التي كان يجلس فيها قبل أن يخرج، نظر إلى المسرح فلم يجد أي أثر للدكتور حاتم، سأل أصدقائه الجالسين جواره عنه فأخبروه أنه نزل من المسرح منذ قليل بعد أن تلقى اتصالاً هاتفياً وسيعود بعد قليل..



"وتلك جيوش من الوهم، تندفع باتجاه الموت.. فمن أين تأتي؟

أولئك المنبسطون. الخارجون من بقايا الوقت تواجبت ملغومة

لزعزعة المقابر وإرهاب الموتى"

عبد الحميد الصائغ.

خرج من منزله متأثراً كعادته متوجها صوب محطة القطار. وهناك على الرصيف وجد عددا مهولا من الأشخاص يتكدسون فوق بعضهم البعض.

هذا الزحام الشديد ومع موجة الحر القارصة تجعله يتنفس بصعوبة بالغة خاصة وأنه يرتدي هذه البذلة التي تضيق حركته و"الكارفته" التي تحيط عنقه بشدة كأنها حية التفت حول عنق فريستها.

حاول أن يتخطى هذا الجمع من الناس كي يصل إلى مكان قريب من القطار؛ كي يستطيع الدخول والجلوس في مقعد جيد عندما يصل القطار فلا يضطر للوقوف طوال الطريق. رأى القطار يقترب فأسرع الخطى إلى طرف الرصيف وزاحم الناس كأنها معركة محتدمة. وبعد مجهود كبير وعناء شديد استطاع الوصول إلى طرف الرصيف شعر كأنه إنجاز عظيم وتنفس الصعداء.

وفجأة دون سابق إنذار بدأ الناس في التدافع بشدة حتى إن بعض الناس بدأوا يستخدمون أقدامهم لدفع من أمامهم.. وفجأة هوت قدماء عن الرصيف.. ودون أن يدرك وجده نفسه بين قضبان القطار...

حاول النهوض فخافته قدماء.. لا يستطيع تحريكها على الإطلاق كأنها تبيستا وأصبحتا جزء من الأرض. حاول الصراخ ليستنجد بالناس لكن دون جدوى.. هدا الجمع وبدأ الناس يحدقون إليه بأعين باردة.. أعين شاردة فقدت بريقها.

ازداد ضيق نفسه ولا يستطيع التنفس إلا بصعوبة بالغة، حاول مرة أخرى الصراخ طلبا للعون فنتبيس أحياله الصوتية هي الأخرى.. والناس مازالو يحدقون به كأنهم فرحين بما أصابه لأنه تقدمهم ووصل إلى طرف الرصيف قبلهم.

صوت القطار أصبح شديدا يصم الأذان.. ضوء شديد يقترب تجاهه بسرعة جنونية، لماذا ضوء القطار بهذه الشدة؟! لماذا لا يتوقف القطار؟! لماذا؟! لماذا الضوء شديد هكذا؟!

فتح عينيه وشهق شهقة قوية. حاول تحريك قدميه تبعها محاولة تحريك يديه فلم يستطع في كلتا المراتين. حركته مقيدة كليا.

لماذا لا أقدر علي تحريك جسمي؟ هل أنا ميت؟ أم هل هذا هو الجاثوم (شلل النوم)؟! يعرفه جيدا لقد قرأ عنه عدة كتب، وهذا الأمر يشبهه كثيرا. لماذا يبدو كل شيء أسود؟ ما كل هذه العتمة؟

لماذا لا أرى أي شيء؟ أين أنا؟ هل هذا كابوس؟ لكن لو كان كذلك لكنت قد استيقظت الآن؛ فكوابيسي لا تستمر هذه الفترة ولا تكون بهذه الواقعية.

الظلام في كل صوب.. ظلام متجانس مخملي يمكن أن يشعر به بكل جوارحه.. يتسرب إلى روحه فتظلم من الداخل.. كما الخارج.

لقال أنه أصيب بالعمى لولا أنه لو كان كذلك لكان قادرا على تحريك باقي أعضاء جسمه.. كان الوضع برمته غريبا وغير معقولا..

وسط كل هذه التساؤلات كان هناك شيء واحد سيطر على تفكيره في الوقت الحالي ألا وهو: لماذا لا يستطيع التنفس؟! يشعر كأن شيئاً ما يخنقه.. شيئاً ما يطبق على نفسه.. يشعر بحرارة أنفاسه.

التزم الهدوء قدر ما يمكن.. يدرك تماماً أن الصراخ لن يحل مشاكله.. عليه أن يقاوم غريزته في الهلع ويصمد.

لا يستبعد أن يكون قد تم اختطافه ولا شيء بيده لفعله. ثم. وقبل أن يغشى عليه -مرة أخرى- بسبب ضيق التنفس استجمع ما بقي له من قوة ورفس بقدميه ودفع يديه للخارج بعنف.. تحرك جسمه حركة بسيطة.. فأدرك أنه مربوط بقطعة كبيرة من القماش تغطي كامل جسده!

لا يقوى على التنفس.. تسارعت أنفاسه التي بات يشعر بحرارتها تلفح وجهه.. ضاقت به الأرض والسموات. مازال غير قادر على التنفس!

ضم قدميه إلى بطنه ثم دفعهما للخارج في محاولة لتمزيق قطعة القماش؛ فهو يعلم أن عضلات الفخذين من أقوى العضلات في الجسم والتي بالتأكيد ستستطيع تمزيق القماش وتحريره. مازال غير قادر على التنفس!

وبعد عدة ثوان من الحركة المستمرة والدفع - وإصدار بعض الأصوات الغريبة من فمه نتيجة الدفع بقوة - تتحررت قدمه اليمنى.. ثم تبعها اليسرى ثم حرك يده اليمنى بصعوبة من أسفل الجزء المقطوع وثناها للخلف فاستطاع بمجهود جبار أن ينتزع قطعة القماش بالكامل عنه ويلقيها خلفه.

أتاح له أخذ راحته قليلا في التنفس، لكن لا زال يشعر بصعوبة في التنفس.

أنفاس بطيئة شديدة...

حاول النهوض فاصطدم رأسه بما يشبه السقف لكنه كان قريبا بشكل كبير من الأرض..
فعاد إلى وضعه الأول مستلقيا علي ظهره كما كان.

كيف يمكن أن يوجد ظلام بهذه الحلقة؟! هذا ظلام صنع خصيصا له..

لا أذكر كيف أتيت إلي هنا، هل تم تخديري؟.. هل مت؟

رفع يميناه أمامه محاولا النظر إليها فلم يستطع رؤيتها.. حقا!!!!

"ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها"....

كانت هذه الآية هي جل ما يتردد في ذهنه حينها.. ستأتيه الملائكة.. ليس مستعدا بعد.. لا
أحد مستعد لهذا.

لقد هلك....

استسلم لنوبة السعال الشديد التي انتابته، ما فائدة المقاومة إن كان قد حسم كل شيء؟

ظل يسعل ويسعل حتى أحس أنه سيثقل رثتيه في المرة القادمة التي يسعل فيها.

لقد طال الوقت.. طال وقت انهمرت فيه دموعه حتى بللت الأرض التي بها نهايته. ألم
يجدر بتلك الدمعات أن تنهمر قبلا؟ تنهمر خشية من خالقها.. لكان يومه الآن عيد...

بينما هو منهمك في محاولاته اليائسة في استجداء التوبة أحس بوجع في ساقه اليسرى.

هل تحس الأرواح؟ على الأرجح تفعل، لكن هذا كان ألماً عضوياً.. ألماً جسدياً!

تحسس المكان بيده ببطء فوجد أنها حجرة صغيرة جداً.. بالكاد تكفيه هي أشبه بمقبرة! ربما مازلت حياً...

هل تم اختطافي وحسبي في هذه الغرفة؟ فكّر في خوف.

رفع رأسه قليلاً وهو مستلقي - في الغرفة التي كانت بالكاد تسمح له برفع نصف جسده العلوي فقط - فرأى ثقب صغير جداً في جانب الجدار تتلألأ منه قطرات نور، أدرك فوراً أن هذا هو باب الحجرة.. هذا هو مخرجه الوحيد. زالت عنه فكرت أنه مات واستبدلت بفكرة الاختطاف مرة أخرى..

ثنى قدميه إلى بطنه كما فعل من قبل لكن هذه المرة وضع يديه على الجدار الذي خلف رأسه ودفع جسده للأمام حتى لاصقت قدماه منتصف الباب الحجري، وبدأ يدفع الباب بكل ما أتاح له جسده من قوة.. لكن دون جدوى. فكر أن يصرخ لكن سرعان ما أدرك أنه غير ذي فائدة؛ فلا أحد يمكنه سماعه بالإضافة إلى أنه أثر أن يوفر مجهوده لمحاولة الخروج من الغرفة.

طوال هذه الفترة وهو يشعر أن الأكسجين يقل من الغرفة بسرعة كبيرة على الأرجح بسبب أنفاسه المتلاحقة في هلع بالإضافة إلى السبب الرئيسي وهو حجم الغرفة الصغير.

بدأ يشعر بالدوار من قلة الأكسجين.. بدأت يدها ترتعشان وأحس بالأرض تدور من تحته، وعندما بلغ السيل الزبي وطفح كياله من المحاولات الفاشلة أدرك أنه يمتلك محاولة خروج أخيرة قبل أن يغشى عليه.. قرر أنه لا فائدة من الدفع بهذه الطريقة فبدأ يدفع

جسده للخلف قليلا وثني قدميه بقدر ما استطاع وصوبها نحو طرف الباب إلى الجزء الذي ينبعث منه شعاع النور. ثم وبكل ما أوتي من قومه دفع قدميه دفعة واحدة فتحرك طرف الجدار إلى الخارج قليلا، أعطاه هذا دفعة معنوية كبيرة واستطاع أن يستجمع قليل من قواه مرة أخرى ومرة أخرى أنقض بقدمية علي الباب كأفعى "Titanoboa" ضخمة تنقض علي ضفدعة.. ولا إراديا مع هذه الدفعة انسلت من بين شفتيه صرخة قوية.. ليست صرخة خوف ولا هلع غريزي حيواني.. هي صرخة ألم وحزن.. صرخة آخر أمل لرجل يأس.

ولحسن الحظ هذه المرة انكسر جزء من أعلى الجدار الجدار وتسلفت بعض نسيمات الهواء إلى داخل الحجرة، ردت هذه الرياح به الروح وأعطته أملا أكبر للنجاة.. لكن الأوان كان قد فات مسبقا.. فقدماه لم تعودا قادرتين على الحراك مرة أخرى.

أحس قلبه ينبض بسرعة هائلة وأحس السوائل تتحشج داخل رئتيه.. أحس بهذا الخدر المضعف يسري في أوصاله.. أحس روحه تسلب من بين جنباته.. أحس كل شيء.. باستثناء الحياة...

لم يبق أمامه إلا الصراخ طلبا للمساعدة...

صرخ وصرخ بشدة كأن أحد يضغط على قلبه بعنف. كان يصرخ بحرقة قلب كطفل رضيع فقد للتو والدته.. كعجوز تكالبت عليه ذئاب.. كامرأة بين أيدي مغتصبها.. لكن بلا فائدة.

كان الشيء الوحيد الذي يتم اغتصابه هي روحه...

هدأ قليلا محاولا استعادة صحته مرة أخرى، لكن الشق في الجدار كان صغيرا والهواء لم يكن بالكثير.

لو ظل على هذه الحال فسيهلك لا محالة.. عليه أن يقلب الأمور.. حرفيا.

حرك نصف جسده العلوي جهة اليمين ببطء والسفلي عكسه حتى تحرك بزاوية تقارب التسعين درجة، وقف ليُريح مؤخرة ظهره الذي انسلخ جزء من جلدها من شدة الاحتكاك بالأرض وليلتقط أنفاسه، ثم تابع الحركة حتى تحرك مجملا تقريبا مئة وثمانين درجة وصار وجهه مواجه للباب.

لف جسده حتى صار ظهره لأعلى وبطنه لأسفل، وبذلك أصبح وجهه مصوبا ناحية الشق في الجدار مباشرة. أدخل أنفه في هذا الشق بصعوبة شديدة وشهق بكل قوة ثم زفر بذات القوة.

كرر هذه الدورة من الشهيق الشديد والزفير عدة مرات.. أحس بعدها بدوار شديد، بالرغم من أنه طبيب إلا أنه لا يعرف بعد التفسير العلمي لهذه الظاهرة، عندما تنفّس عدة مرات بشدة تشعر بدوار! لم يكن يملك وقتا أو ذهنيا صافيا ليفكر في السبب الذي أصابه بالدوار حينها.. كان يكفيه أنه حي.

ثم بعد أن استعاد جزء من عافيته وزال عنه الدوار عاد يصرخ مرة أخرى بصوت عال مبحوح: النجدة النجدة ساعدوني أرجوكم. لكن كسابقاتها.. دون إجابة.

ضم قبضته وطرق بها علي الجدار طريقة أخيرة ليست محاولة لفتحه لكنها طريقة حزن وألم
ويأس، حزن لأنه لا يعلم كيف وصل إلى هنا.. ألم جسدي وأكثر منه نفسي.. يأس من
الخروج من هذا المكان حيا..

يئن.. يصرخ.. يضرب الجدار.. لا أمل....

انسابات الدموع من عينيه وبدأ يبكي بحرقة.. يبكي بكاء رجل فقد أعز ما يملك
"الأمل".

وبعد بضع لحظات مرت عليه كأنها أعوام سمع صوت حركة أقدام خفيفة، كانت أقدام
رجل ذا صوت أجش، بصوته الجمهوري قال: من هناك؟ أظهر نفسك وإلا أطلقت عليك.

صاح علي بضع مرات أخرى طلبا للمساعدة، لكن كان صوته قد انبح فلم يستطع أن
يصدر صوتا واضحا يفهمه الرجل.. مرت عدة ثواني لم يسمع فيها شيئا، خاف أن يكون
الرجل قد رحل ولم يسمع استغاثته.. لكن -ويا للفرحة- مرة أخرى سمع نفس الصوت
يقول بلهجة ريفية هذه المرة: يا أخي اتق الله. تسرق القبور وتنهش حرمات الأموات!..
والآن تختبئ كالأطفال.

ظل ينش بيديه الفتحة التي صنعها في الجدار بأصابعه حتى أصبحت تتسع لقبضة يده،
كانت تلك أول مرة يدرك فيها حقيقة المكان من حوله.. وكان كما توقع بالفعل "مقابر"
كيثبة.. حزينة.. تغمرها رائحة الموت.

أم كانت تلك رائحته؟!

أخرج قبضته التي سال الدم منها بعدما انكشط جلدها من الجدار وظل يلوح بها غير عابئ بالدم الذي يسيل منها.. بل غير مدرك أن الدم يسيل أصلا، عسى أن يراها الرجل فينقذه.

هدوء شديد إلا من أصوات بعض الغربان تنعق.. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع أن يحس به بشكل واضح.. في الظلام يصير الصوت هو كل ما تملك.

كان قد تعب من التلويح بيده وقد شعر أخيرا أن يده قد خدشتها فتحة الجدار؛ فتوقف عن التلويح، وكان قد أدرك في وقت الهدوء ذاك ملاحظة غريبة.. وهي أنه عارٍ تماما!

سمع صوت الأقدام يقترب مجددا؛ فدفع يده تجاه الحفرة بكل ما أوتي من قوة وبدأ يلوح مرة أخرى. سمع ذاك الصوت مجددا يقول وقد بدت فيه نبرة من الخوف والرعب: لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، أموات تتحرك!! يا مثبت العقل والدين يارب.

وقتها يتقن علي أنه في مقبرة حقيقية. أدرك أنه في غرفة ضيقة مظلمة.. ملفوف بما يشبه الكفن.. نظر حوله خارجا فرأى أنه محاط بمقابر.. ورغم كل ذلك كان ما يزال غير متيقن ما إذا كان في مقبرة أم لا.. حتى سمع جملة الرجل الأخيرة!

هو أشبه ببني إسرائيل فبعدما رفع الله الجبل فوق رؤسهم ورأوا قدرته على أن يُبيدهم.. ما انفكوا يعصونه! كأنهم لم يؤمنوا به وقدرته بعد كل ما رأوا!

هو مثلهم رأى كل شيء وأدرك كل الحقائق.. ثم أنكر أنه في مقبرة!

عرف وأنكر...

لكنه معذور فهو لم يفكر في هذا الأمر بشكل واضح فلم يكن هناك مجال للتفكير لكنه كان يتعامل على أنه مختطف، حتى بعد كل ما رأى ظن أنها خدعة نفسية من خاطفه -الذي لا يدري من هو ولا ما سبب اختطافه له- ليجعله طوعا له.

لكن الآن أدرك تماما أنه دفن حيا...

لا يدري كيف حدث هذا ولا ما إذا كان هذا فعلا متعمدا أم لا.. لكنه متيقن أنه لا خلاص له من هذا المكان إلا أن يساعده هذا الرجل؛ فأدخل يده ثم وضع فمه تجاه الفتحة التي أحدثها وبدأ ينادي على الرجل مستغيثا: أرجوك أخرجني، أرجوك، أنا حي. اقترب منه الرجل حاملا فانوسه الصديء العتيق -على الرغم من أن الليل لم يكن قد خيم بعد- يضئ به تجاه الثقب في الجدار. أخرج علي يده من الثقب مرة أخرى فتلقفتها كفان خشتان جامدتان أبرد من جباه الخاملين.. ظل الرجل يعتصر يده بقوة كأنه يريد أن يتأكد أنه حي فعلا..

كيف عساه يفعل وهو نفسه لا يدري ما إذا كان حيا أم لا..

تأوه علي بشدة فقال الرجل بسرعة وانفعال: تراجع للخلف يا سيد، سأحطم الباب. وما هي إلا بضعة لحظات حتى سمع علي صوت الطرق علي الباب الحجري. وبدأت تتناثر عليه بعض أشلاء الحجارة؛ فتراجع للخلف وأمسك بقطعة القماش -التي تيقن أنها كانت كفنه- ليحتمي بها.

كانت تلك أول مرة يستطيع أن يفكر فيها علي بهدوء -نسبي- منذ فتح عينيه، كان أول ما فكر به هو أنه جالس في مقبرته يحتمي بكفنه.. من ماذا؟ من الموت!!

ياللعجب...

شئ لا يصدق..

لذات السبب كان يكره الأفلام. غير قابلة للتصديق. هاهو الآن يعيش فيلمه الخاص!
وبسرعة أكثر مما كان يتوقع انفتح باب القبر ومد الرجل يده ليساعده على الخروج. مد علي
يميناه للرجل كي يسحبه، ثم تذكر أنه لا يرتدي ملابس علي الإطلاق فسحب كفته بيسراه
كي يستر بها عورته.. في حالته تلك هو كله عورة.

سحبه الرجل المندھش بلطف ولين.. خرج زاحفا على اثناد، ثم بخطوات سلفاء كسحاء
خرج من المقبرة وسار حتى أجلسه الرجل على قطعة من الحجر بجوار المقبرة.

نظرات.. دهشة.. عبرات...

صمت طويل ساد القبور الموحشات.

وكان في الأفق البعيد شمس تغيب.. تلقي بآخر ضوئها على الهواء الكثيب.. الهواء المشبع
بالدخان وبالسواد.. بالصمت بالحزن بالألم الشديد...



"يموت الجبناء مرات عديدة قبل أن يأتي أجلهم.. أما الشجعان يتذوقون
الموت مرة واحدة فقط"

ويليام شكسبير.

بذل مجهودا كبيرا كي يرفع جفنيه الناعسين ويفتح عينيه المنهكتين. رأى أمامه سقف صغير قريب من الأرض، مصنوع من الطوب اللبن به بعض الثقوب مرقعة بأعواد من القش وأشياء أخرى.. وفي منتصف السقف مصباح صغير يشع ضوءاً أصفر يميل إلى الحمار يتبدل منه بواسطة سلك.

حاول النهوض فتألمت كل عظمة وعضلة في جسده.. فرقد مرة أخرى.

سمع ذات الصوت الذي سمعه منذ قليل وهو في المقبرة.. والذي كان قد أدرك أنه الغفير الذي يحرس المقابر، رجل طويل بادن (ضخم البنيان) يبدو في أوائل الخمسينات من العمر وجهه مليء بالتجاعيد ذو أنف أقنى يرتدي قبعة طويلة بنية من الصوف لها طرف علوي مدبب تجعل رأسه تبدو مثل مقدمة صاروخ.. لاحظ علي أنها لم تكن على رأسه وقت أن أخرجه من المقبرة وأنه كان يرتدي عمة بيضاء، لكن هذه المرة كان صوته رقيقاً عذبا سمعه يتلو القرآن بجواره. تأوه علي من شدة الألم فأنهى الرجل قرأته واقترب من رأسه وقال بذات اللهجة الريفية وذات الصوت العذب: أخيراً استيقظت. لقد كنت قلقاً جداً عليك.

حاول علي النهوض مجدداً فمنعه الرجل ووضع كفه على صدره ودفعه برفق إلى الأرض حتى استلقى كما كان، ثم بلهجة أكثر صرامة قال: لا تتعب نفسك. راحتك شيء مهم جداً بعدما مررت به ليلة أمس.

كان يود لو يجيب على الرجل ويشكره لكنه لم يقدر.. فربما قد زال عنه الألم النفسي -قليلًا- لكن الألم الجسدي تضاعف.. ربما كان الألم موجوداً قبلاً لكنه لم يشعر به بسبب حالة الهلع

الهستيرى التي كان يمر بها والتي أدت إلى تدفق كميات هائلة من الأدرينالين مما تسبب بتقليل شعوره بالألم حينها.

تابع الرجل كلامه وقد عادت إلى كلامه النبوة الرقيقة: أنا لم أمر بنصف ما مررت به أنت لكني مازلت أشعر بالرعب منذ ليلة أمس. دعوت الله لك كثيرا أن يخفف عنك.. دعوته أن يرزقك النسيان..

القلوب النقية تفعل أفضل ما بوسعها.. قد يسوق إليك أحدهم مال الدنيا ما أمكنه.. ويهيك آخر دعوة هي كل ما يقدر عليه قد تغير حالك.. المشترك بينهما أن كلاهما لو ملك أكثر لأعطى...

أصحاب القلوب النقية يحبهم الله.. ويرزقهم حب الخلق.. فيحبب فيهم خلقه. حاول علي استجماع قواه وشكر الرجل على بقاءه بجانبه لكنه لم يقدر.. لم تخرج الكلمات من فمه، عبرت قلبه وتوقفت.

فقط استطاع أن يقول في تعجب بضعف: أمس! منذ متى.....

وضع الرجل يده على فمه محاولا منعه من إجهاد نفسه مرة أخرى، ثم بلين قال: أخبرتك من قبل ألا تجهد نفسك. هذه تعليمات الطبيب، وقد أعطاني حقنة مهدئة أخبرني أن أستعملها عند اللزوم إذا أنت لم تلتزم بالتعليمات.

ثم ابتسم وهو يكمل: لا أخفيك سرا أنا لا أعرف كيفية إعطاء الحقنة لشخص، لكن ابنتي طبيبة وتعرف كيف تفعلها؛ لذا لا تجعلني ألجأ لهذا الحل الصعب. حسنا؟
أوماً علي بالموافقة فليس بيده شئ آخر يفعله.

خرج الرجل -الذي عرف فيما بعد أن اسمه سعيد النحاس- من الغرفة ثم بعد بضع دقائق عاد ومعه بعض الأدوية طلب من علي أن يتناولها، ففعل الأخير دون أن يسأل حتى عن ماهيتها.

وجلس عم سعيد بجواره يرتل القرآن كما كان يفعل قبل قليل.

أعاد إليه صوته الراحة التي كان يشعر بها. وأثناء استماعه إلى عم سعيد فكر في شيء ما.. بل عدة أشياء، فكر كيف دُفن حيا؟ ولماذا؟ وكيف استطاع الخروج من هناك بمعجزة! وكيف سيعود إلى أهله وهل سيصدق قصته أحد؟

كانت الدموع تتساقط من عينيه دون أن يشعر حتى.

قاطع حبل أفكاره انتهاء عم سعيد من القراءة:

-صدق الله العظيم. هل أنت جائع الآن؟ قال وهو ينهض من مكانه مستعدا ليحضر الطعام مهما كانت الإجابة.

-لا، شكرا، أريد بعض الماء فقط. قال علي وقد تحسنت حالته قليلا.

عبس في تهكم وقال: أنت تهينني يا رجل. أنت ضيف في منزلي ومن أصول الضيافة أن تأكل من طعامي كي يصبح بيننا "عيش وملح"، يبدو أنك من أهل الحضر حيث لا تهتمون بهذه الأمور. قال جملة الأخيرة وضحك بسخرية.

-ليس الأمر هكذا صدقني، أنا لا أشعر أن شهيتي مفتوحة للطعام الآن.

-عندما ترى الأكل ستفتح شهيتك بالتأكيد، يجب أن تتغذى فما مررت به ليس بالهين.

صمت علي إذ وجد أنه لا فائدة من الحوار فالرجل يبدو أنه قد اتخذ قراره بأن يحضر الأكل قبل أن يسأله حتى .

وسط كل هذه الأمور تأمل علي الغرفة فوجد أنها صغيرة جدا وحقيرة -ليست سخرية من حال الرجل وإنما وصف حقيقي لحال الغرفة-، لا تليق بحياة إنسان بل بالأحرى إنها تشبه المقبرة التي كان فيها لكنها أكبر قليلا وبها مصباح .

أحزنه هذا لكنه في نفس الوقت أراحه قليلا فقد أدرك أنه بعد كل ما حدث له مازال يعد محظوظا.. مازال يتقلب في نعم الله غارقا فيها .

يجعلنا الألم شاكرين لكل شيء في حياتنا.. حتى النفس.. يكون أغلى ما نملك .

قطع تفكيره ثلاث طرقات علي باب الحجرة ثم صوت عم سعيد يستأذنه في الدخول؛ فأذن له علي . دخل الرجل ومعه بعض الملابس المهلهلة منها ما هو كبير جدا والآخر صغير وضيق لكن كلهم مُرقعين .

أدرك علي وقتها لأول مرة أنه مازال عاريا من ليلة أمس وأن كل ما يغطي جسده الآن هو بطانية مهترئة بها من الثقوب ما يكفي لإبراز كل عوراته؛ لهذا السبب كان ينظر الرجل إلى الجانب الآخر من الغرفة أو ينظر مباشرة إلى وجهه .

عرض الرجل عليه الملابس ليستر بها نفسه.. احمر وجهه خجلا من هذا الموقف وقبل علي مضض أن يرتدي الجلباب الذي أحضره الرجل -فهو يكره أن يرتدي ملابس مستعملة- لكنه يكره أكثر أن يجلس دون ملابس! وبالطبع رفض رفضا قاطعا ارتداء الملابس الداخلية التي أحضرها الرجل رغم إصراره على أنه لا يمانع.. لكن علي كان يمانع .

كان علي محرجا جدا من ارتدائها أمامه أدرك الرجل الذي لم يكن متتبها لهذا الموضوع في بادئ الأمر ثم اعتذر وخرج وأغلق الباب خلفه.

وبعد قليل سمع صوت طرقتان علي الباب لكن هذه المرة كانت أكثر رقة فأذن له بالدخول.

دخلت فتاة شابة رقيقة تبدو في أوائل العشرينيات قمحية عيناها بنيتان واسعتان كعيون المها جسمها مشقوق تحمل بيدها صينية مملوءة بالطعام وتضعها بالقرب منه وتطلب منه بلطف أن يتفضل بالأكل فارتسمت على وجنتيها غمازتين رائعتين أكملت جمال اللوحة.

لم يتثنى له أن شكرها إذ وضعت الصينية وانصرفت دون النظر لوجهه حتى . بعدها مباشرة دخل عم سعيد وطلب من علي مرة أخرى أن يأكل كي يستعيد عافيته. كان الطعام كثيرا ومتنوعا أكثر مما كان يتوقع أن يجده بمنزل في هكذا حالة.

-أرجو أن تكون "سنية" قد أحسنت ضيافتك وأعدت لك طعاما تحبه. سنية أفضل امرأة تعد طعاما في البلد لست أقول ذلك لأنها ابنتي لكن هذه حقيقة.

أوما إليه علي مبتسما فابتسم الرجل ابتسامة مجاملة هو الآخر.

-ومع أنها سيدة منزل رائعة إلا أنها ترفض أن تتزوج إلا بعد أن تتم دراستها الجامعية، اللعنة على الإنترنت الذي غيبّ عقول الأولاد.

أحس بقوة مفاجئة تواتيه بعد أن تحدث الرجل عنها أكثر، فقال بحماس مفاجئ: إكمال الدراسة شيء مهم جدا في هذا العصر.

ضحك الرجل ثم قال: هذا الكلام ينطبق عندكم في الحضر، أما هنا فهذه تعتبر سبة أن تتأخر الفتاة في الزواج هكذا، لكنني لا أهتم بما يقوله الناس المهم سعادة الأولاد طالما لا نغضب الرب.. هذه وصية سامية -زوجتي- لي قبل وفاتها.

فرح علي لا إراديا عندما علم أنها غير متزوجة.. حقيقة هو لا يدري ما سبب فرحته فهي فتاة لم يقابلها إلا لبضعة ثواني فحسب حتى إن ملاحظتها عادية ليست فائقة الجمال من النوع الذي يخطف الأنفاس.

قرب الصينية عم سعيد منه ودعاه أن يأكل مرة أخرى، كان ملحاً جداً في هذا الموضوع إلحاحاً جعل علي متضايقاً.. لكنه كان متفهماً أن الرجل يود إكرامه؛ لذلك كلف نفسه فوق طاقتها واشترى كل هذا الطعام، فلم يرد أن يشق عليه فأكل قليلاً وتوقف متعللاً بأنه سيأكل في وقت لاحق حينما تنفتح شهيته فاقتنع عم سعيد أخيراً وتركه وشأنه. بعدما انتهى تناول طعامه أحضر له الرجل دلو من الماء وصابون كي يغسل يده، كان شديد الحرص على أن يوفر له كافة وسائل الراحة حتى مع ضعف إمكانياته.

نادى عم سعيد علي سنية مرة أخرى كي تعد الشاي فقال له علي: أرجوك يا سيدي أنا لا أريد أن أشق عليكم أنا فقط أريد أن أعرف ماذا حدث ليلة أمس.

- سأشرح لك كل شيء لكن أولاً نشرب الشاي كي نبطئ مزاجنا. هل تحب الشاي؟ أم أنك من الأشخاص الذين يشربون مشروبات يعجز عقلي عن إدراك كيفية نطق اسمائها.

ضحك عم سعيد فطلت من خلف شفثيه أسنان صفراء بلون الذهب من كثرة شرب الشاي وقلة الاهتمام بالنظافة.

أحضرت سنية الشاي وفي هذه المرة رفعت عينيها لتنظر إليه نظرة خاطفة، بالرغم من أنها لم تظهر أية مشاعر إلا أنه أحس أنها تود أن تقول: من هذا الغريب الذي جاء ليغير حياتنا هكذا ويجعلني أخدمه؟ ولماذا يثق والدي به فلربما كان لصا!

في الأغلب كل هذا حدث في مخيلته فقط لأنه كان بالفعل يشعر أنه ضيف ثقيل وأن الرجل يحمل نفسه فوق طاقتها.. أما هي فكانت مهذبة ورقيقة ولا يُتوقع منها أن تكون بهذه الفظاظة.

خرجت مسرعة دون أن تنبس ببنت شفة وأغلقت الباب خلفها. وبينما هما يشربان الشاي سمع علي صوت أطفال بالخارج فسأل علي عما إذا كان عم سعيد يعرف سبب صوت الأولاد هذا فأخبره بإحراج: إنهم أولادي يلعبون بالرغم من أنني أكدت عليهم مرارا أن يصمتوا كي يدعوك ترتاح.

وأخبره أيضا أن له ثمان أبناء خمس بنات وثلاثة أولاد. كان الرجل يحكي وعلي صامت.. منتبه لكنه صامت فأكمل الرجل سرد بقية قصته. منذ وفاة زوجته مرورا بدخول ابنته كلية الطب وعمله مؤخرا كغفير كي يستطيع الإنفاق عليهم.

يعلم أن الرجل ما قال هذا الكلام إلا لينسيه ما مره به ليس أكثر ومع ذلك جعله هذا الكلام يشعر بالحرج أكثر وأنه ضيف ثقيل؛ لذا أسرع بالسؤال كي يستجمع معلومات أكثر عما حدث له في الفترة الأخيرة ويرحل بسرعة.

- نحن يوم الأربعاء العاشر من أبريل لعام ألفين وتسعة عشر ميلاديا.

صمت علي ولم يبد أية ملامح كأنه يحاول تذكر متى آخر تاريخ يتذكره.

- هل تتذكر آخر ماحدث لك يا سيد؟ هل تتذكر اسمك أو من تكون؟

- اسمي علي رشاد وأنا طبيب أمراض باطنة بإحدى أكبر المستشفيات الخاصة مستشفى "الأمل".

- آه نعم بالطبع إنها واحدة من أكبر المستشفيات في مصر. هل تذكر ماذا حدث قبل أن.....

- تركيزي مشوش جدا الآن، آخر ما أتذكره هو أنني كنت أرثدي ملابسني وأستعد للذهاب للعمل. أذكر أنني كنت في حفل تبرع لإحدى المنظمات الخيرية في اليوم السابق لآخر شيء أتذكره وعلى الأرجح ذاك الحفل كان في السابع من أبريل، أي قبل يومين من الآن.

هز رأسه مفكرا: إذا لابد أن مكروها وقع لك أمس، وقد تم إعلان وفاتك ودفنك في نفس اليوم.

أطبق على صرخة قوية حاولت أن تنفث من بين شفثتي وسكت محاولا كبج جهاح ألمه لكن -رغم محاولاته المضنية- بدا عليه أنه يتألم بشدة، حاول عم سعيد التهذئة من روعه بكلمات تشجيعية ثم أخبره أنه سيذهب ليحضر له حقنة المهدئ التي وصفها له الطبيب فتمالك علي نفسه وأخبره أنه لا داعي لها فقد تحسنت حالته.

لم يكد يكمل جملته حتى وافته نوبة شديدة من ضيق التنفس مرة أخرى..

كما يقولون: "المصائب لا تأتي فرادى" .. فأسرع عم سعيد يفتح الشباك علي مصراعيه وطفق يغادر الغرفة كي يحضر المهدئ لكن علي رفض بشدة وأصر علي رفضه، وأخبره أنه معتاد علي أن تواتيه نوبات كتلك.

كانت تلك كذبة بيضاء كما يجب أن يسميها.. كان من الواضح أن الرجل لم يكن قد اشترى الحقنة أصلا ليس لشح في نفسه لكن ببساطة لعدم قدرته علي تحمل تكاليف شرائها إضافة إلى تحمله تكاليف الطبيب الذي وصفها.

وبالفعل عاد الرجل بعد أن وطأت قدمه خارج الغرفة وعاد -ونظرات شفهة تحوم في عينيه- يراقب علي في صمت وهو يحاول جاهدا التنفس.

أسعد علي هذا كثيرا.. أسعده أنه لم يشق علي الرجل فلو كان يملك الحقنة بالفعل ما أثنته بضع كلمات من مريض يتألم عن أن يحضرها ويخفف ألمه عنه.. آذاه الألم لكن فرحته البسيطة بتخفيفه عن مضيفه شغلت باله عنه..

بعد عدة ثوان عاد إلي طبيعته...

لكنه ظل يشعر أنه كلما مكث في هذا المكان أكثر كلما ساءت حالته؛ فهو يذكره بما حل به ليلة أمس.. يذكره بهذا الأمر برمته. الحل الوحيد هو معرفة ما حدث كي يرضي فضوله ومعرفة كيفية العودة إلي حياته الطبيعية بسرعة مرة أخرى؛ لذا باشر الحديث بعدما هدأت عنه النوبة: ما الذي حدث بعدما أخرجتني ليلة أمس؟ فأنا لا أذكر أي شيء عدا أنك أجلسني علي قطعة حجر.

تمت ببضع آيات من القرآن مع بعض الاستعاذة من الشيطان ثم أجاب بهدوء بعد تنهيدة طويلة: لقد وقعت مغشيا عليك فحملتك على كتفي حتى خرجت إلي الطريق فوجدت صديقاً لي ماراً بسيارته - لم تكن سيارة وإنما عربة يجرها حمار - فطلبت منه أن يوصلنا إلي منزلي ثم اتصلت بطبيب كي يشخص حالتك. وعندما أخبرته عن كيف وجدتتك والحالة التي كنت بها عرض علي أن أُنقلك إلى المستشفى لكنني فضلت أن أبقيك هنا وأعتني بك فليس يديهم شيء ليفعلوه أفضل مما سأفعله.

لم يكن من الصعب عليه أن يستشف السبب الحقيقي لرفضه إدخاله المستشفى..

- سيدي إن الذي فعلته معي هو معروف لن أنساه طوال حياتي. وأرجو أن يوفقني الله وأرجع سالماً إلى داري وأعدك أنني سأعوضك عن المال دفعته من أجل رعايتي أضعافاً مضاعفة.

امتعض وجه الرجل وقال معنفاً إياه لكن بليونة: إياك أن تقول مثل هذا الكلام مجدداً، فأنا أفعل ذلك لوجه الله. هل تريد أن يضيع مني الثواب؟! ثم أي مال ذاك الذي تتحدث عنه! وضعي المادي جيد والحمد لله "مستور" ولدي وظيفة ولي منزل وأولاد أعاني الله لأتحمل نفقاتهم جميعاً. الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تفعله لترد بيه الدين هو أن تستعيد عافيتك.

أحس علي بالخجل من هذا كرم هذا الرجل.. هذا هو الإيثار الحق.. لم يدرك ما يقول ولا كيف يرد علي هذه الأفعال الطيبة والكلام الجميل.

- في المكان الذي وجدتك فيه أمس (لم يقل مقبرة حتى لا يؤذي مشاعره) كان هناك شاهد مكتوب عليه أن هذا المكان مخصص لعائلة "سالم"، هل أنت حقا من عائلة سالم من قرية "شفحيط" هنا؟

وقتها استنبط علي - وكانت أول مرة يلاحظ فيها هذا الأمر - من كلام الرجل أنهم دفنوه في مقابر عائلة والده بجوار والده.

والده!.. لقد رأى والده.. يكاد يقسم أنه رأى حقيقة لقد أحس به.. لقد شعر بالدماء تسري في عروقه.. أحس حرارة كفيه على جبينه، كيف يكون هذا غير حقيقي؟ رأى على هيئته التي كان عليها منذ أكثر من عشرين عاما.. رأى يطفو! ليس هذا منطقيا، لكن ما هو المنطقي في كل ما حدث له؟ ما هو المنطقي في كل هذا العالم؟ لقد أحس أن أحلامه حقيقية تماما كهذا العالم فلماذا لا يكون هذا هو الحلم؟!

لم يكن حلما.. كانت مناجاة أو كانت "النيرافانا"...

كادت تفر من عينه عبّرة إلا أنه تمالك نفسه وقال بثبات واهن:

-نعم، جدي مؤنس سالم. هل تعرفه؟

-بالطبع أعرفه لقد كان من أعز أصدقاء والدي -عليهم رحمة الله- لكن جدك انتقل إلى المدينة عندما كان في الثلاثينيات من عمره وتقريبا أنقطعت معظم أوصال الود منذ ذلك الحين. أعتقد أن عمك تزوجت من أحد أبناء البلد وهي تسكن فيها الآن.

- نعم هي بالفعل تسكن هنا، لكنها وحيدة وطاعنة في السن لن تتحمل رؤيتي عائدا من الموت. توقف قليلا يفكر ثم تابع كلامه في تردد: آه، أنا مشوش جدا الآن. لا أعلم حتى كيف سأقابل أهلي وأصدقائي، وهل سيصدقون قصتي؟ يدور ببالي ألف سؤال الآن.
- يمكنك الجلوس هنا قدر ما شئت، يمكنك أن ترتاح الآن وتفكر في هذه الأمور لاحقا.
- شكرا لك علي كل ما قدمته لي حتى الآن يا عم سعيد، لكن غدا سأتصل بنسيبي كي يُقلني إلي المنزل.
- هاااا إذا كانت تلك رغبتك فلا مانع عندي، وإذا أردت أن أستأجر لك سيارة أجرة تعود بها إلي المنزل فلا مانع عندي أيضا، وسأذهب معك وأحرص أن تعود سالما.
- هز رأسه رافضا عرضه السخي وأمطره بعبارات شكر كثيرة، كان كلامه غير متناسق مع بعضه البعض لكنه متيقن أنه قد أوصل الفكرة.
- قام علي من مكانه فقام الرجل أيضا ظنا منه أن علي يريد أن يخرج من الغرفة أو ما شابه فأخبره أنه سيقف أمام الشباك.. فهو يشتاق لرؤية منظر النباتات الجميل الذي لم يره منذ آخر مرة كان فيها في البلد مع والده.
- والده! تذكر الآن.. لقد رأى والده مرة أخرى في موقف آخر!
- هطلت من عينيه دمعة وحيدة هذه المرة لم يرد أن يمنعها.. ولو أراد ما استطاع...



ووعدتني بأن صدرك منزلي

إذا الليالي السوداء أغلقن القللك

ها هُن سود مُقفراتُ جئن لي!

أين الوعود وأين عني منزلك؟



خرج مؤمن من غرفة الضيوف التي كان نائما فيها مبكرا، وعلى غير المتوقع وجد عطيات ومشيرة تجلسان في الصالة على حالهما مذ تركهما مساء اليوم السابق، وقد انتفخت أعينهما من كثرة البكاء وبدا عليهما الانكسار والإرهاق الشديد.. على عكسه!

ألقى السلام بسرعة فمسحت مشيرة دموعها وردت عليه تحيته أما عطيات فلم تنطق أو تتحرك، إنها ساكنة علي هذا الوضع منذ أن علمت بها حدث بالأمس أو بالأحرى منذ أن استفاقت من الغيبوبة التي أصابتها فور سماعها الخبر. لم يدخل أو يخرج شيئا من جوفها منذ استفاقت.

على العكس كانت مشيرة.. أصابتها حالة من الهياج العصبي الشديد فقد كانت تصرخ صرخات تكاد الواحدة منها تهد جدران البيت.. بل إنها بالفعل مزقت هدمت جدران قلبه.. يدرك تماما أنه مهما كانت نهاية الأمور فإن ما رآه سيخلد في ذاكرته.. سوف يحرص بكل ما أوتي من قوة ألا يتكرر هذا الأمر، كانت تحطم الأشياء.. وتتهم نفسها بأنها السبب بكل ما حصل معللة ذلك بأنها لو كانت اهتمت به أكثر كان من الممكن أن تعرف أنه مريض ولما حدث ما حدث!

لم تكونا في حالة تسمح لهما بالتحرك من مكانيهما فعرض عليهما أن يجهز الفطور لكن كحال جملة الأولى لم ترد عطيات واكتفت مشيرة بجملته مقتضبة نفت فيها رغبتها في الطعام.

-أنتما علي هذه الحال منذ أمس. يجب أن تأكلا شيئا كي تستطيعا المقاومة.

-ليس الآن. بصوت مبحوح من كثرة الصراخ قالت مشيرة، ثم تابعت: ماذا كانت تلك الضجة التي سمعناها في غرفتك منذ قليل؟

ارتبك ثم قال بحيرة وحزن مصطنع: لقد وردتني أخبار غير جيدة.

لم تعبأ بكلامه وأفادت من ذهولها ونظرت إليه وإلى ملابسه وقالت: لماذا ترتدي ملابس الخروج في هذا الوقت الباكر! هل أنت ذاهب لمكان ما؟

عض مؤمن على شفثيه محاولا تقلد وجه حزين وبصوت خفيض حاول جعله حزينا فخرج غريبا غير محدد المشاعر قال: نعم، للأسف فقد وردتني مهمة ضرورية ويجب أن أذهب لتأديتها، حقا لقد حاولت الاعتذار عنها لكنني لم أستطع. أنا أسف.

نهضت وقد زال عنها الإرهاق بمعجزة وقالت بعصية: ألم تخبرني أنك قد حصلت علي إجازة! ثم من هذا الأحمق الذي يستدعي شخصا فقد نسيه إلى العمل؟! ما هذا الجنون؟ هدأ عنها الغضب قليلا وقالت بذات الصوت المبحوح: أرجوك لاتذهب ابق معنا نحن بحاجة إليك.

وتساقطت بضع دمعات من عينيها كانت كفيلة لتجعله يجلس راکعا تحت قدميها. ليته كان يستطيع أن يفعل.. لكنه مصمما جدا علي الذهاب فيما قد قرره من قبل، ومن خبرتها في حياتها معه تعلم جيدا أنه لو قرر أمرا سيفعله.. لن يؤخر أو يقدم كلامها شيء، ما كان مفاجئا لها هو أنه حتى في موقف كهذا سينفذ قراراته!

عاد يرتدي قناع الحزن مجددا: ليتني أستطيع. لكن لا تقلقي سأؤمن عليكم من حين لآخر، لن أترككمما وحدكما.

وقفت مشيرة مذهولة وقد جفت دموعها وتبدل حزنها إلى غضب مجددا وكان يخشى عليها من بداية نوبة عصبية مرة أخرى لكنها لم تكثرث وقالت: "من حين لآخر!" كم المدة التي ستقضيتها في هذه "المهمة"؟

لاحظ مؤمن نبرة الغضب في صوتها؛ فتصنع المزيد من الحزن كي يقنعها ثم دمدم قائلا برفق: صدقيني يا عزيزتي لا أعلم المدة بالتحديد. على الأرجح لن تزيد علي ثلاثة أيام. جُن جنونها وفقدت صوابها.. بدأت بتوبيخه وسب رئيسه في العمل لأنه استدعاه في وقت عصب كهذا.. بدأت تسب وتلعن كل شيء.. تلعن اليوم الذي رأت فيه تلعن حياتها تلعن وجوده معها. هكذا هن.. مع أول قرار لا يناسب مزاجها تلقي بكل ما فعلت في أقرب مكب نفايات.. ليس كل ما فعلت بالطبط بل كل الخير والمعروف الذي فعلت أما الأخطاء التي ارتكبتها تصبح هي كل حياتك.. بالطبع ستكون أنت من قتل شغفها في الحياة وأرق نومها وأنعس حياتها الوردية الجميلة.. ستكون أنت مصدر البؤس ولا يأتي منك خير.. ولا مانع أن تكون أنت سبب قيام الحرب العالمية الأولى وذوبان جليد القطبين. لكن لا بأس أنت تعرف كلمة السر، لا تنس علبة الشوكولا والورد وأنت في الطريق إلى المنزل. لا ينطبق هذا القول على هذا الموقف تحديدا..

لكنه سيجلب لها ما هو أفضل من هذا بكثير.. بكثير جدا، فليتحمل قليلا. كل هذا كان متوقعا منها، أما الذي استرعى اهتمامه واستغرابه وحزنه معا هو رد فعل حماته!

تغير وجهها الحزين إلى وجه جامد لا مشاعر فيه، وجه أنثي مفترس لن تتهاون في الفتك به وبدأت تصبح صابة جم غضبها عليه: ماذا تعني بقولك هذا؟ ألن نُقلنا إلى "صحفيّات" اليوم لنزور قبر نسيك! ماهذه الحقارة والندالة التي فيك؟ أليست لديك مشاعر؟ كل ماتهتم به هو العمل فقط! يالك من خسيس رعديد.

لم يكن معتادا علي أن تحدثه عطيات هكذا لكنه مقدر الموقف ويعلم أنه امرأة ثكلى لا عتاب علي ما تقول. "خسيس ورعديد"! من الجيد أنها من الجيل القديم في السباب ولم تسمع بها وصل إليه العلم في فن السباب المصري الحديث، لكان قد تلقى منها كلمات طعنته في شرفه وشرف عائلته.

لم يستطع أن يرد أو يبرر موقفه فهو يعلم أن أي كلمة سيقولها ستحسب ضده، باستثناء الشيء الوحيد الذي سيحل هذا الموقف لكنه يعلم أنها لن تقدرا على تحمله؛ لذا أثر الصمت، أثر أن يتخذ الوضع الدفاعي هذه المرة، هو يمشي بمبدأ لم يجيب أمله فيه أبدا: "إذا أردت أن تعيش سعيدا فاسمع كلام والدتك وزوجتك وحمايك، ولا مانع من اتخاذ موقف دفاعي أمام أي منهم إذا استطعت إليه سبيلا" حكمة شاقة لكنها ناجحة.

ظل يحرق بها في شفقة إذ كيف تتحمل هول صدمة ما يعرفه وهو ذا الشاب القوي الأعصاب القوية ولم يتحمل الخبر. إنه لم يصدق ما سمعه على الإطلاق حتى إنه بدء يسب المتصل معتقدا أنها مزحة من نوع ما.

لم يكذب يصدق أذنيه عندما أقسم له علي أنه هو حقا وأنه حي.

كاد يطير فرحا وياشر بإخبار مشيرة إلانه أنه أدرك أن لا هي ولا والدتها ستتحملان مفاجأة كهذه وربما تصبها صدمة لا ينجوان منها؛ لذا قرر تأجيل إخبارهما بالحقيقة حتى يجد حلا يجعلها يتقبلان.. عودته من الموت!

خرج مؤمن في هدوء من باب البيت الذي يغلي. لكن ريشما خرج من الباب صار ينزل الدرج يهرول كالمجنون، يريد أن يلقاه يريد أن يتأكد أن ما سمعه حقيقة وليست مجرد أوهام.

ساذجة مشيرة، تعتقد أن الضجة بغرفته لأنه سمع خبر وجود مهمة خطيرة يجب أن يؤديها، لا تعلم أنه طار من الفرحة وضرب الجدار بقبضته من شدة الفرحة عندما سمع الخبر.

ركب سيارته الـ "Hyundai Verna 2013" وانطلق بأقصى سرعة.

كان علي متلهفا جدا لهذا اللقاء هو الآخر.. فلو كان مؤمن قد فقد فردا من عائلته فإن علي قد فقد عائلته كلها.. وفي الحياة تأتي العائلة قبل كل شيء.

لم يكن يمتلك الكثير من المتاع الذي يستلزم منه أن يحزمه كي يأخذه معه بالأحرى لم يكن معه أية متاع أصلا سوى الجلباب الذي اعطاه إياه عم سعيد ورفض استرداده منه بالرغم من إصرار علي أن يعيده فهو لن يكون بحاجة إليه مرة أخرى فقد طلب من مؤمن أن يحضر له بعض الملابس.

كان عم سعيد يعتقد أن علي يريد إرجاعه له خشية أن يكون قد أثقل عليه الحمل أو ماشابه لكنه لم يكن مدركا أن علي لم يكن يريد أن يأخذه لأنه لا يريد أي شيء يذكره بها

حدث هذه الفترة الأخيرة.. ففي الفترة التي قضاها علي في هذا المنزل قد قرر أنه لا يريد تذكر أي شيء متعلق بهذه الفترة من حياته.. سيتجاهلها تماما كأن لم تكن.. لم يكن هذا من طباعه في العادة لكن هذه الحادثة غيرت في تفكيره الكثير والكثير.

سمع صوت طرقات على الباب فأذن لمن بالخارج بالدخول فوجد عم سعيد يدخل ومعه الإفطار علي صينية مستديرة خشبية صغيرة مليئة بالتشقيقات يحمل عليها عدة أصناف من الطعام مثل الفول والبيض والزبادي...

- أرجو أن تكون قد حظيت بليلة هادئة يا سيد علي.

- كانت الأمور جيدة. لم أنل قسطا كافيا من النوم لكن هذا ليس بسبب تقصير منكم - لا سمح الله - لكنني غير معتاد علي النوم خارج منزلي.

لا يستطيع النوم إلا بعتمة غرفته.. قد يوجد عتمة بمكان آخر لكنه ليس ظلالمه الخاص. ألم تكفه الظلمات التي رآها!

ستتغير أشياء كثيرة بعد هذا.. لن يجب العتمة مرة أخرى.. لن يجب الأماكن الضيقة، من حسن حظه أنه لم يكن مصابا بالـ "كلوستروفوبيا" (رهاب الأماكن الضيقة).. أما الآن فهو بكل تأكيد أصيب به.

مد يده إلي الطعام وأكل بشراهة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها بالجوع منذ يومين، لا يدرى السبب الحقيقي وراء هذا الجوع المفاجئ، هل لأنه سيعود إلي منزله اليوم؟ أم هو بسبب نقص الطعام الذي كان يأكله علي مدار اليومين الماضيين؟ لكن ماهو

متأكد منه حقا هو أن الطعام لذيذ جدا، لا يذكر أنه أكل قبل طعاما بهذه اللذة.. على الأقل في هذا العالم!

بصوت غير واضح بسبب الطعام المتراكم في فمه شكر الرجل على حسن الاستضافة مرة أخرى. لا يعرف ماذا يفعل في تلك المواقف.. أراد فقط أن يكسر الصمت..

كان وجهه يبدو أكثر راحة عما رآه يوم أمس، قد زالت الهالات السوداء أسفل عينيه.. ربما كان وجهه شاحبا بسبب ما رآه مع علي لكن هذا لا ينفي انه كان مرهقا حتى قبل أن يحدث ما حدث. لقد تغيب عن العمل اليوم ويبدو أنه نال قسطا جيدا من النوم كان بحاجة إليه منذ زمن.

هناك جانب مشرق لكل شيء.. عليك فقط أن تعرف أين ومتى تنظر. هناك دائما نصف مملوء قد لا تراه لشدة نقائه وشفافيته لكن يظل هناك حتى لو لم يدركه عقلك. من المؤكد أن النصف الفارغ أنقى من النصف المלא..

أين سمع هذه الجملة من قبل!!؟

-العفو يا بني. أنا جِد سعيد أنك راض عن الضيافة. هذا كله شيء بسيط وهو أقل ما أستطيع أن أقدمه لضيف عزيز مثلك.

-كل هذ شيء بسيط! لا تكن متواضعا يا عم سعيد، يكفي فقط قدومك لإخراجي من "المقبرة" أي شخص آخر كان ليفر هاربا وكنت لأموت اختناقا هناك بالداخل.

ارتعدت فرائصه وأحس برعشة في جسده بعد ذكره لفظ "المقبرة" مباشرة..

هذا ألم لن يزول بسهولة...

- لا أستطيع التفاخر بهذا، إنه شيء بسيط حقاً.

- رؤية شخص يخرج من مقبرة أمر بسيط!

- ليست هذه هي الحالة الأولى التي يحدث فيها أمر مشابه.

اتسعت حدقتا علي وتسمرت مقلتا محذقتين في عم سعيد باندهاش وتوقف عن الأكل فجأة ثم قال بهدوء وهو يشير بسبابته لأسفل عدة مرات: أعد علي ما قلت رجاء.

- نعم، لا تتعجب هكذا فهناك العديد من الأشخاص حدث معهم موقف مشابه لما حدث معك، لكن للأمانة أنت أول شخص يخرج حي من.....

عقب علي: من المقبرة يا عم سعيد. قلها لا تخف.

- أعذرنى يا بني لم أكن أقصد أن أذكرك بها حدث.

أشار بسبابته مرة أخرى طالبا منه أن يكمل ما كان يقوله قبل أن يقاطعه.

- كما كنت أقول. هناك العديد من الأشخاص يدفنون أحياء، لكن لم ينجو أحد منهم ليحكى قصته - على الأقل على قدر علمي -.

- إذا لم ينجو كيف عرفت أنهم دفنوا أحياء في الأساس!

انتفض عم سعيد وسرت قشعريرة في جسده الضخم حتى أن علي لاحظ أن شعر يده قد وقف!

- عندما كنا نفتح بعض القبور لندفن بها أشخاص جدد كنا نجد علي الباب من الداخل علامات تشبه خريشات الأصابع ونجد أن مكان الجثة القديمة مختلف عن المكان الذي كانت قد وضعت فيه.

أرجع علي رأسه للخلف وهزها إيماءً بالفهم، كان يفهم الكلام لكنه لا يستوعب أن يكون هذا حقيقيا! لم يرها حتى في أفلام الرعب، ولو رآها لما صدق...

لم يتثنى له التعقيب على هذا الكلام إذ سمعا صوت بوق سيارة قادمة، يعرف علي تمام المعرفة أن هذا صوت سيارة مؤمن.. صوت خلاصه.

عناق حار طويل بينهما بعدما انقض "علي" عليه بسرعة كأم لاقت وحيدها بعد فراق طويل وتتم علي بكلمات غير مفهومة يظهر من تعابير وجهه أنها تدل علي الفرحه.

أمسك مؤمن كتفيه وهزها غير مصدق أنه حقيقي.. بعدها اطمئن علي صحته وأحواله دون أن يتطرق إلي أي سؤال يبدأ ب(كيف أو لماذا).

كانت عينا مؤمن متورمتين ووجه مصفر والأرهاق بادٍ عليه ربما أكثر مما كان يبدو علي نفسه وكان يبدو أنه يجاهد نفسه كي يبدو متماسكا وبحالة جيدة.

همّ علي أن يركب السيارة معه وينصرف لكنه تذكر أنه لم يودع عم سعيد وأسرته بشكل لائق، فنظر خلفه صوب الباب فوجد عم سعيد وثلاثة من أولاده يقفون ينظرون إلى هذا المشهد الدرامي في تأثر شديد.

سلم عليهم جميعا وخص عم سعيد بالشكر... لكنه كان يشعر أن شيئا ما ينقصه. غادر وفي نفسه شيء من الحسرة فقد كان يرجو لقاء "سنية" مرة أخرى قبل مغادرته وعلي الأرجح كانت هي السبب الذي جعله يعود إلى عم سعيد ليودعه عله يلقاها مرة أخرى. لم يكن هذا هو سبب حزنه الوحيد، فبينما كان عائدا ليسلم على عم سعيد وأولاده رأى منزلهم من الخارج لأول مرة.. وأدرك أنه منزل صغير جدا تكاد الغرفة التي كان يجلس فيها تمثل نصف حجم البيت كله!

لابد أن هذه هي الغرفة التي كان ينام فيها أبناء عم سعيد الثانية قبل مجيئه. أدرك كم كان ضيفا ثقيلا عليهم وعرف فائدة الحكمة التي كانت تعلمه والدته إياها في صغره وهي "أن لا يأكل الإنسان طعاما في منزل شخص له أولاد فلربما قد حرم أولاده من الطعام ليعطي له".

هي دائما على حق...

ركبا السيارة وهما يتبادلان النظرات لبرهة من الزمن. ثم انطلق مؤمن بالسيارة. كانت هذه النظرات تعبر عن حال كل منهم فعلي كان ينظر نظرة فيها شيء من الحنين الاشتياق إلى رؤية أقاربه أما مؤمن فنظرته كانت مليئة بسعادة مشوبة بحيرة وتوهان. عندما سمعت صوت "علي" على الهاتف لم يصدق ما يحدث لكنه أقنع نفسه أنه سيصدق حينما يراه رؤيا العين وهاهو يراه الآن ماثلا أمامه ومازال غير مصدق لما يحدث.. ما زال يعتقد أنه في حلم وسيستيقظ منه. لكن كان ثمة شيئا مشتركين في نظرتيهما هما الفرحة.. والإجهاذ.

مرت بضغ لحظات سادها صمت مطبق؛ فكلاهما غير مصدق لما حدث ولو صدق لما وجد كلاما يصف شعوره. كان مؤمن يعتقد أنه لن يكف عن الحديث مع علي عندما يراه أما وهو جالس إلى جواره فقد تيسست شفتاه.. لا يجد ما يقول.

بعد مجهود مضني محاولا التفكير في شئ مناسب ليقوله وما أن فتح فمه ليتكلم قال علي: أخبرني عن أمي ومشيرة كيف حالها؟

كانت شفتاه ترتجف والدمع يجري عليها والكلمات تقف وتسقط ثم تحاول النهوض من جديد.. لم يكن من شئ يدعو إلى الحزن في هذا الموقف لكن يبدو أن الحزن داخل قلبه.. قد اتخذ صدره مأوى له فأصبح أي شئ يشعره بالحزن حتى الصمت.. خصوصا الصمت.

لم يكن لديه وقت كثير ليفكر فيما سيقول كما كان يفعل منذ قليل، عليه أن يرتجل، عليه أن يكذب:

-إنهما بخير حال يا علي لا تقلق فقد تلقت والدتك خبر وفاتك بجأش رابط وحنان ثابت، يبدو أن صبرا إلهيا قد حل بها. مرت بالكثير من المآسي خلال حياتها، قدرها أن تتألم، أن تتوجع وتكظم غيظها.. لكنها تخرج من تحت الركام والأنقاض لتعود للحياة أقوى من قبل، يمكنك القول دوماً أنها لا تعرف الهزيمة والانكسار.

أما مشير فقد كانت ومازالت حزينة لكنها تتألم نفسها بكل ما أوتيت من قوة.

ظل يحذر إلي مؤمن في عدم تصديق ولم يعقب. بالطبع هو لم يصدق هذا الهراء عن أن والدته في حال جيدة، لكنه أراد أن يصدق.

لم يرد أن يعلم الحقيقة فهو يعلم أن معرفته بحالتها ستؤذيه أكثر؛ لذا أقنع نفسه أن ما قاله مؤمن صحيح ولم يسأله مرة أخرى فقد اكتفى بهذه الإجابة.

ثلاث صرخات متعاقبات هزت أرجاء المستشفى، عقبها صوت ارتطام قوي بالأرض. كانت أم ثكلى لم تستطع كتم صرختها كفيلاً بفعل كل هذا بمفردها. يكاد يجزم أنه رأى الممرضات - وحتى الأطباء - يتنفضون فزعا من هول تلك الصرخات. لربما اعتادوا منظر الدم ومنظر الجثث وأكثر من ذلك.. لكن منظر أم ثكلى كتلك لا أحد يعتاده...

لم تكن مشيرة بحال أفضل من والدتها التي انهارت مغشيا عليها، ودت لو قُتل الجميع وبقي هو. وهي التي عاشت حياتها تنتقد "الجهلاء" الذين يهاجمون الأطباء عند وفاة أحد أقاربهم ودت الآن لو تحرقهم ومعهم كل شيء.. كل شيء...

في أحد أركان الغرفة طبيب يجلس منزويا يبكي بحرقة وألم، كان يبكي ويئن، كان أحمد... دكتور حاتم يقف بهيئة مسرفة في الصرامة يرسل أحر تعازيه لعائلته المتواجدة في المستشفى، لم يبد حزينا لكنه بكل تأكيد لم يبد سعيدا.

ثلاث ساعات مضت وهي مازالت لم تفق من غيبوبتها، ولم تفق؟ ما عاد هناك من تنتظر قدومه.. ما عاد هناك من تحيا لأجله..

هي في غيبوبتها لا تشعر بشيء، لا ترى شيئا غير السواد الذي امتص كل الألوان.. حاله كحال الحزن.. يمتص كل المشاعر.

كانت حياتها مثالا صارخا للكفاح والألم، لكنها عبرت وتحملت ونهضت من تحت الأنقاض قوية لا يهمها شيء.. هذه المرة كسرت ظهرها.. ما كانت لتقدر على النهوض حتى لو حاولت.

كل مرة كانت تعود من أجل ولديها، لمن تعود الآن؟

ليتها استطاعت أن تعود قوية من أجل ابنتها التي قابت قوسين أو أدنى من الجنون. عادت بالفعل لكن في هيئة جماد، لا تأكل لا تتحرك لا تتحدث.. عيناها نهران بالدم اصطبغت مياهما بالدم.

عادت والألم قد اتخذ قلبها مستقرا له.. قد جعل روحها مطيته.

لكنها لن تتخلى عنه! لن تنسى.. لن تحاول حتى أن تنسى بل ستذكر نفسها دائما بهذا الألم.. هذا الألم هو كل ما بقي لها منه.. هو حسبها. عادت كأن لم تعد...

أمسك علي بذراعه وقال بتوتر وعصبية: إلى أين تذهب؟! هذا ليس طريق البيت، هل أثر الإجهاد عليك!

أجابه مؤمن وهو يبتسم: لقد غيروا الطريق.

زفر علي ثم قال بحزم: أرجوك، أنا لست في مزاج يسمح لي باللعب والمزاح. أريد أن أرى والدتي. أعدني إلى المنزل.

تنهد بقوة وشرح في هدوء وجدية: هل تعتقد أن والدتك ستتحمل رؤيتك وهي في حالتها تلك؟ قد يتوقف قلبها من هول الصدمة.

-حالتها تلك!

قالها علي ثم ندم.. فقد خاف أن يخبره مؤمن بالحقيقة بعدما أقنع نفسه بما قاله له في البداية.

أحيانا يكون غض بصرك عن شئ عامدا خيرا من أن تنظر إليه فيحرقك.

-نحن ذاهبان إلي المستشفى. لم أرد أن أخبرك بهذا قبل أن تركب لأنني أعلم أنك سترفض وتقو إنك بخير وبلا بلا بلا. قال جملة الأخيرة مازحا.

-لكن هذه هي الحقيقة، فأنا فعلا بحال جيدة الآن.

أكمل مؤمن قيادته في نفس الطريق الذي كان فيه ولم يلتفت إلي ما قاله علي البتة. زفر ولم يجادله علي مرة أخرى.

وبعد عدة دقائق كان علي قد أغمض عينيه فيها وأرجع رأسه إلى الخلف انتفض من كرسيه وفتح عينيه وقال: ألن تأخذني إلي مستشفى "الأمل"؟ كما تعرف أنا أعمل هناك ولا بد أنني سأحصل علي معاملة خاصة وستتم الإجراءات سريعا.

-صدقي هذا آخر مكان تريد أن تتواجد فيه الآن. لا نريد أن يعرف أحد ما حدث معك..

شئ ما في نبرة مؤمن أدهش علي أكثر من مضمون الكلام نفسه الذي أدهشه بشدة أيضا لكنه لم يكن في حالة تسمح له بالسؤال عن السبب فبالرغم من أنه كان قد ارتاح (نظريا) في منزل عم سعيد إلا أنه جسده المنهك لم يلق ولو جزء بسيط من الراحة، فبجانب أنه لا

يجب أن يبيت في منزل شخص غريب فقد كانت تواتيه تلك الكوابيس المروعة فكانت توظفه من النوم مفزوعا.. أحيانا كان يجلس يبكي لدقائق عديدة وربما ساعات طوال الليل.. تنهمر دموعه على خده بغزاره فلا يدري كيف تحتزن عيناه كل تلك الدموع.

فبفضل كل هذا كان التعب والإرهاق قد تملك كل جزء من جسده أو معظمه.

-لقد مررنا بأكثر من مستشفى في الطريق لماذا لم نتوق...

وضع يده على كتفه برفق وأخرج صوتا من فمه دعاه للصمت والتزام الهدوء. اسرّخي علي كما طُلب منه فليس في باله مكان لمزيد من عصبية.. وليس بيده شئ آخر ليفعله.

وبعد فترة من الزمن لا يدري مقدارها أيقظه مؤمن ودعاه للخروج من السيارة. عرض عليه أن يطلب من إحدى الممرضات إحضار كرسي متنقل ليجلس عليه وهو في طريقه للدخل لكنه رفض بشدة.

ريثما وضع قدمه على الأرض أدرك أنه مازال مرتديا الجلباب الذي أعطاه إياه عم سعيد ولا يرتدي ملابس داخلية؛ فشعر بحرج شديد وهو يمشي هكذا إلا أن مؤمن هدا من روعه وأخبره أنه أحضر ملابسه وأنه سيدخل غرفته ويغير ملابسه بالداخل.

-هيا يا سيد علي استيقظ. لقد حان موعد فطورك.

فتح علي عينيه فوجد شابة رقيقة محجبة متوسطة الطول ذات وجه طويل خانع ترتدي زيا مقاربا للذي ترتديه الممرضات في المستشفى التي يعمل بها. جال بنظره في أرجاء الغرفة فوجدها غرفة مربعة الشكل تحتوي على سرير آخر غير الذي يرقد عليه يوجد على يسار

سريره، وعلي اليمين كانت هناك نافذة كبيرة تدخل منها أشعة الشمس وهواء عليل مائل للبرودة، ومن حيث يجلس علي كان يستطيع أن يرى بعض الأشجار بالخارج ويسمع صوت زقزقة العصافير.

كانت هناك لوحة كبيرة علي الجدار المقابل له مرسوم بداخلها صورة شخص يرتدي ملابس بيضاء يقف عاقدا ذراعيه ويخرج من جانبيه جناحان وعلي رأسه طوق ذهبي (ذلك التصور البشري الضعيف عن شكل الملائكة) وفي الخلفية هناك مجموعة من الأشجار وأطفال تلهو.

كان أول ما خطر بباله هو أن هذه أسخف لوحة من الممكن أن توجد في مكان كهذا، فإلى أي شئ ترمز؟ الجنة! هذه إشارة على أنك إذا جلست في هذه الغرفة ستموت لكن لا تقلق قد تذهب إلى الجنة والتي يبدو شكلها هكذا! ربما أيضا يكون المقصود بهذا الملاك هو الطاقم الطبي وأن كل الكلام السابق ها هو مجرد فلسفة فارغة منه كما اعتاد أن يفعل.. لكن في المجمل تبدو اللوحة جميلة ومشقة فالرجل في اللوحة عيناه مرسومتان بدقة كبيرة قادرة على أن تشعرك بالأمان ربما تشعرك أنك مراقب قليلا لكن أيضا تشعرك أن الآخرين مراقبون.

أما باقي الغرفة فكانت فارغة تقريبا باستثناء اثنين من الكراسي الجلدة ملاصقة للجدار المقابل للشرفة، وبعض المحاليل والأجهزة الموصلة به لتقيس معدلاته الحيوية بانتظام. كان السقف والجدران مدهونين بلون أزرق سماوي جميل وعلى السقف كانت هناك أماكن بيضاء تمثل السحاب.

تأمل علي في الغرفة بهذا الشكل المفصل والتصميم الرقيق للغرفة مع الهواء المنعش الصادر من النافذة جعله يشعر براحة وأمان.

استغرق منه بضع لحظات ليدرك أنه في مستشفى وليتذكر ما حدث معه بالأمس وفي الأخير تذكر أن مؤمن أتى به إلى المستشفى وجلس في الاستقبال فترة من الزمن ينهي الإجراءات اللازمة لدخوله المستشفى، ثم أدخله في غرفة خاصة بسريرين أخبره أنه سينام علي أحدهما وهو على الآخر.

بعد ذلك حضر طبيبان يبدو من ملامحهما أنها أهلا للثقة وخيران في التعامل مع المرضى.. وطلبا منه أن يقص عليها ما حدث معه فأخبرهما بما حدث بعد استيقاظه في المقبرة ولم تسعفه ذاكرته في أن يتذكر أي شيء حدث له قبل ذلك، فأخبر ما كان يذكره قبل ذلك هو أن استيقظ من نومه وتناول فطوره ونزل للعمل فحسب.

أكمل لهم مؤمن ما حدث بعد أن خرج علي من منزله فقد حكا له زملاء علي في العمل أنه بعدما وصل المستشفى بقليل كان يشعر بدوار خفيف ثم بدأ يتقيأ؛ فأخبره أحد زملائه أن يعود إلى البيت ويرتاح لكنه لم يكذب ينهي جملة حتى سقط "علي" على الأرض، ولحسن حظه كان أن هذا حدث في المستشفى فقد نقلوه بأقصى سرعة إلى غرفة رعاية مجهزة وكان هناك أكثر من ثلاث أطباء يعتنون به وكان الدكتور حاتم مدير المستشفى بنفسه يشرف علي حالته وتم استدعاء والدته وأخته، لكن كان "أمر الله قد نفذ" كما قال بالنص الطبيب الذي كان مسئولاً عن إسعاف علي.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها ما حدث له قبل استيقاظه في القبر.. لم يكن يذكر من هذا شيء على الإطلاق.

وبعدها بدأ الأطباء في أخذ التحاليل والعينات منه وعمل أشعات طوال اليوم تقريبا، في تلك الأثناء استأذنه مؤمن أن يخرج قليلا ليقضي بعض المصالحح وعندما حل الليل كان مؤمن قد عاد ونام علي السرير المجاور له حتى أيقظته الممرضة هذا الصباح ولم يكن مؤمن علي سريريه، وبعد قليل عاد مؤمن من الخارج وأخبره أنه كان يقضي حاجته في الحمام الموجود في آخر الممر.

وبينما هما يتناولان الفطور قال مؤمن بحماس: أرجو أن تكون قد نمت جيدا هذه الليلة إذ يبدو أنك لم تنل الكثير من الراحة في الفترة الماضية.

- هذا أول يوم منذ تلك الحادثة أشعر فيه بالراحة حقًا. أنا لا أحب أن أنام في منزل غير منزلي لكن يبدو أنه من كثرة جلوسي في المستشفيات بت أشعر كأنها بيتي. أحب رائحة التعقيم. ضحك ضحكة خفيفة.

- هذه أخبار جيدة جدا، أرجو أن تكون نتائج التحاليل مبشرة كذلك أيضا.

توقف علي عن الأكل وشرد في اللوحة الموضوعه أمامه ثم تنهد وقال:

بالرغم من أنني نمت بشكل جيد إلا أن هذا لا يعني أنني توقفت عن رؤية تلك الكوابيس المخيفه. ففي الليلة الماضية رأيت في منامي أنني أجلس على أرض صلبة مليئه بالأشواك وعلى الجانبين حقول ذرة ناضجة طويلة قاربت عنان السماء، وهناك حبل يشبه الذي يستخدمونه في تنفيذ الإعدام مربوطا حول عنقي وهناك شخص ما يجري علي الأرض بهذا الحبل، وعندما رفعت رأسي لأنظر لهذا الشخص وجدته يشبه "أنوبيس" (إله الموت عند قدماء المصريين) جسد إنسان وله رأس ابن آوى (ضبع) نصف جسده العلوي عارٍ تماما يُظهر عضلات بطن مقسمة إلى ستة أقسام كأنها منحوتة دقيقة، ويغطي جسده السفلي

وشاح ذهبي اللون قد التف حول خصره حتى بداية ركبته ويحمل بيده الأخرى مفتاح الحياة.

كان القمر كبيراً دامياً وسط السماء.. وكان أنوبيس يسحبني بشدة تجاه باب حديدي أسود ضخماً مكتوب عليه طلاس باللغة الهيروغليفية وعندما اقتربنا من الباب أطلق أنوبيس صيحة عالية فانفتح الباب وأصدر صوت أزيز الأبواب كالتي تكون في أفلام الرعب تلك.. خلف الباب كانت هناك غرفة مربعة واسعة مضائة بمشاعل موجودة على الجدران الجانبية، كانت الأرضية تبدو وكأنها ثعابين سوداء ضخمة متداخلة مع بعضها البعض، ثم. وبقوة شديدة سحبني مرة واحدة وألقى بي داخل الغرفة فالتفت الأرضية التي تشبه الثعابين حول خصري وبدأت تتحرك وتتلوّى كأنها تحولت ثعابيناً حقيقية، وبدأ يغلق الباب ببطء وهو ينظر إليّ وعيناه الضيقتان تشعان بنور أحمر مخيف أسرى في جسدي قشعريرة شديدة.

وحالما أغلق الباب أنطفأت كل المشاعل واختفت الثعابين علي الأرض وبدأت الجدران تتحرك باتجاه بعضها، فوجدت نفسي داخل المقبرة التي كنت فيها مرة أخرى، فبدأت أصرخ بشدة صرخت حتى شعرت بأحبال الصوتية تتمزق.. صرخت بشدة كما لم أفعل في الحقيقة.

استيقظت من النوم وكنت مازلت أشعر بنفس الألم في أحبال الصوتية، ظللت متيقظاً بعدها مدة قليلة محاولاً تهدئة نفسي والعودة للنوم مرة أخرى.

كان هذا قبالة الفجر لكنني عدت إلى النوم مرة أخرى ولم أر أية كوابيس بعدها حتى ايقظتني الممرضة.

بدا عليه الحماس وهو يحكي فلم يرد مؤمن أن يقاطعه. لكنه بعد ذلك أكمل: هذا الكابوس

كان مجرد غيبض من فيض، ففي الليلة التي تسبقها فقد رأيت على الأقل ثلاثة كوابيس أحدها أنني كنت في حديقة وكانت هناك شجرة تفاح ضخمة في منتصف الحديقة ذهبت إليها وحالما وضعت يدي علي تفاحة وكدت ألتقطها لأتناولها بدأكل التفاح علي الشجرة يذبل ويتساقط علي الأرض ثم.....

قاطعه مؤمن هذه المرة بعدما طفح كي له وقال: كفى يا علي. لا داعي لتذكر تلك الأشياء فهي فقط ستشعرك بالسوء.

لقد تحدثت مع طبيبك بالأمس وأخبرني أنك تعاني من متلازمة "اضطراب ما بعد الصدمة" وأخبرني أيضا أنها ستلازمك لفترة من الزمن وأنه يمكن تقسيمها إلي أربعة مراحل أعتقد أنك الآن في المرحلة الأولى وهي مرحلة "إعادة التجربة" حيث تظل تستعيد ذكريات عن الحادثة سواء في يقظتك أو كوابيس في منامك وأيضا عدم الراحة النفسية والجدسية، بعدها تنتقل إلى المرحلة الثانية وهي "التجنب"

تتسم باللامبالاة العاطفية تجنب الناس أو المواقف التي قد تذكر بما حدث، ثم.....

قاطعه علي بجفاء وتعجرف: "الإثارة والإنفعال" ثم "الأدراك"، أنا طبيب وأعرف هذا جيدا. شكرا لهذه المعلومات القيمة.

أحس أن مؤمن قد شعر بالسوء من هذه اللهجة القاسية فعاد يطيب خاطره ببضع كلمات شكر واعتذار على عدم تقديره لما بذله من مجهود في الفترة الماضية.

كان مؤمن متفهما تماما للظروف التي يمر بها علي لذا لم يرد أن يشق عليه أو يشعره أنه أخطأ وأراد أيضا أن يشد من أزره فقال له محاولا أن يسري عنه: أنت لي كالأخ الذي لم تلده أمي. لا تدري كم كنتُ حزينا عند سماعي خبر وفا...أأ..

انتبه إلى أنه لا يريد أن يذكر أي شيء عن هذه الحادثة الآن أمامه وأن كلامه هذا سيزيد الطين بلة ويزيد حالته سوء فحسب؛ فأوقف كلامه قبل أن يكمل ثم أمسك يده واستدرك سريعا بصوت حانٍ: كل ما يهمني الآن هو صحتك فحسب.

مازحه علي بابتسامة قائلا: لماذا جعلت الوضع شاعريا هكذا! لا ينقصنا سوى بعض الزهور وشموع حتى تكتمل مراسم هذا الجو الرومانسي.

-آه، أنت وأختك لا يمكن للواحد أن يكون شاعريا أو يعبر عما بداخله بحق دون أن تقبلوا الموضوع إلي سخرية، يبدو أن هذه جينات في العائلة.

في تلك الأثناء دخلت ممرضة أخرى تشبه إلى حد كبير الممرضة التي أيقظته في الصباح تحمل معها بعض الإبر لتسحب من علي بعض عينات الدم لإجراء المزيد من التحاليل.

كان مؤمن قد أنهى فطوره فاستأذن علي أن يذهب للخارج متعللا بنفس العذر الذي استخدمه أمس وهو "يقضي بعض المصالح" لكن علي رفض هذه المرة وطلب منه أن يجلس معه وأخبره أنه بحاجة إليه.. فهو يريد أن يتحدث معه في أشياء كثيرة بخصوص ماحدث وما قاله مؤمن في السيارة ولماذا اختار هذه المستشفى البعيدة في الأسكندرية ولم يذهب إلي مستشفى "الأمل" أو أي مستشفى آخر قريب؟

لكن مؤمن تودد إليه وتحجج بأن ما هو ذاهب لفعله لن يأخذ وقتنا طويلا وأنه أمر ضروري جدا؛ فوافق على امتعاض...

(١٨)

"في تلك الليلة.. نمت غابة"

في المساء عاد مؤمن مدججا بالحجج والأعذار عن سبب تأخره وعدم مساندته لصديقه وأنه كان يريد أن يعود سريعا إلا أن الأمر كان خارج إرادته.

اكتفي علي بالنظر والاستماع فحسب ثم عاد إلى تفحص هاتفه مرة أخرى أدرك مؤمن أنه لا فائدة من محاولة إسترضاء وأنه من الأفضل أن يغير الموضوع فسأل: كيف حالك اليوم؟

اكتفي علي بقول كلمة مقتضبة تعبر عن أن حالته تحسنت.

- هل توقفت تلك الأزمة التنفسية التي تصيبك؟ أو هل تشعر بأي تحسن في العملية التنفسية؟

حذق إليه في لوم وعاد يحدق إلى اللوحة أمامه ولم يضيف أي كلمة.

لكن مؤمن لم ييأس وأكمل كلامه: هل وجد الأطباء سبب هذه العلة التي أصابتك وجعلت قلبك يتوقف ثم يعود هكذا؟

نسي علي حزنه سريعا وزال صمته وقال بشغف: لن تصدق ماذا أكتشفت أنا والأطباء الآخرون المسؤولون عن تولي حالتي.

ابتسم مؤمن وسر لأنه استطاع أن يجد موضوع يتحدث فيه معه ويكسر حاجز الصمت الرهيب الذي كان يُشعره بالذنب الشديد هذا، فصحيح ما يقولون أن أشد عتاب للشخص هو عدم العتاب.

يكمل علي في حماسة: لقد اكتشفنا أن ما حدث لي هو حالة طبية تعرف باسم "متلازمة لازاروس" سميت كذلك تيمنا باسم الشخص الذي أحياه السيد المسيح من الموت - حسب المعتقد المسيحي -.

تم تسجيل ما يقارب الخمسين حالة تم تشخيصها بهذه المتلازمة منذ اكتشافها، وهي تعني عودة الشخص للحياة بعد توقف الأعضاء لفترة من الزمن قد تصل لعدة دقائق بعد توقف عمليات الإنعاش تماما.

اتسعت عينا مؤمن واعتدل في جلسته معاودا الكلام في عقله مرة أخرى حتى يستوعبه. هل هذه حالة مرضية حقيقية؟ هل هذا أصلا ممكن الحدوث؟ إنها تشبه ما يقرأه في الكتب الرديئة التي تتحدث عن الأشياء الخارقة وعلم ما وراء الطبيعة.. يبدو أن الطبيعة أكبر من أن يكون وراءها شيء.. كل شيء يحدث يكون ضمن الطبيعي!

قال بصورة عملية: هذه معلومات غاية في الأهمية. لكن ما سبب حدوث ذلك؟ لم يكن مؤمن بالقدر الكافي من الذكاء أو التركيز ليسأل السؤال البديهي: إذا كان هذا الأمر يستغرق عدة دقائق على أقصى تقدير فلماذا لم يستفك قبل أن يقوموا بتكفينه ودفنه؟

"الغيوبة" تلك ببساطة عن السؤال الذي لم يطرحه مؤمن.. أما عن سبب حدوث تلك الغيوبة فهذا ما يحتاج لمعرفته.. إنه لب الموضوع.

ازدادت حماسته وظهر بريق في عينيه يعرفه مؤمن جيدا، إنه البريق الذي يظهر عندما يتحدث عن أي شيء يخص المجال الطبي خاصة أو المعلومات الغربية عامة: السبب الحقيقي ليس معروف حتى الآن لكن هناك بعض النظريات التي تفسر هذه الظاهرة منها: أن هذا قد يحدث بسبب تراكم الضغط الناجم عن عملية الإنعاش القلبي الرئوي داخل الصدر، فعند التوقف عن الإنعاش القلبي الرئوي يسبب هذا الضغط إنعاش القلب تدريجياً وإعادته للنض. وهذه هي النظرية الأقرب للصواب.

معظم الأشخاص الذين مروا بهذه الظاهرة صرحوا بأنهم شعروا بطاقة روحانية أو أن روحهم تصعد إلى السماء والبعض منهم كان مدركا لكل ما يحدث حوله حتى أثناء توقف قلبه وباقي أعضائه.

ضرب جبهته بكف يده بقوة محدثا صوت طرقة جاب أرجاء الغرفة: ياللعجب! هذا قد يكون أغرب شيء سمعته في حياتي. هل حقا مرت بتجربة "خروج الروح" تلك؟

لم يكن معتادا أن يرى مؤمن بهذه الحالة، إنه يشبه الأطفال.. يبدو غير مستوعب الكلام لكنه مندمج جدا ومنصت بانتباه مع كل حرف.

كانت هذه أول مرة يفكر فيها بهذا الأمر، لقد فكر كثيرا فيما رأى لكنه لم يتطرق إلى ما أحس!

لا ينكر أنه أحس براحة لم يشعر مثلها قط عندما كان واقفا مع والده فوق السطح يحدقان إلى هذا النور الأبيض المريح للجسم المهدئ للأعصاب.

ربما كانت هذه هي اللحظة التي أحس فيها بروحه تغادر جسده المادي الفاني وترتقي.. لم يشعر بهذا الشعور من قبل ويشك في أنه سيشعر به مجددا.

لقد غادرت الروح الجسد لثوان معدودة فأحس بهذا الشعور المذهل.. ثم هي قد عادت إلى سجن الجسد الهالك الضعيف. إنها روحا ألفت الموت.. وعادت منه.. فلم تعد تألف أي شيء.

لا يعلم ما إذا كان هذا صحيح دينيا أو علميا، فمن المرجح أن هذا كله كان بسبب نقص وصول الدم إلى المخ هو ما سبب كل هذه التهيؤات لكنه لا يهتم، هو فقط يصف ما شعر به على الرغم من أن الأبدية تقف عاجزة عن التعبير عما أحس به وقتها. لن يغير هذا الشعور شيء.. ولا حتى الزمن.

حكى كل شيء بالتفصيل. كانت الكلمات تنساب من بين شفثيه دون تفكير منه، كان ينطق الكلمات أولا ثم يفكر فيما قاله.. يحلله عقله ويشعر أنه يسمع هذا الكلام لأول مرة. فهم حينها لماذا يصاب بالجنون من يُترك ليعيشوا في عزلة تامة عن العالم، العقل بطبيعته مجنون.. ما يتيق بهذه الصورة "العقلانية" هو وجود أناس آخرين حولك يستمعون لما تقول وأثناء حديثك معهم يستمع عقلك إلى ما يقول.. هو بحاجة لذلك دائما.. أن يعرف نفسه.

أدرك أيضا أن كل ما مر به كان أشبه بالكوابيس التي يراها كان يشبهها في الإحساس بالغرابة والواقعية في آن واحد مادون ذلك فهما مختلفان كل الاختلاف.

ظل يحكي كل شيء بالتفصيل حتى وصل إلى الجزء الذي كان يذكر فيه رؤيته لجماعة كبيرة من الناس في منزله ومن بينهم كانت والدته وكانوا جميعاً يرددون بعض العبارات خلف شخص يقول كلاماً غير مفهوم، شعر حينها أن عقله كان متوقفاً عن العمل ثم بدأ يعمل فجأة.. ربط الأحداث ببعضها واستذكر صوت هذا الرجل الذي كان يقول طلاس غربية إنه "الشيخ عبدالواحد المهدي"، ولم يكن يقول طلاس بل كان يدعو له ويؤمن الحاضرون خلفه.

كل شيء مترابط.. كل شيء متصل، لا مجال للأخطاء أو المصادفات، لم تكن أحلاماً التي تراوده.. كانت الواقع كما يراه عقله المنهك..

"الواقع هو خيال يعتقد عقلنا أنه حقيقي"...

لا يجد أصدق من تلك المقولة ليعبر عما مر به.

-أعتقد أن هذا ما يُطلق عليه "النيرفانا". قال علي بعد أن أنهى كلامه عن رحلته الروحية.

-الـ"ماذا"؟!

- "رحلة من السلام التام" هكذا يصفها بعض الأشخاص التابعين لديانات تؤمن بوجودها، وهي تعتبر أقصى مراحل السلام النفسي التي قد يصلها الإنسان. ومن أقر أنه وصلها عدد قليل جداً؛ لذا فهي غير مُعرفة بدقة. إنها حيث تهدأ عواصف المعاناة وتحل نسمات النعيم النفسي - حسب وصفهم - وهذا ما كنت أشعر به حقاً عندما كنت أنظر إلي ذلك النور.

بتعجب شديد وذهول قال: هذا كلام جميل جدا وغريب في نفس الوقت لو أخبرني شخص آخر به لما صدقته.

لم يكن شعوره هو الآخر بالغرابة يقل عما يحس به مؤمن فقال في شروء: ولا أنا كنت صدقته. ما حدث لي في تلك الليلة أنمى بداخلي غابة.. غابة من المشاعر التي لم أكن أعلم حتى بوجودها.

-لقد ألقى عليك حمل ثقيل يا صديقي. لكن ليس هذا هو ما قصده بسؤالي عن كيفية حدوث هذا، لقد كنت أعني ما هو الذي سبب حدوث هذا التوقف المفاجئ في القلب؟
-لا ندرى السبب الفعلي حتى الآن، كل التحاليل أتت بصورة سليمة جدا وطبيعية.
-هذا أمر جيد، إن صحتك تتحسن بشكل كبير.

-إنه أمر جيد من أجل صحتي الجسدية لكن ليس لصحتي العقلية؛ فلا يوجد سبب واحد منطقي يدل على إمكانية توقف قلبي بشكل مفاجئ هكذا.

علت نظرة مريبة وجه علي وقال بصوت خفيض وقد استلقى على السرير وسحب البطانية على جسده: لقد شرع الأطباء في إجراء تحاليل السموم.

بدت الحيرة والاستغراب على وجه مؤمن فطمأنه علي مخبرا إياه إنه شيء طبيعي في مثل تلك الحالات.

علت وجهه ابتسامة وهز رأسه في فرح: من الجيد أنهم أخذوا في الاعتبار كل الأسباب المحتملة.

لكن ملامح علي تحولت للجمود مرة أخرى ولم يجب ولم يبد اهتماماً أصلاً. حاول مؤمن فتح موضوع آخر يتسامرا به معا إلا أن علي أطفأ المصباح المجاور لسريه وأغمض عينيه مدعياً أنه قد غط في النوم.

لم يجد مؤمن أفضل من أن يتمنى له نوما هنيئاً ويصمت.

وفي الصباح التالي أتت الممرضة لتوقظه من أجل الإفطار وأخذ الدواء كما هو الحال في اليوم الذي سبقه، عندما استيقظ علي وجد مؤمن مستيقظاً ويبدو على وجهه النشاط وأنه مستيقظ منذ مدة، شرعاً في تناول الفطور مباشرة وأثناء ذلك سمعاً طرقاً خفيفة على الباب، نهض مؤمن ليفتح الباب ففوجئ بالطبيب المشرف علي حالة علي ومعه بعض الملفات التي يبدو أنها تحمل نتائج التحاليل التي أجراها علي بالأمس.

- أهلاً أهلاً يا دكتور، أرجو أن تكون لديك أخبار جيدة لنا اليوم أيضاً.

ابتسم الطبيب ابتسامة صغيرة مصطنعة ثم توجه صوب علي الذي كان قد أنهى من تناول طعامه تواً، وجلس علي سريه بجوار قدمه اليسرى.

- أهلاً بالبطل، أرجو أن تكون نمت جيداً هذه الليلة.

كانت نبرة صوته لا تبشر بخير لكنه بذل جهداً كبيراً كي يخفي مشاعره... ثلم هو بهذه الأمور تماماً، فكثيراً ما حمل أخباراً غير سارة إلى مرضاه وكان يبذل مجهوداً كبيراً في محاولة إحداث أقل الأضرار النفسية والتي كانت تحدث لا محالة.. كما الحال هنا..

حاول أن ينهض ويجلس كي يتحدث مع الطبيب إلا أنه دفعه للوراء بخفه ليقبه مستلقيا كما هو وأشار إليه بيده أن يظل على حاله.

-نعم، كانت هذه الليلة أفضل من التي سبقتها، لم تكن مثالية لكن كانت جيدة. الحمد لله.

-عظيم عظيم، أمتعد يا بطل؟ معي نتائج تحاليلك التي لم تظهر بالأمس، أنت تعلم أن هذه التحاليل تستغرق وقتا أطول من ذلك لتظهر نتائجها لكن نظرا لأنك زميل في المنهة ونظرا لما مررت به أمرتُ أن يتم إنجاز هذه التحاليل علي وجه السرعة قبل أي تحاليل أخرى.

كلمات شكر وعرفان كثيرة من التي اعتاد أن يقوها بكثرة منذ الحادثة، أصبح يشعر أنه مدين لكل من حوله بالشكر والاعتذار.

من يشكره على تحمله؟ من يقدم له الأعذار؟ من يضمه جراحه؟ من يثلج قلبه الذي احترق حتى التفحم؟

استدار الطبيب تجاه مؤمن وطلب منه أن يمنحه بضع لحظات من الخصوصية مع علي فهو يريد التحدث معه على انفراد.

تأكدت شكوكه!...

خرج مؤمن على مضض إلى الردهة خارج الغرفة وقلبه ممتلىء بالرعب فلربما يكون أسوء "سيناريو" توقعه قد تحقق!

بعد فترة وجيزة خرج الطبيب من الغرفة وانحنى أمام مؤمن انحناء احترام فهز مؤمن رأسه أيضا مُسلماً عليه وهرول إلى الغرفة ليعرف الأخبار، ولما طلب منه الطبيب الإنصراف هذه المرة بالتحديد.

دخل الغرفة فوجد علي ممسكا بالتحاليل يقرأها بتمعن، قاطعه بعنفوان قائلاً: ها ماذا قال لك؟

تنهد بعنف...

- لا أعرف كيف اقولها. لكن جميع الأعراض الأكلينيكية مثل القيء والصداع قبل أن يغشى عليّ وصعوبة تنفسي الآن كلها تشير إلى أنه تسمم خاصة أنه لا يوجد أي سبب عضوي آخر قد يسبب ما حدث.

حاول مؤمن كتم خوفه وغضبه. خوفه من أن يكون ما كان يخشاه قد حدث وغضبه لأنه لم يستطع أن يبر بقسمه.. قسمه أن يحمي كل أفراد عائلته ما استطاع..

تصنع وجها عطوفا وبصوت هادئ يخفي خلفه بركان من الانفعال والحنق قال: هل عرفتُم أي نوع سم هو؟ أو الوسيلة التي تم وضعه لك بها؟

- لا شيء أكيد حتى الآن لكن على الأرجح أنه سم الرايسن "Ricin".

- هذا الاسم يبدو مألوفاً. أغمض عينيه وطرق بيده في الهواء محاولاً تذكر أين سمع هذا الاسم من قبل.

وفر عليه علي عناء التذكر وأكمل شارحاً: إنه سم يتم تصنيعه من بذور الخروع وهو شديد السمية، يعمل عن طريق التقليل من تصنيع البروتين بالجسم، والسبب في أنك تعتقد أنك

سمعت به هو أنه هو ذات السم الذي تم استخدامه لتسميم الرئيس الأمريكي الأسبق "باراك أوباما" عام ٢٠١٣ وقتها أعلن مركز المخابرات الفيدرالي أنه تم التحفظ علي رسالة مشبوهة كانت موجهة إلي الرئيس وكانت تضم مادة الرايسن.

ضرب طرف سريره بعنف وأطرق في الشباك يحرق فيه ثم هز رأسه مشيراً إلى أنه تذكر هذا الأمر. لم يحاول إخفاء قلقه بعدما سمع الجملة الأخيرة.. لم يعد بُد من محاولة تجنب الأمر.. لم يعد بد من تنحية عقولنا جانبا مرة أخرى أملاً في نهاية سعيدة.. الأسوء قد حدث.

كان الوضع محتدماً جداً، كاد ينتشر الشرار في أرجاء الغرفة، لم يكن مؤمن على قدر العون المطلوب منه في هذا الموقف.. من كثرة ما مر به في عمله ملأ الرعب حياته.. استبدل معظم مشاعره بالشك حتى أصبحت حياته شكا يطل من بين أهذاب.

-كما حدث مع الرئيس أوباما.. ها. هذا يجعل مني شخصية مهمة مثله. قال علي جملته الأخيرة وضحك محاولاً تهدئة الأوضاع.

حتى هذه المهمة أُلقيت على عاتقه! يهدئ الجميع ويزداد قلبه اشتعالاً..

لم يلتفت مؤمن إلي المزحة الأخيرة وبلهجة عملية خالية من المشاعر قال: هل تتذكر أنك لمست أو تناولت أي شيء غير اعتيادي يومها؟ وهل هناك تحاليل أخرى يلزم إجرائها حتى نتأكد من صحة هذا التشخيص.

تعجب علي من كون السؤالين مختلفين تماماً عن بعضهما البعض ومن الطريقة التي قالها بها مؤمن، لقد شطح به الخيال حتى نسي نفسه.. نسي في أي موقف هو.. نسي واجبه وانجر خلف أوهامه! حتى وإن كانت حقيقة فما نفع أن تنقذ جسد رجل وتترك روحه تحترق؟!!

- لا ولا. لا أتذكر أي شيء تقريبا في يوم الحادثة فكل شيء يبدو ضبابيا، ولا يوجد تحاليل نستطيع بها تأكيد هذا التشخيص فلو كنت قد استنشقتة -كما يظن الأطباء- فقد مر وقت طويل ولابد أن أثره قد زال أو ربما بقي القليل لكن يصعب التأكد من وجوده.

هذا يزيد الأمر تعقيدا.. فيزيد مؤمن شرودا.. مؤمن الذي انكفأ لونه حتى صار كاللبن بياضا!

انتفض من مكانه وبدأ يجمع أغراضه دون حتى أن يخبر صديقه ماذا يفعل.

جذبه علي من يده وقال وقد طفح كيئه: ولما العجلة؟!

قال مؤمن بصورة بوليسية مثل التي توجد في أفلام الثمانينات: عندما يكثر البعوض لا يمكن تجاهله يا علي. حري بك أن تلملم أغراضك مثلي، سنرحل الآن..

-لقد أصبحت غامضا جدا هذه الأيام هل ستوضح لي أي شيء من هذا؟ وما هو المقصود بالبعوض هنا؟

حرر مؤمن يده وأكمل جمع أغراضه وقال: سنتحدث في هذا ونحن في طريقنا إلى البيت.

البيت...

كانت هذه الكلمة كفيلة لتنسيه كل آلامه وأوجاعه.. كفيلة لتُجلي عن عقله كل الأفكار حسنها وسيئها. تهلل وجهه ورُفرف قلبه من الفرحه ونهض من السرير يللملم أغراضه وقال في سعادة: أخيرا سأرى أُمي مرة أخرى.

-ومن قال إننا سنذهب إلي بيتك؟ نحن ذاهبان إلي بيتي هنا في الإسكندرية سنجلس هناك بضعة أيام حتى نقرر ماذا سنفعل.

كانت تلك هي القشة التي قسمت ظهر البعير. هناك بطارية من التحمل.. وهناك بطارية احتياطية أيضا.. ثم ينفد كل ما لديك من جهد وتحمل... لقد تخطى كل تلك المراحل!.. لقد سطر تاريخا جديدا في الألم والمعاناة، لم يقف معه أحد.. ولا حتى من استنجد به وأحس فيه خلاصه.

لم يتمالك أعصابه بعد سماعه الجملة الأخيرة فقد تنازل عن إرضاء فضوله ومعرفة سبب غموض أفعال مؤمن الفترة الأخيرة متمسكا بأمل أنه سيعود إلى أهله قريبا ويحصل على الراحة التي يتمناها من فترة طويلة جدا (كانت بضعة أيام فعليا إلا أنه شعر أنها ألف عام) أما الآن فقد ذهب السبب الذي تنازل علي بسببه عن إشباع رغباته؛ لذا ألقى من يده الأغراض التي كان قد بدأ بتجميعها ثم استدار تجاه مؤمن الذي كان قد انفصل عن العالم ولم يشغله وقتها إلا تجميع الأغراض والرحيل في أسرع وقت وجذبه من من الخلف من قميصه بشدة حتى سمع صوت تمزق بعض الخيوط من القميص، بدأ في الصياح وأنه لن يتحرك حتى يعلم حقيقة ما يجري هنا وأنه لا أحد آخر غيره مسئول عن تحديد مصيره أو وجهته المقبلة.

سحب مؤمن القميص من يد علي بغل واستدار له وقد احمر وجهه من الغضب وهُيأَ علي لبضع لحظات أنه سينفث لهما من فهمه من شدة الغضب وتوقع أن يبدأ بالصراخ عليه هو الآخر فرجع خطوتين للخلف حتى لاصقت قدماه سريره إلا أن ردة فعله فاجتته.. فبصبر نافذ قال مؤمن وهو يزفر: أنا أسف يا علي، أسف لأنني لم أخبرك حقيقة ما علمته لكن تأكد من أني فعلت كل هذا من أجل راحتك ولم أرد أن أزيد من سوء حالتك.

شعر علي بالأسف على الفور. وكان ساخطا لكن هذه المرة على نفسه بدلا من مؤمن. كما قال من قبل "مشاعر الناس عبثية ولا تخضع لمنطق" يبدو أنه نفسه أكبر مثال على تلك المقولة، بدأ يشك في أنها لا تنطبق على احد من العالمين سواه.. إنه متسرع في الحكم دائما، مهما أوهم نفسه أنه رزين.. يثبت له عقله العكس دائما.

فمؤمن دائما ما كان يدعمه في شيء يريده وخاصة منذ بداية هذه الحادثة لم يقصر مؤمن معه بأي شكل، حتى إنه حجز له هذه الغرفة في واحدة من أكبر المستشفيات الخاصة في مصر والله وحد يعلم كم تكلفتها.

لذا غير من نبرة صوته واقترب منه مرة أخرى في لين وترفق وقال: أنا لا أنكر ما كل فعلته لي، أنا متأكد أنه لو كان لي أخ لما فعل معي أكثر مما فعلت أنت. لكنني الآن بخير ولا يوجد سبب كي تخفي عني المعلومات التي تعرفها.

تنهد بارتياح: لو كنت مقدرا حقا ما فعلته لك أرجوك أكمل تعبئة أغراضك وسأخبرك كل شيء بالتفصيل ونحن في الطريق..

على بعد ما يقرب من عشرة أميال أوقف مؤمن السيارة أمام عمارة جميلة من العمارات حديثة البناء في الأسكندرية، وأخبره أنهم قد وصلوا إلى وجهتهم المنشودة.

كانت العمارة فخمة جدا، مطلية بلون أصفر يميل إلى البني مما يعطيها مظهرا كلاسيكيا رائعا، كانت تطل مباشرة على البحر، يستطيع شم رائحة البحر حيث يقف.. يشعر بالهواء البارد المحمل بالرمال يتخلل شعره وملابسه.. استرخاء تام سرى في انحاء جسده كما لو أن ملوحة البحر وهوائه كافيان لإذابة كافة الأوجاع العضلية منها والنفسية.. لكن أوجاعه عvisية على الإذابة.. إنها تذيب فحسب..

لم يقبل مغادرة المستشفى قبل معرفة إلى أين هم ذاهبون، حتى أذعن مؤمن وأخبره أنه اشترى هذه الشقة منذ بضعة شهور كي تكون شقة مصيفية له هو ومشيرة، وأخبره كم كانت تلك هي رغبتها منذ زمن أن تكون لها شقة هنا في الأسكندرية.. وعن سبب أنه لم يخبر بها أحدا أنه كان يريد أن يجعلها مفاجئة لمشيرة وياسين ولم يكن قد انتهى من تجهيزها بعد وهذا أيضا هو سبب مغادرته اليومين الماضيين من المستشفى فقد كان يقوم بتجهيز بعض الأساسيات حتى يتمكن من الجلوس فيها.

أما عن سبب رغبته في الجلوس في الشقة وعدم العودة إلى القاهرة فلم يخبره به وأخبره أن هذه المعلومات تكفيه حتى وقتها وسيخبره كل شئ بالتفصيل في موعده.

فور نزولهم من السيارة هرول إليهم حارس العمارة وقام بحمل الحقائب -والتي لم تكن كثيرة- تقدم مؤمن نحو مدخل العمارة وتبعه علي والبواب، كانت الشقة في الدور الخامس لذا صعدا في المصعد وأخبرهما عم حسين (البواب) أنه سيصعد خلفهما علي الدرج.

كان الباب فخما ومنقوش عليه بعض الاشكال يبدو أنها تشبه النقوش التي تنتمي إلي العصر الروماني. فتح مؤمن الباب وكان مباشرة أمامه بحوالي مترين عمود من الرخام الأصفر محاط من جوانبه الأربعة بخشب بني اللون وبين الخشب والرخام هناك مجموعة من اللمبات الـ"LED" تُضاء فتعطيها مظهرا مبهرًا.

كانت الشقة كبيرة ورائعة تتكون من ثلاث غرف وصالة واسعة جدا ومكان لمقابلة الضيوف بالرغم من أن الزيارات في المدن الساحلية كهذه قليلة جدا.

رأى علي أنه لا فائدة من هذا الصالون إلا أنه كان يبدو مذهلا كان أقرب إلي قطع ديكورات فنية منه إلي صالون للاستخدام، وكان المطبخ علي النظام الأمريكي يطل على الصالة، وكما هو الحال في معظم الشقق المصيفية كانت البلكونة هي الجزء الأهم والأوسع فمن ذا الذي يريد أن يشتري شقة في منطقة مطلة علي البحر كهذه ولا يجلس في بلكونة واسعة!

أثنى علي الشقة كثيرا ودعا المؤمن أن يتمتع بها هو وأولاده، وأخبره أن مشيرة ستطير من الفرحة عند رؤيتها. سر مؤمن جدا بهذا الكلام وأخبره أن سيذهب كي يغتسل ويغير ملابسه ثم يمكنه أن يغتسل بعده إذا أراد.

جلس علي في البلكونة علي الكنبه الموجوده هناك ومدّ قدميه أمامه وأغمض عينيه وسحب هواء نقي بقدر ما استطاع كانت تلك هي أول مرة يشعر فيها حقاً أن مشاكلة التنفسية قد بدأت تنقلص.

شطح به الخيال إلى الأفق البعيد.. وعزف مع أمواج البحر لحنه.. فملاً الأقداح بصبوات ضياء هاطل نبعاً ذهبياً أزاح تعب السنين.

خرج مؤمن من الحمام ولحق بعلي في البلكونة. جلس بجواره فطلب منه علي أن ينتقلا للداخل حتى لا يصاب بالبرد نتيجة خروجه من جو دافئ إلى بارد هكذا إلا أنه أصر وقال إنه تعود على هذا في أيام الجيش واكتسب مناعة فلا يحدث له شيء.

أخبره أن مشيرة قد اتصلت به وهو يستحم فبدا عليه الحزن.. وأخبره أنها ستبدأ بتوبيخه مرة أخرى لأنها تركها في ظروف كتلك والمضحك في الموضوع هي أنها تتهمه أنه لا يقدر موت أخيها بينما هو -حرفياً- يجلس بجوار أخيها (الميت). لولا علمه أنها في أزمة كبيرة وأن نظرتها للأمور محدودة لما تركها تتابع سلسلتها من الاتهامات التي لا تنضب.

وبعد فترة كبيرة من الهدوء والتأمل في البحر سأل علي: هل يمكنك أن تخبرني الآن بما كنت تحبّه كل هذه الفترة؟

-لقد أزرق وجهك لأنك لم تحلق لحيتك منذ فترة، متأكد أنك لا تريد أن تغتسل وتحلق لحيتك؟

يعرف هذه الخدع جيدا، إنها ملاحظة مقنعة.. يحاول أن يؤخر الكارثة اكبر قدر ممكن، لا يعرف أنه بذلك يخاطر بوقوع كارثة أكبر وهي انفجار علي غضبا! قد تتحطم السدادة التي تمنعه من الانفجار في أية لحظة.

حذق في وجهه ولم يعقب.. يعلم أن هذه الحركة دائما ما تؤتي ثمارها معه، وبالفعل بعد تنهيده صغيرة تعني "كما تشاء" تابع كلامه: هل تتذكر آخر محادثة بيننا قبل يوم تلك الحادثة؟

هز رأسه إيجابا وقال: لقد أخبرتني أنك وجدت معلومات مهمة وكنت تريد مقابلتي بعد انتهائي من العمل في نفس المطعم الذي تقابلنا فيه آخر مرة.

-من الجيد أنك تتذكر. كانت تلك المعلومات هي: أنني كنت قد ذهبت إلى منزل البشمةهندس محسن الصباغ كي أستخلص منه بعض المعلومات كما اتفقنا قبلًا.

توقف قليلا ثم تابع والحسرة تملأ عينه: لم تكن الزيارة ذات فائدة كثيرا فقد استمر في تغيير الموضوع ورفض أن يفصح عن أية معلومات مهمة وكان يخشى أنني من "الجماعة" أتيت كي أختبره لأرى ردة فعله وعندما أقسمت له أنني لا أدري عن أي شيء يتحدث وافق على الحديث معي. لكن طلب أن نلتقي في مكان لا يرانا فيه أحد في اليوم التالي، وافقته وكنت سعيدا أنني أخيرا اقتربت قليلا من معرفة سبب هذا الغموض الذي يحيط بمستشفى الدكتور حاتم، لكن ليس هذا هو الأمر المهم في الموضوع كان الأمر.

الغريب هو أنني في اليوم التالي ذهبت إلي المكان الذي كنا قد اتفقنا أن نتقابل فيه لكنه لم يأتي؛ لذا ذهبت إلي منزله عامدا توبيخه لأنه خدعني إلا أنني عندما وصلت وجدت سيارات شرطة تحيط بمنزله وهناك جمع كبير من الناس والشرطة تحيط بالمنزل بالأشرطة

الصفراء لمنع أي أحد من الدخول لكنني كشفت لهم بطاقة هويتي وأخبرتهم أنني شرطي سمحوا لي بالدخول، وعندما دخلت....

صمت لبرهة وعاود النظر إلى البحر مرة أخرى.. شرد في البحر حتى أحس علي أنه رأى في عينيه زرقة البحر.. أزرق عيناها كما البحر واجتاح الهياج عقله كما البحر أيضا..
"جماعة"؟! "سيارات شرطة"؟!...

قال علي بصوت عميق: ها أنت ذا عدت للغموض مرة أخرى.

قال بصوت متحشرج عكرته دموعه: ما رأيته هناك كان واحدا من المواقف التي لن أنساها ما حييت.. موقف حيث شعرت بضالة حجمي شعرت أن الأرض تدور تحت قدمي.. شعرت بالغثيان كما لم أشعر به في حياتي.

كان البشمهندس محسن معلقا في الهواء بحبل -كالذي يستعمل في تنفيذ الإعدام شنقا- إلى السقف وتندلا قدماه في الهواء.

اتسعت حدقتا علي واصفر وجهه وزم شفثيه وأطلق صفره عالية ثم قال بعصبيه وهو يلطم جبهته: أرجوك أخبرني أنها مزحة.

-هه قد يكون العالم كله مزحة يا صديقي لكن ما رأيته هناك لم يكن مزحة على الإطلاق. كانت عينيه مفتوحتان جاحظة وشعرت أنها يوجهان أنظارهما إلي بعتاب ولوم لأنني لم أستطع منع ما حدث له.. تخيل أن تعاتبك جثة!

صدقني أستطيع أن أفعل.. فقد كنت "جثة" منذ عدة أيام...

صوب مؤمن مقلتيه نحو السماء الصافية محاولا نسيان ما رآه..

حاول علي تمالك نفسه ومحاولة تهدأة مؤمن، على الرغم من الخوف الذي يملكه.. كان هذا غريبا فمئذ عدة دقائق كان علي هو الخائف وكان مؤمن يتناسك نفسه ويهدأه أما الآن فقد أنقلب الوضع..

قال مؤمن بحق شديد وسخرية لاذعة: هل تظن أن هذا هو أسوء ما حدث؟! السيء لم يأتي بعد.

كلما ظن أنه لا يمكن للأمور أن تسوء أكثر.. تسوء، وإذا اعتقد أنها ستسوء.. فإنها أيضا تسوء!

لا يوجد في عقله حقيقة ما يمكن أن يكون أسوء مما حدث.

أكمل مؤمن إطلاق قذائف الأخبار السيئة كأنه بندقية آلية تصوب علي هدفها بلا رحمة ولا توقف: لقد لاحظت من طريقة ربط الحبل حول عنقه والطريقة المصنوعة بها العقدة أنها طريقة شخص محترف متمرس في هذه الأمور، وعندما انطلقت إلي العقيد المسئول عن القضية وأخبرته أنها ليست حالة انتحار طبيعية - كما سمعت بعض العساكر تقول - طلب رؤية بطاقة هويتي وتحقق منها وأدرك أنني من الشرطة.. أخبرني أن هذه هي وظيفته أيضا وأنه يعلم كيف يؤديها وهو متأكد أنها حالة انتحار طبيعية.

وعندما أخبرته عن ملاحظاتي أخبرني أنني جاهل وأنه يمكن لأي شخص معرفة كيفية تنفيذ عقدة كهذه من الأنترنت، بالإضافة إلي أن البشمنهندس محسن كان قد فقد عمله منذ أيام قليلة ولا بد أنه كان مكتئبا.. لذا فكر في الانتحار. أخبرته أنه فكرة سخيفة وأنه يجب أن يتم التحقيق بشكل موسع أكثر، حينها بدأ بالصرخ علي وطلب مني الالتزام بقسمي

هذا بالفعل أسوء...

"إذا كان هناك شيء سيء يمكن أن يحدث فسيحدث وبأسوء طريقة ممكنة"

سأل مستفسرا: إذا هل تعتقد أن ذاك العقيد تابع لتلك "الجماعة" التي تحدث عنها محسن؟

تحركت شفتا مؤمن في بطء و غمغم في انخزال: هل علمت الآن لماذا لم أرد أن أخبرك بما حدث؟

كان معه حق في أن يخفي تلك المعلومات.. مهما تظاهر أنه بخير ومتماسك فهو هش من الداخل، لم يكن ليقدّر على تحمل تلك الصدمة أول الأمر.

حاول مؤمن تهدئة الأوضاع مرة أخرى فهم يعلم أنه لم يتم شفاؤه، فمسح دموعه التي كادت تحذله وتفلت من مقلتيه وقال في ابتهاج مصطنع: ها ماذا تريد أن تأكل علي الغداء؟

في زهوة الشفق الملون حيث يحترق النهار
في عودة الرعيان أثناباها يظللها الغبار

في ساعة الشوق الكئيب إلى شواطئ كالضباب
و إلى أكف مخلصات

و إلى أغان مبهمات هائمات في شغاب
أنأى من الأصداء تغثناها نجوم ساهمات

في ساعة الشفق الملون كان إنسان يثور
بين الجنادل و القبور

نفس معذبه تثور
بين الجنادل والقبور

أأظل أحلم بالنعوش و أنفض الدرب البعيد
بالنظرة البثزراء و اليأس المظلل بالرجاء
و تظل أنوار المدينة وهي تلمع من بعيد

ويظل حفار القبور
ينأى عن القبر الجديد

متعذر الخطوات يحلم باللقاء و بالنعيم
(من قصيدة "حفار القبور" للشاعر بدر شاكر السياب)

صوت طرقات عالية جدا على الباب تشبه صوت طرقات المعاول. صوت وقع أقدام تتحرك يصدر من الغرفة المجاورة، بعد قليل يُسمع صوت فتح الباب. ثم. وبدون مقدمات.. صراخ عال، صراخ مزعج يخرق طبول الأذن.

لم يحتج علي وقتا طويلا ليميز أنه صوت أخته مشيرة ولا أنها غاضبة جدا.. لكنه احتاج وقتا حتى أدرك سبب غضبها؛ فقد كان من الصعب تميز كلامها من موقعه في غرفته وهي تتهم زوجها أنها لم يقف معها في محنتها وتتهمه بالخيانة غالبا بسبب تركه له في تلك الظروف -على الأقل هذا ما كان علي يظنه بقصدها "خيانة" - كان مؤمن هادئا إلى أقصى الحدود لكن لم يزلها هدوئه إلا جاننا وعنادا أكثر وبدأت تصدم الأثاث في الشقة وتفتح الغرف في جنون كأنها تبحث عن شيء ما أو شخص ما.

لم تمر إلا ثوان معدودة حتى سمع صوت أقدامها تقترب نحو الغرفة التي يجلس فيها يتبعها خطوات خفيفة هي خطوات زوجها. شعر بالخوف والقلق عليها من ردة فعلها.. فهو يعلم أنها رقيقة القلب ولن تتحمل رؤية أخيها الذي تعتقد أنه مات حيا أمامها، والأسوء من ذلك أنه لم يجد هو ومؤمن بعد حجة منطقية ل"عودته من الموت" فبالرغم من أن الحالة التي حدثت معه طبيعية جدا وموثقة بالأدلة إلا أن عوام الناس لا تلتفت لمثل هذه الأمور.. أنت تخرق قوانين الطبيعة هنا -من وجهة نظرهم- ومن الممكن أن يتهمه البعض أنه زور وفاته هربا من شيء خطير يخفيه أو يعتقدوا أن شبح أو ساحر أو أي شيء من الأشياء الجاهلة السخيفة التي يتبناها بعض الناس.

بعد التفكير في الأمر قليلا لا تبدو فكرة أن يعتقد البعض انك شبح فكرة سيئة.. على الأقل هي أفضل من يعتقدوا أنك مخادع.. "كن قوي ومكروه خيرٌ من ضعيف محبوب في كلا الحالتين سيتركوك!"...

لا يذكر أين قرأ الجملة الأخيرة قبلا لكنه يذكر تماما أنه لم يكن موافقا كاتبها الرأي.. الآن لا يبدو الرأي سيئا، لربما كان هذا الرجل "لازاروسي" هو الآخر واستلهم جملته من موقف مشابه! الاحتمالات ضعيفة لكنها بكل تأكيد تظل أكثر من أن تكون أحد خمسين شخصا -موثقة حالاتهم- في هذا العالم مروا بتلك الظاهرة...

لم يكن الموضوع خارج غرفته بأيسر مما هو داخلها فقد كان مؤمن في وضع لا يحسد عليه فيين قلقه من "الفضيحة" بين أهل العمارة عند سماعهم تلك التهديدات التي تطلقها زوجته وبين "التهديدات" التي تطلقها زوجته أصلا، والتي علم علي فيما بعد أن معنى الخيانة الذي تقصده لم يكن بسبب تركها في تلك الظروف فحسب.. وإنما كانت تقصد خيانة حقيقية مع امرأة أخرى!

استطاع مؤمن تحمل كل تلك الاتهامات والفضائح إلا أنه لم يستطع هو الآخر تجاوز قلقه على زوجته إذا رأت أخيها الذي تظنه ميت ماثلا أمامها! هو يخشى أكثر ما يخشاه أن تصاب بصدمة عصبية أو هبوط حاد في ضغط دمه و دورتها الدموية يتسبب لها في مشاكل كبيرة؛ لذا لم يحاول منعها من الصراخ أو تحطيم الشقة لأنه يعلم أنه لا فائدة من محاولاته لكنه حاول بكل جهده أن يمنعها عن رؤية أخيها وهو الذي في قرارة نفسه كان يشاق كل الشوق ليخبرها بكل ما حصل بيد أن هذا لم يكن الوقت المناسب.

كل هذا كان يدور خارج غرفته وعلي بالداخل لا يدري كيف يستطيع أن يساعد نسيبه في هذه الأزمة وكيف يمنع أخته الحمقاء الهوجاء عن الطعن في شرف زوجها الرجل المحترم.

وبينما هو جالس يفكر في حل لتلك الأزمة سمع صوت طرقات شديد على الباب ثم توقف الطرق لحظات وارتفع صوت الصراخ مرة أخرى وهي تأمر مؤمن بالابتعاد عنها وعدم منعها من الدخول وأنها ستكسر الباب لو أضطرت لذلك.

رأي علي أنه لا مفر من الخروج وليحدث ما يحدث؛ لذا اتجه نحو الباب وفتح القفل ولم يفتح الباب.. إذ تكفلت مشيرة بتلك المهمة فركلت الباب بأقصى ما فيها من قوة.. لكنها لم تلبث أن قفزت للخلف عدة خطوات حالما رأت من كان خلف الباب.. اتسعت حدقتا عيناها لأقصى درجة ممكنة كأنها صب أحدهم التروبيكامايد "tropicamide" في عينيها صبا.

لم يرى في حياته شخصا توسعت حدقتا عينييه واحمر بياضهما بهذه الطريقة من قبل إلا مدمني "الكبتاجون". لحسن الحظ كان مؤمن يقف خلفها وتلقفها عندما هوت على الأرض.

لم تنطق كلمة ولم تصرخ ولم تمهل علي حتى إلقاء التحية هي فقط نظرت إليه في رعب ثم سقطت مغشيا عليها.. هكذا فقط بكل بساطة.

ما حدث كان صدمة لها لكنه لم يكن كذلك لهما فقد كانا يتوقعان أن يحدث لها شيء مماثل خصوصا وهي في تلك الحالة التي كانت فيها من هياج وعصبية فصدمة كتلك كانت كفيلة بخفض ضغط دمها مرة واحدة مما أدى إلي نقص الدم الواصل للدماغ وحدوث الإغماء.

هرول إليها علي وبدأ بتحسس نبضها وتأكد من وجوده فتنفس الصعداء ثم طلب من مؤمن أن يساعده في نقلها للسرير ورفع قدمها لأعلى حتى يسهل تدفق الدم للدماغ. كان يبدو أن تلك الطريقة تُبدي نفعاً، ورأى علي أنه من الأفضل ألا يكون موجوداً في الغرفة وأن يجلس في الغرفة المجاورة وقت استيقاظها وفضل أن يشرح لها زوجها ما حدث ثم يمهّد لدخوله.

لم تسر الخطة كما هو متوقع فعندما استيقظت مشيرة بدأ مؤمن بتهدأتها والاطمئنان علي صحتها إلا أنها أصرت أن تعرف ما يجري ولما بدأ مؤمن يياطلها نهضت من السرير وبدأت تجول في الشقة مرة أخرى حتى دخلت الغرفة فوجدت أخيها لكن هذه المرة وعلى عكس ما حدث سابقاً فقد وقفت تحديق فيه قليلاً وتنظر إلى زوجها الواقف جنبها قليلاً ثم أسرع إلى تحضنه وتضمه إليها بشدة.. شدة كانت هي كل الرقة.. كل الراحة.

كيف لم تبدأ بالصراخ؟! كيف لم يغشى عليها مرة أخرى؟! يعلم تماماً أنها تشعر أن الماكث أمامها ما هو بأخيها بل شبحه.. لكنها حتى بشبحه ترضى!

بدأت البكاء وبدأ علي البكاء ومؤمن كذلك (حتى إنه لربما تبدأ أنت أيضاً بالبكاء).

ظلت فترة تحديق فيه دون أن تفعل أي شيء آخر باستثناء النظر إلى زوجها من حين لحين نظرة يبدو فيها كثير من الندم على ما أطلقتته عليه من صفات سيئة وفيها شيء من الحنق والاعتياظ أيضاً لأنه كان يعلم ما حدث ولم يخبرها، لم تكن مصدقة ما تراه لم تكن مصدقة ما تسمعه لكنها كانت مصدقة ما تحس به. لم تسأل عن السبب ولا الكيفية هي فقط كانت سعيدة لأن أكبر أمانيتها تحققت لتوها.

خرج مؤمن للخارج متعللاً أنه سيحضر لها بعض الماء لكنه كان خارجاً كي يرتاح من هذا الموقف الصعب.. فمواقف عاطفية كهذه تجعله يشعر ببروده تحتاح صدره تنقلص أمعاؤه يشعر أنه مكبل. ورأى أيضاً أنه من الأفضل أن يدع لهما بعض الوقت بفردهما فحتى وإن كانا لا يتحدثان لغة البشر فلغة الجسد والنظر تقول ما تعجز أي لغة عن البوح به.

أتستطيع اللغة العاجزة أن تعبر عن "من" "أين" "ماذا" "لماذا" "كيف حالك" "كيف كنت" "ماذا تريد" في كلمة واحدة؟! العين تستطيع فعلها في نظرة واحدة.. دع العين تفعل ما وجدت لفعله.

وبعد مدة لا يعلم أي منهم كم طالت عاد مؤمن مرة أخرى إلى الغرفة وما أن رآته مشيرة حتى بدأت تمسح دموعها وتهاك أعصابها. ثم وبأسلوبها المعهود تتخلله بعض العصبية قالت: هل سيخبرني أحد هنا ماذا يجري أم ستدعوني أجن بمفردتي؟ هل أنا أحلم؟ هل جنت حقاً؟!

"هل جنت حقاً؟!" قالها علي كثيراً في أحلامه -أو ما يفضل أن يطلق عليه واقعه الآخر- التي رآها حين كان في الغيبوبة.. في غيبوبته كان يعتقد أن كل شيء حقيقي.. كذلك مشيرة.. ربما هذه غيبوبتها! أو ربما فقد عقله حقاً الآن، لم يعد يعرف الواقع من الخيال.. الأمر كله لديه أشبه بحلم غريب ومشاعر خفيفة مختلطة يسودها كآبة وإحساس بالتقييد.. يحس شيئاً يكبل عنقه بلجام من نار.. نار هي الألم والحزن والحيرة.

الآن عرفت لما يصورون الأموات الأحياء (الزومبي) في الأفلام الأجنبية على أنهم آكلي عقول.. بكل ببساطة لأنهم فقدوا عقلهم هناك.. من هول ما رأوا!

هاهو يفقدها الآن.. ببطء...

همّ مؤمن أن يشرح لها ما حدث إلا أن علي بدأ بالكلام فصمت مؤمن.
شرح علي ما حدث شرحا مسهبا لم يفته إلا القليل من التفصيل غير ذات أهمية وهي تستمع بإنصات شديد غير مصدقة لما جرى، وطوال الشرح كانت تطلق جمل وكلمات تدل علي الشفقة والعطف ودعمت عيناها أكثر من مرة، اعتلى وجهها العديد من التعابير لكن أغلبها كان الانبهار والشفقة.

ومباشرة بعد أن انتهى من الشرح ضمته إليها مرة أخرى، وواسته كثيرا، واسته بصدق..
النساء حقا تعرف كيف تعبر عن مشاعرها بصدق.. تعرف كيف تواسي وتتعاطف وتشاركك همك.. تبالغور الرجال.

ابتعدت عنه ومسحت البلبل على وجهها من الدموع وهي تستدير تجاه مؤمن الذي كان يجلس علي الأرض منزويا في أحد أرجاء الغرفة منتظرا قليلا من تلك المواساة، ما رآه ليس بالهين أبدا. مدت يدها إليه باسطة كفيها الرقيقتين فنهض من مكانه متعلقا بهما فضمته هو الآخر، وبدأت في سيل من الأعذار، اعتذرت عما فعلت وعما وصفته به.

كان سعيدا لأنها تفهمت الموقف بسهولة، لكن سعادته لم تدم فقد بدأت بتوجيه الاتهامات له وأنه يخفي عنها الأسرار ولم يخبرها بما حدث حتى اكتشفت بنفسها.

عاشقة لافتعال المشاكل وإنهاء اللحظات الرومانسية.. تماما كأخيها.

لم يدعها علي تكمل اتهاماتها له بإخفاء الأسرار فقال بسخرية: هل رأيتي ما حدث لك عندما رأيتي وجهي أول مرة! وكنت تريدنا أن نخبرك الأمر بهذه السهولة دون مقدمات؟ عجب أمرك!

-لا تنفك تسخر مني ما أتيت لك الفرصة، هذا جزائي لأنني كنت حزينة عليك! ليتك ترى ما حدث لو الدتنا فهي في حالة يرثى لها.

غمز لها مؤمن بعينه ونكزها بكوعه فأدركت أنه يريد لها أن تتوقف عن الحديث؛ لذا قامت بتغيير الموضوع قائلة ببلاهة: لمن هذه الشقة الفخمة؟ ربما لم تُنح لي الفرصة للقاء نظرة جيدة عليها لكنني فشلت كل جزء فيها قبل دخولي غرفة علي. قالتها ونظرت لمؤمن ثم بدأت تضحك.

رد مؤمن ضاحكا أيضا: وأي تفتيش أنت لم تدعي موضع قدم إلا وضعت بصمتك فيه. وقتها حيث أحس علي أن الوضع أصبح شاعريا أكثر من اللازم بينهما..

لكن لم يتوقف حديثها عند هذا الحد حيث قال مؤمن برومانسية وبكلامه المعسول: هل أعجبتك الشقة حقا؟ لم لا تأتي نأخذ جولة بها. ثم بدأ يفعل بوجهه تعبيرات تشبه كثيرا التعبيرات علي وجه "حمدي الوزير" (أحد الشخصيات في فيلم قبضة الهلالي).

ضحكت مشيرة هذه المرة بشدة لكنها رفضت عرضه لتفحص الشقة واكتفت بسؤاله مرة أخرى عن كيف استطاع أن يحجز شقة بهذه السرعة!

كانت تلك هي اللحظة التي أنتظرها منذ فترة طويلة، مذ شرائه لتلك الشقة خصيصا ليرى ردة فعلها عندما يخبرها أنها اشتراها لها خصيصا وبدأ بضم ياقتا قميصه إلى بعضهما كي يبدو بمنظر الشخص المذهب "gentleman" كما يرى في الأفلام.

قبل أن يكمل جملة طارت مشيرة من السعادة ونهضت من مكانها وذهبت إليه وبدأت تضمه وتخبره أن هذا أسعد يوم في حياتها فقد تحقق لها كل الأشياء التي كانت تتمناها مرة واحدة، ولعل سبب انتفاضتها وتقربها من زوجها ليس بسبب الشقة فحسب بل تعويضا عما بدر منها منذ قليل وكانت محرجة من وجود أخيها -الذي هو في الأصل سبب كل هذا- لكنها اتخذت شرائه للشقة حجة لتظهر فرحتها كلها مرة واحدة.

في تلك الأثناء وجد علي أنه من الأفضل أن يخرج هو هذه المرة ويتركها بمفردهما في الغرفة إلا أن مشيرة أمسكت بيده وقالت له بتوسل: لا أريدك أن تغيب عن ناظري مجددا، على الأقل حتى أعتاد ما حدث وأنساه. لا تتركاني.

كيف عساه أن يترك شخصا بعدما توسله هكذا!

هز رأسه موافقا وجلس علي السرير مرة أخرى وكان مؤمنا قد أدرك أن علي يشعر بالخرج مما حدث فابتعد عن مشيرة ثم بدأ يسألها باستغراب وبلهجة جدية أكثر: بالله عليك كيف عرفتني مكاننا هنا؟ أنا لم أخبر أحدا تقريبا بهذا المكان.

قالت متدللة وهي تخلل صوابعها في شعرها بلطف: إنها قصة طويلة.

فبعد أن غبت عني طوال هذه المدة وكنت تتهرب من مكالماتي بدأت وساوس الشيطان تجول في رأسي؛ لذا لم أجد بُدا من الاتصال بمركز الشرطة الذي كنت تعمل فيه لأعرف ما

يحدث بالضبط، ودُهلّت جدا عندما علمت أنك أخذت إجازة بالفعل منذ يوم وفاة علي كما أخبرتني وأنه لا وجود لمأمورية سرية بحثا عن تجار مخدرات ومهربين وهذه الأشياء التي كنت تقولها لي، جُن جنوني وأقسمت على ألا أبيت إلا وقد قلبت حياتك سودا وجعلتك تتمنى الموت.

كنت أعلم أن أحدا من أصدقائك لن يفيدني فذهبت مباشرة إلي صديقك "ناصر المهندس"؛ فأنا أعلم أنك دائما ما تخفي أسرارك معه.

ظل يردد أنه لا يعرف شيئا وبلا بلا بلا... حتى مثلت أنني قد أغشي عليّ -لربما أغشي علي حقا فقد اجتمعت علي الصدمات- وظللت أزرف بعض الدموع حتى أخبرني أنك ذات مرة أخبرته أنك اشتريت شقة في الأسكندرية وكنت تريد أن تجعلها مفاجئة لي، فلم أزل ألح عليه حتى وصف لي العنوان بالتفصيل وجئت إليكم بأقصى سرعة. وهذا كل شيء فقط. أنهت جملتها بكل بساطة وكأن كل هذا المجهود هو شيء بسيط يمكن أن يقوم به أي شخص.

وهما مذهولان كل واحد منهما فاغراه لما سمع وعرف من مكر النساء. وكيف أنها فعلت المستحيل وتركت عزاء أخيها كي تتأكد من وهم أن زوجها يخونها، إنها أشياء تستعصى على فهم الرجال حقا.

-الآن تأكدت من المقولة القائلة أن المرأة سميت كذلك لأنها تمرر عيشة الرجل. قالها علي مبتسما.

-هاهاها مضحك جدا. ردت مشيرة بسخرية.

كان مايزال هناك شيء آخر يشغل بال مؤمن فسألها مستفسرا: كيف أنك تقولين ان "ناصر" أخبرك أنني اشترت شقة وكنت أريد أن أجعلها هدية لك ومنذ قليل كنت تسأليني عن صاحب تلك الشقة وكيف وجدتها؟!

-كنت أعلم لكني أردت أن اسمعها منك شخصيا. انفجرت تفهقه في هستيريه بعدها. كاد مؤمن أن يبدأ جولة أخرى من المغازلة بعد تلك الضحكات الماجنة لكنه اكتفى بالنظرات عن بعد فقط هذه المرة مراعاة لشعور نسيبه.

وقفت مشيرة أمام الباب وبدا عليها التردد الشديد إذ لم تكن تريد أن ترحل وتودعها بهذه السرعة إلا أنها ألحاً عليها إلحاحا شديدا كي تعود للمنزل وتُصبر والدته في تلك الظروف العصبية التي تمر بها.

كانت تتمنى كل المني أن تزف إلي والدتها خبر عودة أخيها إلى الحياة بيد أنها أكدا عليها مرارا وتكرارا ألا تتحدث أمام والدتها في هذا الموضوع على الإطلاق حتى يهبأها لرؤية فقيدها دون أن يحدث لها ما حدث مع مشيرة فهي امرأة كبيرة وربما لا يحالفها الحظ ولا تتحمل تلك الصدمة، يكفيها تحملها صدمة الوفاة مرة.

لم يكن ذاك سببا مقنعا لها فقد كانت ترى أنه كلما أسرع بإخبارها بالحققة كلما سهل عليها تقبلها، في الواقع كان كلامها هو الأقرب للمنطق لكن لم يكن ذاك هو السبب الوحيد لعدم إخبار عطيات بما حدث، فمؤمن وعلي يريدان بعض الوقت كي يعرفا بعض

المعلومات عن تلك "الجماعة" وعن حقيقة ما حدث مع علي هل كان مصادفة أم هل كان عن عمد...

فتح لها مؤمن الباب لتخرج إلا أن دموعها خرجت أولاً.

قام علي بمواساتها وأخبرها أنه هكذا أفضل للجميع وأنه قريباً جداً سيعود الوضع كما هو عليه. طمأنها ذلك وشدّ من أزرها وقبل أن تغادر طلبت منهم أن يكونوا دائماً على اتصال بها ويرسلوا لها الرسائل ليطمئنوها على حالتهم ثم لوحث لهم بإشارة وداعية وانصرفت وهي تمسح خديها أثر بكائها بالمنديل. ودعاها بدورها وعادا إلى الصالة مرة أخرى.

- هل تصدق هذا يا صديقي؟! أغيب عنها ثلاثة أيام اتهمني بالخيانة وتقوم بالتمثيل على أعز أصدقائي كي تحصل علي بعض المعلومات عن مكاني!

كان علي شاردًا قد ارتسمت على وجهه ملامح الدهشة والتفكير المتعمق والتي بدورها نُقلت على وجه مؤمن. ثم قال بحيرة وتردد: أنت الذي لن تصدق ماذا تذكرت الآن.

تذكرت أنني في صباح يوم الحادثة قبل ذهابي للعمل تلقيت رسالة بريدية تذكرت هذا عندما طلبت منا مشيرة أن نُرسل لها الرسائل لنطمئننا عليها.

كانت هذه تقريباً أول مرة في حياتي أتلقى فيها شيئاً عن طريق البريد لذا كنت متفاجئاً جداً حينها، كان مضمون الرسالة غريباً لذا لا أذكر بالتفصيل الذي كُتب فيها لكنني أتذكر بعض المقاطع منها والتي كانت تمثل خواطر أو هي أقرب للهذيان منها جُمل مترابطة مثل: "المضحك عليه.. هو أيضاً هشاشة، انثلام المعنى في بيضة ترغب أن تتحرر قبل كسرهما.. هل نجفف أعمارنا على هوى صدفة!" و"الموسيقى التي مرت على صدغيك هي طنين

بعوض يحين والزوايا الليلية الزاحفة.. المبصرة.. لن تراك أبعد من شواش بطيء.. العويل من قبضة الحديد تلك والسكين يتسم للسكين!"

أما باقي الرسالة كان يتمحور عن أن الطريق مظلم وأن الأسود أكثر الألوان بياضا، وأن السواد قادم لا محالة وأن الناجون وحدهم الهالكون!

وأشياء أخرى لا أتذكرها تحديدا وأشياء لا أعرفها لأنني لم أكمل قراءة بقية الرسالة إذ كانت طويلة ولم أفهم ما فيها من كلام؛ لذا ظننت أنها أرسلت إلي عن طريق الخطأ فلم أكمل قرائتها ووضعتها في درج مكتبي لحين عودتي من العمل ومعرفة كيف أتصرف بها، بالإضافة إلى أن عنوان المرسل كان غريبا ولم يكن هناك توقيع على الرسالة أو أي شيء يدل على هوية مرسلها.

حكّ مؤمن ذقنه ثم أعاد بعض العبارات التي قرأها عليه علي مما تذكر من الرسالة وفكر قليلا ثم قال: وهل تعتقد أنها كانت شفرة يمكن أن توصلنا إلى شيء ما؟ أنا لم استطع أن أجد ربطا بين هذا الكلام حتى الآن.

أردف علي بلهجة الوثائق من نفسه: من المؤكد أنها شفرة بحاجة لشخص يقوم بحلها، من المستبعد أن تكون مصادفة.. أليس كذلك؟ لربما كانت رسالة تحذير!

-هذا هو خيطنا الحالي الوحيد، فلنأمل أنها كانت شيفرة ونستطيع حلها. أنت عبقرى لأنك اكتشفت هذا الأمر.

على الرغم من تلك المجاملة اللطيفة المبالغ فيها، إلا أن الرعب قد اجتاح قلبه وعقله.. حتى بدأ يحرك قدميه جيئةً وذهاباً من فرط التوتر، لم تخف تلك المشاعر عن مؤمن الذي أخبره أن كل هذا لا يعدو كونه مجرد توقعات وتخمينات.

دقت طبول الحرب..

أخبره أنه سيقطع الشك باليقين ويذهب إلى منزله ويحضر الرسالة لفحصها عن قرب وبشكل مفصل للتأكد من صحة نظريتهما تلك.. وأيضاً يُسلم على حماته التي بالتأكيد تعتقد الآن أنه لا يجبها ولا يهتم بأمر عائلتها، لكن كان أكثر ما أقلق علي هو أن يكون أحد آخر من أقاربه قد أمسك الرسالة أو أضاعها..

طمأنه مؤمن سريعاً وأخبره أن والدته منعت أي أحد من دخول غرفته مطلقاً بعد وفاته، كان هذا كفيلاً ليهدي من روع علي ويتيح له فرصة أكبر للتفكير في سبب كل هذا وما هي الأحداث التي أدت لجعل شخص يرغب في وضع سم له، أو أن يرسل له أحد رسالة غريبة عن الشر والخير!

لم يكن لدى مؤمن متسع من الوقت للتفكير فقد انطلق وارتدى ثيابه واتجه صوب منزل كي يجد تلك الرسالة المشؤمة ويحسم الجدل في هذا الموضوع. كانت الألغاز تزداد كثافة والوقت لا يتسع.

"إذا أحببت أحداً فأخبره ليعلم وكررها ليطمئن وأعمل بها ليقون"

جلس ينتظر خارج مكتبه لما يزيد عن الساعة ونصف.

لم يعد يطيق صبرا، بدأ يعتقد أنه بالداخل يماطل في الاجتماع خصيصا من أجل تجنب مقابله وربما لم يكن هناك اجتماع من الأساس فهو بالخارج منذ فترة كبيرة ولم ير أحدا يدخل أو يخرج ولا سمع أية أصوات بالداخل، كان غاضبا جدا وأراد أن يصب جام غضبه على أي شيء أو شخص فلم أمامه سوى السكرتير الخاص بصاحب المكتب.

كان "وائل الأبيض" (السكرتير) رجل أربعيني متوسط الطول حليق الرأس واللحية من الجانبين أما في الأمام فقد ترك شاربه والشعر على ذقنه ينموان مشكلا بذلك ما يشبه حلقة دائرية حول فمه أو ما يعرف حاليا بـ "الدوجلاس" كان يرتدي نظارة طبية بنية اللون، لم يكن يرتدي بذلة رسمية كحال معظم من يعملون في مجاله، بل كان يرتدي قميصا "أوف وايت" وفوقه جاكيت أسود اللون.

كان شبيها جدا ببطل احد المسلسلات الأجنبية.. ينقصه فقط اعتماد قبعة سوداء كبيرة حتى يكتمل الشكل العام!

كل هذه أشياء فكر فيها أثناء انتظاره أما الآن فهو غاضب ولا يعنيه أي من تلك الأشياء هو فقط يريد أن يدخل إلى هذا المكتب اللعين لينجز ما أتى من أجله. بدأ يصيح بشدة وكان صوته عاليا جدا؛ مما أضطر السكرتير إلى التهديد بطلب الأمن ليخرجوه من المبنى كله.. لم يتحمل تلك الإهانة فأقسم أنه سيغادر الآن لكنه سيعود ولن يهدأ ولن تسكن له ساكنة حتى يوصل الرسالة التي أتى من أجلها.

واستدار للخلف فيغضب كي يخرج بكرامته، لكنه تفاجأ بشخص يقف خلفه مباشرة.. أفرعه ذلك فهو لم يسمع صوت أحد يدخل المكان، على الأرجح أنه دخل بينما هو في خضم غضبه وكان صوته عاليا لذا لم يسمع صوت قدميه.

كان رجلا كبيرا قد ناهز السبعين من عمره لكنه يبدو بصحة جيدة جدا مقارنة بشخص مثله في هذا العمر. كان شعره كثيفا أبيضاً بلون الكلس، أمرد، بدين قد امتدت بطنه أمامه مسافة ليست بالقليلة، كان يرتدي بذلة بنية ذات نقش مربع أسفلها قميص واسع لكن بالنسبة لحجم بطنه فقد بدا ضيقاً حتى أن بعض أزراره تكاد تنفتق عن بعضها البعض، كان يحمل بيده كوباً ورقياً (ورق مقوى) به قهوة ساخنة كان ممتلئاً حتى أخره تقريباً لذا سقط منه القليل على الأرضية عندما رجع الرجل للخلف حينما استدار أحمد خارجاً، وفي يده الأخرى يحمل حقيبة جلدية تبدو قيمة جداً.

بدا الرجل هادئاً جداً وصارماً في نفس الوقت حتى إنه لم يلتفت لما فعله أحمد بإسقاط القليل من قهوته على الأرض. نظر إليه شزراً ثم أكمل طريقه نحو باب الغرفة الخاصة بالدكتور حاتم دون أن يأخذ إذناً من السكرتير -الذي يبدو أنه يعرفه- أو ينظر إليه حتى، وعندما فتح باب الغرفة ظل ممسكاً بالباب بيد وبيده الأخرى كوب القهوة والحقيبة ثم استدار موجهاً نظره إلي أحمد وقال: هل ستدخل يا أحمد أم سترحل؟

اندهش أحمد من أنه يعرف اسمه وأنه يتعامل بهذه البساطة مع الأمر وكأنه داخل إلى مكتبه هو! ظل أحمد يجول بنظره بين هذا الرجل مرة وبين السكرتير مرة متعجباً مما يحدث، وفي النهاية يبدو أن يد الرجل قد أوجعته من حمل الحقيبة والقهوة معاً فترك الباب وأعاد الحقيبة إلى يده الأخرى كسابق عهدها ودخل الغرفة؛ فانطلق أحمد مسرعاً وأمسك بالباب قبل أن يغلق.. ثم لاحظ أنه بدا كطفل ساذج يركض.. فتصنع وجهاً من الوقار يليق مع الموضوع الذي هو بصدد الحديث عنه.

كان المكتب واسعاً جداً من الداخل، الجدران مطلية بلون رمادي فاتح "سيلفر" وخلف مكتب الدكتور حاتم حوض أسماك كبير جداً به أنواع كثيرة من سمك الزينة الأعلى ثمناً في العالم.

على اليسار كانت هناك طاولة كبيرة جداً وحولها ستة عشر كرسيًا جلدياً يبدو أنه يقام عليها الاجتماعات الصغيرة السريعة فهناك غرفة أخرى كاملة مخصصة للإجتماعات، لكن كانت هذه الطاولة فارغة تماماً يبدو أن توقعه كان صحيحاً وأن موضوع الاجتماع هذا كله كان كذبة.

وعلى اليمين هناك ما يشبه صالون فخم جداً مرسوم عليه بعض الرسومات التي تمثل "روميو وجوليت" وخشبه من الزان الأصلي، ذهبي اللون شديد الصفار ومن منظره أكاد أجزم أنه لا يشارك الذهب في اللون فحسب بل الخصائص أيضاً فهو مطلي بلاء الذهب على الأرجح وهذا شيء غير مستبعد من الدكتور حاتم أن ينفق كل هذه الأموال على الديكورات من أجل حب الظهور والشعور بالفخامة.

أشار له الدكتور حاتم بيده ودعاه أن ينضم له هو والرجل الآخر علي مكتبه القابع في واجهة الغرفة المقابلة لباب الدخول، كان الدكتور حاتم يجلس علي كرسيه خلف مكتبه أما الرجل الآخر فكان يجلس أمام المكتب على يمين الدكتور حاتم، تقدم أحمد تجاههما ببطء ووقار مصطنع وعندما اقترب أشار له الدكتور حاتم بالجلوس مقابلاً للرجل الآخر.. فجلس أحمد وبدأ ينظر إلى الرجل الآخر الذي وضع حقييته على المنضدة الواقعة بين كرسيه والكرسي الذي يجلس عليه هو ثم بدأ بإخراج بعض الأوراق منها وأيضاً نظارة طبية لتساعده على القراءة، كان يبدو أن الرجل يعلم ماذا يفعل وأنه لا يريد أن يضع

الكثير من الوقت في الحديث. أو ربما أراد ان يكتسب وقارا مزيفا مثله! لا. هو ليس بحاجة للتصنع لا يبدو من هذا النوع.

تجاهله أحمد ثم وجه نظره إلى الدكتور حاتم وما أن بدأ ينطق أول حرف من كلامه حتى رفع الرجل الآخر وجهه من على الطاولة ومد يده مُسلما على أحمد قائلا: "راضي منصور" محامي الدكتور حاتم ومسئول عن جميع قضاياها وأدير مكتب محاماه يضم عددا كبيرا من المحامين في جميع التخصصات. تشرفت بمعرفتك.

رجل بتلك الأناقة و"الكاريزما" يُعرف نفسه بهذا التعريف فحسب؟ ليس هناك عبارات مثل "أملك دكتوراة في...." أو "كنت موكلا عن فلان (شخصية مشهورة)" أو شيء من هذا!

فقط محامي وله مكتب محاماة! أهذا تواضع أم هو لا يملك حقا شيء للتفاخر؟ من المرجح أنه لم يرد أن يضيع المزيد من الوقت في تعريف نفسه فلربما يعتقد أنه غني عن التعريف أو أن الجالس أمامه أقل من أن يعرف عنه شيئا!

فاجئه هذا الفعل وأربكه.. لم يكن يتوقع منه أن يُسلم عليه أصلا، ليس قلة ثقة في نفسه وإنما شعور واثق بأن هذا الرجل ليس حقيقيا!

لقد جُن هو الآخر.. جُن من التجاهل من المماطلة من الخداع!

جعلته نظرات الرجل الجادة -للحظات بسيطة- ينسى غضب العارم، لم يكن من اللائق أن يُبقي يد الرجل معلقة في الهواء هكذا فمد يده وصافحة متبعتها بعبارة تدل على الترحيب.

لكن لماذا؟ لماذا يكون دائما من يلقي التحية حتى على من يكرههم؟ لماذا يعتذر دائما حتى وإن لم يكن مخطئا أو على الأقل لم يكن يشعر بالذنب؟ هو فقط يعتذر ويلقي التحية دون تفكير.. تماما كوالده! تظن أن ما يفعله والدك خطأ وأنت لن تكون خانعا مثله.. ستكون مسيطرا إذا شأن.. لن تكون قطعة لحم تنهشها الذئاب.. ستكون -لو أضرت- الذئب.

ثم تتفاجئ أنك تشبهه، تفعل كما يفعل تقنع نفسك بذات الحجاج التي ما أثارت في نسختك الأصغر إلا الاشمئزاز والشعور بالدونية.. ولم لا؟! نفس الجينات نفس البيئة النتيجة المتوقعة هي نفس التصرفات.

إذا كان العقم يمكن -في حالات نادرة- أن يكون وراثيا (حقيقة) فلماذا لا تكون الأفكار والتصرفات كذلك؟!

بلهجة جادة خالية من التعبيرات: دعنا ندخل في الموضوع مباشرة، أنا سأختصر عليك الأمر.

-لا، شكرا هذا أمر بيني وبين الدكتور حاتم سننهي بمفردنا لسنا بحاجة لتدخل أحد. رشف رشفة من قهوته أحدثت صوتا مزعجا وكان هذا الفعل لا يتناسب مع هيئته على الإطلاق. أنهى رشفته ثم أكمل بذات الوتيرة: لقد وكلني الدكتور حاتم نائبا عنه، أنا خير في أمور كتلك وسننهي الموضوع بسرعة وسلاسة.

رمى الدكتور حاتم بتعجب واشمئزاز والذي بدوره وجه بصره تجاه المحامي ولم ينطق حرفا. يبدو أن المحامي قد حذره من الكلام وأخبره أنه سيتولى هو الأمر كله، كاد ينفجر

غضبنا كما حدث بالخارج إلا أن الهدوء المائل في المحامي أمامه جعله يتحلى بشئ من الصبر والهدوء.. أو الجبن!

أكمل المحامي وهو يرفع نظارته التي انزلت على أنفه: هلا بدأنا الحديث المفيد الآن؟
أذعن أحمد متبرما فلم يكن أمامه خيار آخر على ما يبدو.

ثم. وبلهجة متعالية محاولا اكتساب المزيد من الهيبة والاحترام وتقوية موقفه الضعيف هنا فالرجل الجالس أمامه يمتلك كاريزما عالية تغطي على من حوله قال: أمم حسنا لا مانع عندي، لكن أريد أن أطلعك على سر صغير سيبهرك.. الأمور التي يفعلها المحامون والسياسيون تلك لا تفلح معي ففي الأخير سأحصل على ما أريد.
قال المحامي بكثير من الثقة والكياسة: سنرى....

(21)

"القلب المملوء حزناً كالكأس الطافئة، يصعب حملها"

"مليء بالاكئاب والهالات السوداء وحقن المستشفى.. بتراهات الخيال وخرفات عقلي. لا أمتلك عصاً سحرية. حالي بسيط جداً.. لكن صعب الفهم.

لأول مرة أستيقظ لأكتب.. لأكتب وحسب.. لا لارتشاف القهوة.. ولا لتذوق مرارة النهار المعتادة.. ولا حتى لتصليح كسوري الطفيفة.. كنت قد خسرت النصف المملوء من مفرداتي في الفترة الأخيرة.. كحال النصف المملوء من كياني.. بل لربما فقد كوب كياني

كله. شهواتي تتراجع.. تتبدل خوفاً وشقاء.. انغماسي في التفكير يصل إلى حد الإدمان..
تقبلي للأشياء المريرة صار سُكراً فاخراً، الأيام تتبدل.. المتعة الحقيقية أن لا تترك مساحة
فراغ أمام عقلك كي لا يستفرد بك ويهزمك.. أيام متوالية وأنا أعيش متقمصاً دور
شخص متأقلم مع ما حدث.. شخصية لا علاقة لي بها.. مندهشاً من تجربة لم تأتي على بالي
من قبل.. الصدمة كانت سبب كل ذلك.

كان في روحي شق هائل.. وليست أملك خيطاً ولا إبرة.. أعتقد أنك ظننت أنه التأم.. لا.
ربما كنت بارعاً في إخفائه وحسب.

دائماً ما نمت وأنا قلق.. وكان انتصاري الأوحده.. تلك اللحظة الأخيرة.. ذلك الهدوء قبل
أن أنام.. الأمان الذي ينبعث من كل مكان في هذا الكوكب.. أكون آمناً للحظة.. قبل أن
أستيقظ وأركض في المنام. أجد نفسي مسجون في مكان ما.. مرة في قبو قديم وأخرى في
زنزانة.. في بيت كثير الأبواب والسلالم في بيوت مظلمة.. في بيوت مهجورة.. في غرف بلا
أبواب ولا شبابيك في أرضٍ يابسة تتكسر.. فأصحو خائفاً.. يلأزميني هذا الخوف طوال
اليوم.. دائماً أحاول الهروب فلا أستطيع.. لقد حوصرت.. إلى الأبد"

علي رشناذ

مرت ثلاثة أيام منذ أن غادر مؤمن منزله في الأسكندرية ولم يعد بعد. كان جليس علي
الوحيد ومؤنسه وقتها هما الكتابة والقراءة.

كانت هذه أول مرة يلاحظ تغير نظرتة للقراءة.. أحس بتغير كل شئ لكنها أول مرة يحس بتغير ذوقه الأدبي، فحتى الشعر الحر الذي كان يهاجمه بشدة الآن أصبح يرى أنه هو التحرر من القيود.. وأن الحياة قصيرة ولا داعي للتقيد بقيود القافية وأنه يكفي الإنسان القيود التي تحيط به من كل حذب وصوب.

أخافه هذا الشعور جدا فقد تغير أكثر أصبح أقرب إلى سمكة بلا أية مشاعر باستثناء أنه يزيد عنها في أنه يمتلك شعور قوي بالخوف لازمه منذ تلك الحادثة، لقد شعر أنه أصيب بعدد لا حصر له من الرهاب "الفوبيا" أكثر حتى مما هو مكتشف في العالم حاليا أصبح يخشى كل شئ.

كل تلك المخاوف والأحاسيس ظهرت عندما جلس وحيدا وبدأ بتذكر ما حدث له في تلك الليلة مرارا ومرارا ومثّل الشريط الذي أصيب بالعطب وأصبح يتكرر بلا انقطاع، ولم لا يفعل؟ أليس هو أشبه بشريط حياته الذي قد تبدلت نهايته وأنت في وسطه فأصبح تائها لا يدري إلى أي الفريقين ينتمي! كان من المفترض أن المقبرة نهايته وتكون بداية جديدة.. لكنه عاد لوسط حياته القديمة المزدهمة بالأشياء عديمة القيمة.

كان في كل مرة تراوده تلك الكوابيس فيها يشعر بالضيق وأنه غير قادر على التنفس على الإطلاق وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي يتوقف فيها عن التفكير فيما حدث.. يتوقف فقط عندما يفكر في كيف يأخذ نفسه بشكل أفضل وكيف يُحسن من حالته، يبدو - وبعد كل شئ- أن غريزة البقاء تظل هي المسيطرة على الإنسان مهما زادت الغرائز الأخرى وتنوعت المخاوف.

كان مؤمن دائما ما يتصل به ويخبره أنه وصل إلى معلومات مهمة وسيخبره بها حين يعود قريبا، ثم يحدث شيء يجعله يؤجل فكرة عودته. وكان كل مرة يصبر ويقسم على أنها آخر مرة وسيعود بعدها ويحكي له ما حدث بالتفصيل ثم يحنث!

في اليوم الثالث لم يطق علي -الذي كاد يجن من كثرة التفكير والجلوس وحيدا والكوابيس التي تطارده- صبرا وأخبر مؤمن أنه إذا لم يحضر له خلال ست ساعات ويخبره ما حدث بالتفصيل سيرتدي ملابسه وينطلق إلى منزله غير عابئ بما يجري. طار عقل مؤمن وبدأت نبرة صوته ترتفع وأخبره أنه يفعل كل ذلك من أجله وأنه يجب أن يكون مقدرا للموقف أكثر من ذلك ويتحلى بالصبر إلا أن علي أصر على موقفه بشدة فأقسم له مؤمن أنه هذه هي آخر مرة يؤجل رجوعه فيها، وطلب منه أن يمهله ثمان ساعات على الأكثر وسيكون متواجدا أمامه في الشقة ويروي له مغامراته.

وافق علي ما قاله مؤمن.. وها قد مر ما يزيد على السبع ساعات منذ آخر حديث بينهما ولم يعد مؤمن بعد! لذا بدأ علي يفكر في عقله عن الطريقة التي سيعود بها لمنزله وكيف سيقابل والدته ومعارفه مرة أخرى.

لماذا لا يخبره بحقيقة الأمر؟ لماذا يبقيه بعيدا عن التحقيق دائما؟

لماذا يبنّي استنتاجات على معطيات ضئيلة ويتعامل مع استنتاجاته على أنها الصواب المطلق؟ لماذا لم يرسل له صورة عن الرسالة كي يجعله يشارك في تحليلها؟!

ماذا يقول؟! لقد فقد عقله؟! لم يشعر بتلك الحيرة عندما رأى والده يخلق في أحلامه.. أم لم تكن أحلاما؟!

قطع صوت الجرس عواصف أفكاره تلك وبالفعل كان مؤمن هو الذي يقف خارجا حاملا بيده ملف أصفر مليء بالأوراق وخارجه كانت مفكرة يوميات علي .
استقبله بحفاوة مبالغ فيها.. فهو تقريبا لم يقابل أي شخص - باستثناء بواب العمارة الذي كان يحضر له الطلبات - منذ ثلاثة أيام؛ لذا كان هذا بمثابة طوق نجاة له من عالم الوحدة وبحر الذكريات (الأحزان).

بدا مؤمن مرهقا جدا قد اسود أسفل عينيه وانتفخا وتورم جفناه، شعره منكوش وثيابه ليست بأفضل من شعره، يبدو أنه بذل جهدا كي يبدو بصورة جيدة لكن هيهات.. حالة كهذه لا تخفى على أحد.

ألقى علي التحية فردها عليه بصوت خفيض هزيل وانطلق نحو الكنبه حيث أرحى أعصابه وترك الجاذبية تقوم بعملها محدثا صوت ارتطام قوي ثم استلقى على جانبه ليستريح من الإرهاق البادي عليه.

أراد علي معرفة سبب الإرهاق الشديد هذا.. وأكثر من ذلك، أراد معرفة الأشياء التي ظل مؤمن يخبره أنها وجدها وأنها مهمة جدا ولا يمكن أن يخبره بها على الهاتف، لكن مؤمن كان أمامه ممددا على الكنبه كقطعة خشبية تطفو على بحر ذهبي (كلون الكنبه الجالس عليها).

أحيانا تكون جاذبية السرير أقوى من الأرض بعشرات المرات.. لا يقاومها تعب .
لم يجد مفرا من التحلي بالصبر وانتظاره حتى يستريح . ساعده على ذلك التقاط مفكرته من يد مؤمن الذي سلمها إياه دون أية مقاومة كما فعل مع الملف الأصفر، ذاك الملف الذي

كان يحتوي على ورقة طويلة موضوعة في غلاف من ورق مقوى، كان شبه متأكدا من أنها هي الورقة المنشودة، إنها الرسالة..

سُمع صوت الجرس، تبعه ثلاث طرقات خفيفة على الباب، انطلقت مشيرة مسرعة كي تفتح الباب للطارق معتقدة أنها إحدى النساء اللاتي أتت كي تؤدي واجب العزاء في أخيها. فتحت الباب فتفاجئت بالطارق.. فقد كان زوجها مؤمن الذي سلم عليها، ثم تقدم بضع خطوات في الصالة فوجد عطيات تجلس في نفس المكان الذي تركها فيه آخر مرة بنفس الوضعية تقريبا ونفس النظرة وعلى الأغلب نفس العباءة ونفس الحمار الذي كانت ترتديها حينها. لم تحرك ولا عضلة واحدة منذ دخوله حتى ألقي عليها التحية فرفعت رأسها ونظرت إليه شزرا ثم رفّت بعينيها وطرقت ظهر يدها اليسرى بكفها الأيمن كعادتها عندما تكون ساخطة على أحد.

لم يتفاجئ برد فعلها كثيرا فقد كان يتوقعه لكن غير المتوقع كان قدومه في هذا التوقيت وهو ما لم تتقبله مشيرة التي ذهبت إليه وجذبتته من ذراعه وسحبته إلى جانب الصالة مبتعدة قليلا عن المكان الذي تجلس فيه والدتها ثم سألته بصوت هادئ مشوب بالحيرة والقلق:

-ماذا حدث؟ ما الذي جاء بك إلي هنا؟ ألم تكن الخطة أن تظل مع علي حتى تهدأ والدتي ثم تخبرونها بحقيقة ما حدث!

لم يستطع أن يخبرها السبب الحقيقي لمحبيته فلم يرد أن يبيت في نفسها الرعب وأراد أيضا أن يكسب نقطة تعاطف لصالحه تجعلها تنسى كذبه عليها وعدم إخبارها حقيقة ما حدث

لأخيها؛ لذا أخبرها أنه عاد كي يطمئن على حماته وكي يحسن انطباعه الذي تركه لديها المرة الأخيرة عندما غادر صباح اليوم الثاني لوفاة ولدها دون أن يصطنع عذرا مقنعا على الأقل.

زفرت ثم نظرت إلى والدتها التي تجلس في زاوية الغرفة المقابلة لهم لتطمئن أنها لم تسمع شيئا ثم أكملت في عدم فهم:

-لقد كنت معك منذ قليل لم يمضي على خروجي سوى عدة دقائق، فلماذا تركتني أعود بمفردي ثم تأتي أنت بهذه الصورة المفاجئة؟!
-لم اكن قد قررت حينها أن آتي معك لك....

لكمته برفق على ذراعه ونظرت إلى حيث تجلس والدتها ثم عادت تنظر إليه مرة أخرى ووضعت سبابتها أمام شفيتها وقالت:

-شششششش أنا لم أخبر أُمي أنني كنت عندك، لا داعي لأن تعرف ذلك الآن، كلما قللت الكلام معها سيكون أفضل. نحن لا نريد أن يحدث تضارب في أقوالنا وتشعر أن خطبا ما يحدث. وصدقني عندما أقول لك أنها تشعر عندما يحدث شيء ما.

أومأ بالإيجاب في استيعاب. وانطلق إلى حماته وجلس على الأرض بجوار قدميها وبدأ يشد الأعذار والحجج وهي صامدة لا تغيره أي انتباه على الإطلاق.

بدأ يشعر بالملل ويفقد الأمل في أن تقبل اعتذاره ولحسن حظه قبل أن يقوم ويتركها من نفسه أشارت إليه زوجته أن ينهض ويتركها بمفردها قليلا فهي لن تسامحه بهذه السهولة. ادعي أنه لم يكن يمانع لو جلس اليوم بطوله يترجاها ويستعطفها وأنه ليس لديه أغلى

وأحب إلى قلبه منها؛ ابتمت مشيرة وهو يمتدح والدتها لأنه خيل إليها للحظات أنه يمتدحها هي لا والدتها...

تجد طريقها إلى الرومانسية في كل شيء! بعد كل شيء لا يبدو أنه امرأة "جلفة" كما كان يعتقد.

أخبرته زوجته أن يرتاح ريثما تعد الطعام، وكانت هذه فرصة مثالية ليقوم بالعمل الأساسي الذي ذهب من أجله.

انتظر دخول زوجته إلى المطبخ وانشغال وحامته بالدعاء والتضرع ومناجاة ربها وتسلسل إلى مسرح الجريمة! غرفة علي التي كانت كالغرفة المحظورة منذ إعلان وفاته. هو متأكد أنه لو علمت عطيات بدخوله هذه الغرفة دون إذن منها سينقشع عنها هذا الصمت وتخرج من بوتقة الهدوء تلك وستفضحه في المنطقة بأكملها - وهذا آخر ما يريده بعد الفضائح اللتي فعلتها زوجته في الأسكندرية - ولقاطعته الدهر كله؛ لذا كان حذرا جدا وهو يتسلسل. كان يذكره هذا عندما كان يتسلسل من أجل دخول وكر بعض مهربي المخدرات من أجل القبض عليهم لكن هذه المرة كانت مهمته أن يقبض على أعصابه ولا يرتكب أية أخطاء أو يترك أي أثر أنه دخل الغرفة، ولا يظهر أية تعبيرات قد يساء فهمها عن كونه سعيدا بالرغم من وفاة صهره منذ مدة قريبة.

كانت الغرفة مرتبة جدا وكل شيء في مكانه كما وُصفَ له.

كان هناك سرير في منتصف الغرفة مقابلا للباب بطول الغرفة وفي الجدار المقابل كانت هناك بلكونة صغيرة والتي كانت مفتوحة وفيها يبدو أنها لم تغلق منذ إعلان وفاة علي وهو سبب أن بدا كل شيء مكسوا بالتراب.

كانت هناك خزانة ملابس صغيرة بنية اللون بجوار البلكونة أما أهم أثاثة والتي هي المكتب كانت موضوعة أمام الجدار الملاصق للباب هناك حيث أخبره علي أن يبحث عن الرسالة في الدرج الثالث وأخبره أن المفتاح كان على المكتب فوق الكتب، لم يكن المفتاح تماما حيث وصفه علي؛ لذا بدأ مؤمن يبحث عنه وبينما هو يبحث سمع صوت جرس الباب يدق.. نبهه ذلك إلى أنه لم يغلق باب الغرفة بعد أن دخل فذهب مسرعا على أطراف أصابعه وأغلق الباب برفق لكنه -مع كل ذلك الحرص- أصدر صريحا عاليا هُيأ له أنه أقرب إلى صوت طلق ناري.

سمع بعدها صوت مشيرة وهي تستقبل بعض الزوار الذين أتوا ليؤدوا واجب العزاء، لم يعط بالا لذلك فقد كان مصمما تماما على إنجاز المهمة بسرعة ودقة بالغة. بعد عناء من البحث وجد المفتاح أسفل المكتب، لابد أنه سقط هناك بالخطأ.

فتح الدرج و بدأ يبحث عن الرسالة بين عشرات الأوراق والكراسات وبينما هو منهمك في بحثه فُتح الباب بسرعة وخفه. كاد قلبه يقف من الخوف رفع نظره فوجدها مشيرة فاعرة فاما تنظر إليه باندهاش ثم دخلت وأقفلت الباب برفق بحيث لم يصدر صوت الصرير المزعج هذه المرة، اقتربت منه وقالت وهي تمثل اللطم على خدها من شدة الغيظ:

-ماذا تفعل؟ هل تعرف ماذا قد تفعل والدتي لو علمت أنك دخلت هنا دون علمها؟

ارتبك بشدة وتعرقت جبهته حتى صارت قطرات العرق تغطي عينه لكنه لم يكن يملك رفاهية مسح عينيه، فعل أول ما خطر بباله ووضع يده على أول شيء وجده في الدرج المفتوح ورفع ثم قال بتنهيد: أعلم يا عزيزتي أعلم أنها لا تسمح لأحد بالدخول لكن أخاك هو من طلب مني أن أدخل غرفته وأحضر له هذا. ثم رفعه عاليا أمام وجهها.

أبعدت وجهها عنه مستغربة: وما هذا؟

-إنه...أأ... لقد أخبرني علي أن أحضر له المفكرة (وبدأ في سرد بعض صفات المفكرة التي أمسكها بيده سريعا).

قطبت حاجبيها ووضعت يدها اليمنى على جانب وسطها الأيمن وقالت في حنكة وهي تضيق عينيها: أمم هل هناك شئ تخفيه عني؟

-لا، صدقا، ولماذا أخف عنك شيئا؟!

أنزلت يدها من جنبها ثم مدتها لتمسك بالمفكرة فرفعها مؤمن عاليا وأخبرها أن هذه أمانة وهو لن يقوم بخيانتها وترك أي شخص يقرأها. هزت كتفها في عدم مبالاة بما تتضمنه هذه المفكرة وطلبت منه أن يخرج من الغرفة بسرعة ولا يجعل عطيات تشعر به... وإن علمت أنه دخل الغرفة طلبت منه أن يتحمل اللوم كاملا ولا يخبرها أن ابنتها كانت معه بالداخل وإن علمت والدتها أنها دخلت الغرفة فهي أيضا ستقوم بإلقاء اللوم عليه معللة أنها رآته يدخل الغرفة فدخلت كي تطلب منه الخروج.

ضحك بشدة ضحكا مكتوما على هذا العرض السخيف ووصفه ساخرا بأنه "عرض مغر جدا" وأنها فكرة ذكية لكنها تجاهلته وخرجت بحذر، فسحب الرسالة من الدرج بسرعة ووضعها في كيس بلاستيكي كان قد أحضره قبلا.

انتظر بضع لحظات قبل أن يخرج حتى يتأكد أن مشيرة قد ابتعدت وأن عطيات لن تشك أنها دخلا الغرفة المحظورة.. غرفة "علي بابا"!

دس الكيس البلاستيكي في جيبه وخرج بحذر.

كان يرغب في تناول الطعام من يد مشيرة ومعها لأول مرة منذ فترة كبيرة، لكن رغبته في معرفة الحقيقة كانت أكبر لذا ذهب إليها وأخبرها أنه سيعود إلى علي فهو لا يجب أن يتركه وحيدا في تلك الظروف، كان يتوقع أن تطلب منه أن يجلس معها أو تسأله عن سبب قدومه طالما هو لا يجب أن يتركه وحيدا لكنها اكتفت بتوديعه فحسب.

وبينما هو يفتح الباب نظر إلى عطيات التي كانت ماتزال تجلس مع صاحبته اللاتي جئن للعرءاء. رفعت نظرها إليه ورمقته بنظرة غضب واشمئزاز فرق قلبه لها.. مفجوعة على فقيدتها وزاد عليها الغضب أيضا زوج ابنتها الضال.

كاد يتراجع عن الانصراف ويعود ليطيب خاطرها مرة أخرى إلا أن مشيرة عرفت من نظرتها بما يفكر فذهبت إليه وأمسكت ذراعه برفق وأخبرته أن والدتها سرعان ما ستنسى كل ذلك عندما تعلم أن ابنها حي وأنه فعل هذا كله من أجل مساعدته وخوفا عليها. أراحته تلك الكلمات وأرضت ضميره.. ليس أفضل من أن تجد الشخص المناسب لك.. من يعرف ماذا تريد من مجرد نظرة عين.. أو أقل.

همّ أن يغادر المنزل فأمسكته مشيرة من ذراعه بشدة هذه المرة وسألته: ألم تنس شيئا يا عزيزي؟

ارتبك واجتاحه عرق غزير مجددا لكن هذه المرة سرعان ما تدارك الموقف فابتسم واقترب منها في لطف ظانا أنها كانت تسأله ليطلع علي جبتها قبله الوداع كما يفعل دائما إلا أنها تراجعته وقالت وهي تشهر المفكرة في وجهه: لم أكن أقصد هذا. بل أقصد المفكرة التي طلب منك علي أن تحضرها له، هل من المعقول أن تنسى شيئا مهما كهذا!

-آه، معك حق فعلا كدت أنساها، أعذريني ف منظر والدتك الحزين هذا أنساني كل شيء.

هزت رأسها متعاطفة. بينما كان هو يتعجب من قدرته الجديدة على الكذب، فلطالما كان كاذبا سيئا وكانت مشيرة تستطيع أن تعرف أنه سيكذب من قبل أن يفتح فمه حتى، يبدو أن تركيزه الشديد على القضية قد جعل عقله يعمل بكامل تركيزه.

التقط المفكرة من يدها ويغادر مسرعا لكنه ظل يشعر بها ترمقه من أمام الباب حتى نزل الدرج واختفى من أنظارها كانت نظرتها له غريبة وتركت في نفسه انطبعا غير مريح. هل تخفي شيئا هي الأخرى؟! هل تعلم؟ ربما في النهاية هو لم يصبح كاذبا ماهرا لكنها تركته يعتقد ذلك!

ركب سيارته وانطلق بأقصى سرعة لا يدري أين يتجه..

لم ينتظر أن يقوم بحل الشفرة في الرسالة. كانت لديه خطة مسبقا..

كانت عمارة مكونة من سبعة طوابق مصممة على الطراز القديم مدهونة بلون برتقالي مائل إلى الصفرة من تأثير أشعة الشمس التي أدت إلى تآكل طبقة الدهان. كان مدخل العمارة كبيرا كحال معظم المباني القديمة الطراز، وعلى كلا جانبي المدخل يوجد لوح كبير من الزجاج، وهناك في الأمام ثلاث درجات من السلالم يليها مصعد على اليسار وسلم ضيق على اليمين، كانت هناك أٌصص نباتات تملأ المدخل.

وقف أمام المدخل وبدأ يتأمله. ثم. ولأول مرة منذ خروجه من المنزل منطلقا نحو العنوان بدأ يتسائل.. كيف سيعرف في أي طابق يسكن؟

حيث مات الضلع الأضعف في المثلث.. سينتقل إلى الضلع التالي.. مساعد محسن في الحسابات.

لم يكن من السهل العثور على منزله، خاصة وأنه لا يشارك الكثير من المعلومات مع الغرباء.. لكنه في النهاية عثر عليه.

لم يكن يعرف اسمه بالكامل لا يعرف شكله حتى.. جل ما يعرفه أنه يعمل في قسم الحسابات في مستشفى الأمل واسمه "نادر الدرندي".

لماذا لا يسأل علي عن شكله؟!

كان هذا سؤالاً منطقياً تتكون الإجابة عليه من ثلاث كلمات "هذا عمل الشرطة".
من الآن فصاعدا هذه قضيتته.. لن يخاطر بتدخل أحد أقاربه في هذا الشأن مرة أخرى.
يعلم أنه لو سأل علي عنه أو أخبره أنه يخطط لاستجوابه فإنه لن يصمت وسيود التدخل بكل تأكيد.

سيحلها بمفرده.. ربما لم يستطع حل الشفرة في الرسالة والتي كما قال علي تتحدث عن الخير والشر والاستبحار الغائب عن عيون المخابيل!.. دون أي نمط معين.. لكنه لن يفشل هذه المرة بكل تأكيد.

وبينما هو غارق في تخیلاته يحرق إلى العمارة وجد بواب العمارة يقترب منه على عجلة وأحس أنه ليس سعيداً.. لا بد أن البواب قد رآه وهو جالس يراقب العمارة بطريقة غريبة

منذ فترة وشعر بالريبة منه؛ لذا على الأرجح هو قادم نحوه الآن ولن يتردد في أن يبرحه ضربا كي لا يعود إلى هذه المنطقة مرة أخرى.

رأى مؤمن أنه من الأفضل أن يقترب منه هو الآخر ويبدأ معه الحديث بلطف قبل أن يباغته الرجل وينهال عليه بالاتهامات الباطلة ويتوعده ألا يعود مرة أخرى وبذلك يفقد أحد أهم خيوط القضية.

بدأ يرسم ابتسامة خفيفة على وجهه وهو يقترب منه ببطء محاولا التفكير في شئ مقنع يقول به يبرر مراقبته لدخل العمارة بهذا الشكل!

كان طويلا مفتول العضلات بشرته سمراء مقاربة للون عينيه التي يعلوها حاجبان كثيفا الشعر متصلان اتصالا خفيفا، يرتدي عمامة بيضاء حول رأسه وجلبابا أزرق متسخ، قد شمر جلبابه قليلا وهو يمشي بسرعة تجاه مؤمن فظهر من أسفله بنطال أخضر اللون أكثر اتساخا من الجلباب نفسه.

-هل أستطيع أن أخدمك بشئ يا سيد؟

بصوت خشن ووجه متجههم ولهجة أهل صعيد مصر قال الرجل.

كان مؤمن يريد أن يكتسب ثقة الرجل ويمنح نفسه بعض الوقت ليفكر، فلم يجد أفضل من الجملة التي يستخدمها البعض عندما يمرون أمام مجموعة من الشباب المتنمر (البلطجي) حتى يشعروا بالأمان وأنهم سيدعونهم يمرون في أمان، فقال بصوت لطيف ووجه بشوش متصنعا البلاهة: السلام عليكم.

رد الرجل متأففا: وعليكم السلام. وأعاد عليه سؤاله مرة أخرى بعصبية بادية: بإذا
أخدمك يا سيد؟

إصرار الرجل على السؤال زاد من توتره لكنه لم يرد أن يبدو عليه التوتر فبسرعة قال:
...لقد كنت قادما لزيارة أحد أصدقائي يسكن في تلك العمارة وكنت أنتظره حتى يأتي
لكن يبدو أنه سيتأخر لذا سأتي له في وقت لاحق. سلام.

بدأ مؤمن يحرك قدمه ببطء ليرى ردة فعل الرجل هل اقتنع بحجته وسيدعه يذهب أم لا.
لكن الرجل لم يقتنع وبدأ أن كلامه زاد الرجل شكاً فيه، حرك الرجل قدمه ووضعها أمام
قدما مؤمن محاولاً منعه من مواصلة التقدم وإشارة منه أنه لم ينهي كلامه بعد ثم قال
بفضاضة: صديق ها! وما اسم صديقك هذا؟ هل تعرف شكله؟

أعاد مؤمن قدمه حيث كانت كمبادرة سلام منه وإشارة للرجل أنه ليس خائفاً من
مواصلة الحديث وأن موقفه سليم. اعتدل في وقفته وقال في تردد: اسمه "نادر الدرنبلي".
يعمل معي في نفس الـ "Hospital" وكنت أريد أن أسأله عن بعض الأشياء المتعلقة
بالـ "Work".

كانت هذه هي المرة الثانية ذاك اليوم الذي تبهره فيها قدرته على الكذب! كانت هذه أفضل
فرصة له أن يسأل البواب عن مكان شقته بالتحديد.

ليس هذا فحسب بل تعتمد استخدام كلمات باللغة الإنجليزية حتى يُضفي بعض المصداقية
على كلامه أمام الرجل الذي يبدو أنه أمي.

بدا على الرجل الارتياح فكلام مؤمن ومنظره لا يتناسبان مع منظر مجرم لكن أفعاله ومراقبته للعمارة لفترة كبيرة تناسب!

شعر مؤمن أن الرجل لن يُدلي له بأية معلومات وأنه لم يقتنع كثيرا بكلامه، فلم يكن أمامه سوى أن يستخدم أكثر شيء مقنع على وجه الأرض.. دس يده في جيبه وأخرج ورقة نقدية فئة خمسون جنيها ومد يده بها إلى الرجل الذي تلقفها بسرعة وانفجرت أساريره وأصبحت ملامحه أكثر لينا وسعادة ثم أعاد مؤمن سؤاله مرة أخرى:

- هل تعرف أي طابق يسكن يا سيدي؟

- نعم، يا حضرة الباشا الأستاذ نادر الدرندلي يسكن في الطابق الرابع. لكن هذه أول مرة أعرف فيها أنه يعمل في "Hoptlis".

- أشكرك على حسن تعاونك.

ضحك من نطق الرجل للكلمة الأنجليزية وأدرك أن خطته نجحت.

تنحى الرجل من أمامه فمشى مؤمن متجها نحو العمارة، لم يكن يصدق أن الحيلة انطلت عليه وأنه لم يسأله مجددا عن شكله فبال تأكيد كان هذا السؤال ليفضح أمره فكيف يعمل معه ولا يعرف شكله.

إنها قوة المال في عالم تحكمه المادة. كانت هذه أفضل خمسون جنيها أنفقها في حياته.

ركب المصعد الضيق وفي المرأة التي به صار يهندهم ملابسه حتى تبدو عليه المهابة والاحترام، وصل المنزل المنشود في الدور الرابع.

كان باب الشقة من الخشب البني وعليه لوحة صغيرة كتب عليه بخط ذهبي "هشام الدرندي" وأمامه باب من الحديد يشبه أبواب الأقفاص التي كان يتم ترحيل العبيد فيها في القرن الثامن عشر، كان هناك جرس قديم على اليمين قرعه.. وانتظر قليلا فلم يجب أحد.. فقرعه مرة أخرى وطرق على الباب الخشب الظاهر من بين قضبان الحديد، بعد قليل ومباشرة قبل أن يقرع الجرس مرة أخرى سمع صوت أقدام متجهة نحو الباب. فُتح الباب الخشبي وكانت تقف خلفه امرأة عجوز شاب شعرها القصير وملأت التجاعيد وجوها الصغير وأنحنى ظهرها بتأثير الزمن. كانت ترتدي سترة بيضاء مطرزا عليها شكل فتاة ترتدي معطفا أحمر وتحمل سلة فواكه وخلفها مجموعة أشجار وأرانب على الأرض وهو ما أعتقد مؤمن أنه شكل تخيلي تقليدي للفتاة المذكورة في كتاب "ذات الرداء الأحمر".

سألتها المرأة بصوت ضعيف لكنه واضح عن نفسه فسألها بدوره عن "نادر الدرندي" فقالت له إنه موجود لكن أعادت سؤالها مرة أخرى إنه فأخبرها أنه صديقه من العمل ويرغب في محادثته في موضوع ضروري جدا. تركت المرأة الباب الخشب مفتوحا والحديد مغلق وراحت تنادي على نادر الذي يبدو أنه ابنها.

بعد قليل أغلق الباب الخشبي دون أن يرى مؤمن من أغلقه.. ثم شعر بحركة خلف الباب فطرق مرة أخرى لكن بقوة أكبر هذه المرة بعد أن بدأ صبره ينفد.

سمع صوت رجولي من خلف الباب هذه المرة يسأله عن شخصه وسبب قدومه، أعاد مؤمن نفس الإجابة التي قالها للمرأة منذ قليل وأنه يريد نادر ليتحدث معه قليلا.

أخبره صاحب الصوت أنه هو نادر لكنه لا يعرفه ولم يره ولا مرة من قبل، لابد أنه رأى مؤمن من خلف الباب من خلال "العين السحرية".

تجادل معه مؤمن قليلا محاولا تهدئته فقد كان يبدو أنه مرعوب منه وأخبره أنه سيتحدث معه في عدة أشياء ويرحل لكنه أصر على رفضه مما أضطر مؤمن لأن يخرج له بطاقة هويته وأخبره أنه إذا لم يتحدث معه بشكل ودي الآن فسيعود ويحضر لشقته أمر تفتيش ويلقي القبض عليه. بالطبع هذا لم يكن ليحدث فلا يوجد أي دليل ملموس يشير إلى تورطه في أي شيء خارج عن القانون من أي شكل.

لكن مؤمن دائما ما يراهن على هذه الحركة.. وفي كل مرة تنجح!

فتح الرجل الباب ببطاء كان شابا نحيلًا متوسط الطول يبدو في الثلاثينيات من عمره له شعر قصير من الأمام يطول من الخلف ولحية كثيفة الشعر لكن قصيرة وعينان بنيتان محمرتان منتفختان من الإجهاد أو كثرة السهر، يرتدي "تي شيرت" أصفر اللون. بصوت منخفض مرتعبل قال: حسنا، سأحدث معك بشأن كل ما تريد معرفته لكن أرجوك لتتحدث في مكان بعيد عن هنا، إن أمي سيدة عجوز ولن تكون سعيدة إذا علمت أن هناك شرطيا يتحدث معي إنها لن تتحمل الصدمة.. أرجوك.

في الثلاثينيات وما زال يعيش مع والدته! تزوج ولم ينجب فطلق زوجته ولم يتزوج بعدها. كانت تلك هي المعلومات المكتوبة حول نادر في الملف الذي طلب مؤمن من صديقه أن يبحث له عنه.

رحب مؤمن بالفكرة كثيرا خصوصا عندما أخبره أنه لن يغير ملبسه وسيغادر معه بملبس المنزل فهو لا يمانع.

كان نادر يبدو أكثر ارتياحا وثقة منذ علم أن مؤمن شرطي، كان هذا كفيل بأن يجعل مؤمن يعتقد أنه كان يعمل تحت التهديد أو شيء من هذا القبيل!

أرشده إلى مطعم قريب من منزله وكان طوال الطريق دائم النظر يمينا وشمالا كأنها يهرب من أحد أو لا يريد لأحد أن يعلم أنه مع شرطي! كان يبدو مكانا لطيفا وهادئا أعجب به مؤمن من النظرة الأولى لأنه علم أن هذا المكان سيتيح له أن يتحدث بحرية أكبر دون أن يخشى أن يراقبهم أحد. عندما دخلا المطعم قاد مؤمن المسير فتقدم واختار طاولة بعيدة في أحد أركان المطعم.

كانت طاولة مستديرة وعليها شرف أحمر اللون منقوش عليه زهور وبعض الفراشات اللطيفة وحول المائدة كان هناك أربع كراس خشبية.. سحب مؤمن أحدهم وسحب نادر المقابل له.

نادى مؤمن على النادل وطلب منه أنه يحضر لهما كوبان من العصير من أي نوع يختاره النادل. فعل ذلك حتى يتجنب الدخلات الغريبة التي يقوم النادل حيث يقاطعون الكلام المهم بسؤالهم المعتاد السخيف عن طلب السادة الجلوس عن نوع الطعام الذي سيأكلونه! هز النادل رأسه مع ابتسامة صغيرة مصطنعة ثم رحل وأخلا المكان لهما.

ما إن رحل النادل حتى بدأ نادر بهز قدميه ويطقطق أصابع يده.. كل هذا ومؤمن ينظر إليه ولا يفعل أي شيء. بعدما يأس الفتى من أن يبدأ مستجوبه الكلام قال بثقة واهنة: هل لي أن أعرف لماذا أخضرتني إلى هنا؟

-أعمم هذا هو السؤال الذي كنت أود أن أطرحه عليك، لماذا نحن هنا؟

-سؤال صعب. سؤال يراودني منذ أن جئنا. هل تعلم لماذا لا اعلم الإجابة عنه؟ لأنك أنت من طلب مقابلي! تأتي إلى منزلي وتهددني أنك ستحضر لي محضر تفتيش لشقتي! هذا هراء، أنا أعلم أنه لا شيء يُدينني لأنني لم ارتكب أي خطأ، وقبل أن تسأل السبب الوحيد الذي جاء بي إلى هنا هو أنني لأريد أن تشك والدتي أن هناك شرطيا يستجوبني فقد تظن بي ظنا سيئا وهذا غير حقيقي.

كان مؤمن دائم النظر إلى عينيه بينما هو يتحدث وكان الرجل يشيح بنظره عنه دائما. أراد أن يبرز موضع قوته وأنه هو المتحكم في كيفية إدارة الحديث كما تعلم في أساسيات الاستجواب كما أيضا تعلم أن النظر مباشرة في عيني المشبه به يكون أحيانا أفضل من أي كلام آخر فهذا يشعره أنه مراقب دائما.. وهذا أسوء شعور يمكن أن يشعر به الشخص المذنب.

وبعد أن انتهى من التحديق قال بصرامة وهو يهز رأسه ببطء: هل تعلم ما حل بمحسن صديقك؟

لمعت دمعة في عينيه وصمت برهة ثم أشاح بوجهه وهو يقول: لقد انتحر.. أسوء خبر سمعته في حياتي.

يعرف هذا الشعور تماما.. لن ينسى أبدا تلك اللحظة التي رأى فيها جسده الميت يتدلى من السقف.

لا داعي الآن لتلك الذكريات..

سأل مؤمن: هل تعلم السبب وراء انتحاره هذا؟

علت الدهشة ملامح نادر كأنها لم يتوقع أن يكون هذا مجرى الحديث ثم قال بهدوء جازم: لقد فُصل من عمله قبل مدة قليلة من انتحاره، وكان مكتئباً بشدة حينها.

لا يبدو سبباً مقنعاً.. لقد فصل من عمله فحسب ليس بالأمر الجلل، هناك شيء ما!

عاد مؤمن يقول بذات الحزم مرة أخرى: كنت تعمل معه أليس كذلك؟

أوماً نادر أن نعم، فأكمل مؤمن: وما السبب الذي أدى إلى فصله بالتحديد؟

بصوت مرتبك مهزوز سأل: هل هذا تحقيق في قضية قت.... انتحار محسن؟ ألم يكتب الطبيب الشرعي تقريره؟

قتل؟!..

ذلة لسان هي خير من ألف دليل..

-أنا من يوجه الأسئلة هنا. كل ما عليك هو أن تجيب على أسئلتني.

ثم أعاد عليه سؤاله مرة أخرى فلم يعد الرجل بعدما حوَّص سوى أن يجيب، فقال: كانت هناك مشاكل في العمل أدت لذلك.

زفر مؤمن بعدما بدأ صبره ينفد من الماطلة وقال بعصبية: كفك مراوغة. لا تكن ضنيناً في المعلومات هكذا. أريد إجابات كاملة.

في تلك اللحظة أتى النادل يحمل صينية أنيقة مربعة الشكل عليها كوبان من العصير. وضع واحد أمام كل منهما وبالرغم من أن مؤمن حاول تجنب حدوث ذلك لكن يبدو أنها

جينات توزع على أي شخص يريد أن يصبح نادلا.. يجب أن يقاطع الحديث المهم.. ودائما ماتكون لهم تلك الابتسامة المصطنعة اللزجة التي تدفع الشخص ليس فقط لكره تناول الطعام بل كره الدنيا كلها.

راقب النادل حتى ابتعد ثم قال بخبث: كنت تقول كانت هناك نصف مليون مشكلة في العمل أليس كذلك؟ أكمل أرجوك.

تعمد قول "نصف مليون" حتى يخبره بشكل غير مباشر أنه يعرف كل شيء.. يبعث في نفسه الرعب فتتهاوى قدرته على الكذب أمام بحر المعلومات الجالس أمامه.

أجاب نادر بأسلوب دفاعي في وجل: كان هناك خطأ في الحسابات.. خطأ قيمته نصف مليون جنيها ومن الجلي أنك تعرف هذه المعلومات مسبقا.

طرق بيده على الطاولة بعنف وراح يزفر قريبا من وجه الرجل ثم قال بعصبية ونبرة عالية: أجب عن أسئلتي فحسب. هل كان حقا يسرق من المستشفى؟ هل كنت تعرف شيء عما كان يفعله هناك.

انهارت رباطة جأشة وبدأت العبرات تتساقط من عينيه.. احمر وجهه وارتعش جسده.

يعرف مؤمن هذه الصفات جيدا.. هذا بلا شك تأنيب الضمير. عندما يدرك أحدهم أن خطأه الصغير قد ظهر للعلن يبدأ جلد الذات والهلع وتظهر الملامح جلية على وجوههم.. هذا أفضل وقت لاستخراج المعلومات من أفواههم القذرة.

مسح الفتى عينيه بظهر يده ثم تابع في انكسار:

ليس لي علاقة بأي شيء. أنا رجل محترم أحشى الله وأراعي ضميري.. لم تكن لي صلة بأي شيء يحدث. أقسم لك. لقد قدمت استقالتني منذ عدة أيام.. أقول لك لا علاقة لي بأي شيء يخص تلك المستشفى.

لم تهز دموع التماسيح تلك شعرة من رأس مؤمن الذي سأل بجديّة وعنف: ولماذا قدمت استقالتك مباشرة بعد معرفتك بوفاة صديقك محسن؟

ارتجفت شفاته وهو يقول: كنت أنوي أن أقدمها منذ مدة.. لم تسنح لي الفرصة فحسب. تنهد بسخرية وابستم في تهكم ورد عليه: لم تسنح الفرصة أم أغراك المرتب الكبير الذي تأخذه من الدكتور حاتم ورفضت أن تغادر؟! لا مانع أيضا من أنك كنت تستفيد من عمليات السرقة تلك بشكل أو بآخر.

انتفض نادر وتعرق جبينه ويداه بشدة ومسح دمعة فرت من عينيه.. وبسداجة قال بصوت عال: أسرق! حاشاني أن أفعل مثل ذلك.. أخبرتك من قبل يا سيد لست من هذا النوع. تغير وجهه الهادئ وتحول إلى اللون الأحمر من شدة الغضب وظهرت العروق في رقبته - كما يحدث دائما عندما يكون عصيبا - كان غاضبا وكان يحاول أن يصب جم غضبه على الرجل الجالس أمامه.. فقال وهو يضرب الطاولة بكفيه بقوة اهتزت معها الطاولة حتى كادت تنخلع من مكانها: كف عن هذا الهراء. لم لا تخبرني كل شيء تعرفه من تلقاء نفسك.. لن أطرح أسئلة أخرى.. أنت تعرف ما أنا هنا لأجمله.

كان منهارا.. سيقول كل شيء.. لا يحتاج حتى أن يضغط عليه أحد ليعترف.

- لا داعي لهذه العصبية، فكما قلت لك أنا لست متورطا معهم في شيء وسأخبرك كل ما أعرفه بصدق، أنا لا أريد مشاكل.

هدأت كلماته والطريقة التي قالها بها مؤمن. ورأى أنه من الأفضل أن يكسبه في صفه طالما أنه يبدو صادقا؛ لذا حاول تهدئة نفسه فمن غير اللائق أن يبدو المستجوب بمنظر الشخص غير المنضبط.

جذب كوب العصير من أمامه وبدأ بالشرب منه حتى أنهاء في رشفة واحدة.. لم يذق طعمه.. يكفيه ما ذاقه من تلك القضية حتى الآن!

أشار إلى نادر ليشرب هو الآخر لكنه لم يحرك يده ولم ينظر للكوب أصلا ثم تابع في انخزال معترفا:

- كنت الأول على دفعتي أثناء فترة الكلية، تخرجت وعملت حتى اكتسبت خبرة كبيرة هياأتني للعمل في مستشفيات الأمل منذ سنتين تقريبا. كان الأمر جيدا في البداية كانت الأعمال سهلة والمرتبات مرتفعة. كان محسن مشرفا على قسم الحسابات، لم يكن أكثر ذكاءا أو خبرة من أي أحد آخر يعمل في هذا القسم لكنه كان يعرف كيف يدير الأعمال. بعدة فترة أصبحت الأمور ضبابية وبت أحس أن أشياء تتم في الخفاء لا أعرف كنهها.. ليس مسموح لأحد بالاطلاع على تلك الملفات سوى محسن والذي بدوره يقوم بمراجعتها قانونيا مع أحد المحامين، لم يكن هذا منطقيا أن تتم مراجعة الحسابات دوريا مع أحد المحامين لكن هكذا كانت تتم الأمور هناك. كانت هناك أخطاء كثيرة وتلاعب في الحسابات بشكل كبير حاولت أن أعترض أكثر من مرة وفي كل مرة كان يقوم محسن بتهديدي أن أسكت أو أستقيل.. فأسكت.

لم يستطع مؤمن منع نفسه من أن يقول بتهكم: وكنت تقول أنك محترم!
كان كلامه قاسيا لكنه كان حقيقيا جدا.. وهو ما جعل نادر يوشك على البكاء مجددا
فزجره مؤمن وأخبره أن يتتجب كما يشاء بعد أن يكمل باقي المعلومات.
بصوت متحشرج مبحوح أكمل نادر متجاهلا الرد على ما سمع منذ قليل: حسنا! هذا كل
ما لدي. هذا كل ما أعرفه عن محسن وسبب تعرضه للفصل.. شئ آخر؟
لمعت في رأس مؤمن فكرة كادت ان تغيب عنه فقال بتسرع قبل أن ينسى مجددا: هل
سمعت قبلا عن "الجماعة"؟
كانت مخاطرة أن يسأله عن تنظيم يعلم أنه ربما يكون مشاركا فيه وبذلك قد يساعدهم على
تدارك موقفهم بعدما علموا أن أحدا ما يتحرى عنهم.. لكنه لا يملك خيارا آخر..
في تردد واضح وصوت متقطع أجاب: لا أنكر أني سمعت محسن عدة مرات يتلفظ بهذا
الاسم لكنني لم استطع أن أستشف منه معناه أو من هم هؤلاء "الجماعة".
شعر مؤمن باندفاع الادريينالين في عروقه دفعة واحدة.. وبدأ يحس هذا الخدر في أصابعه
والإحساس الغريب في بطنه.. هما ذا الإحساسان اللذان يشعر بهما عند قيامه بمطاردة
أحد العناصر الخارجة عن القانون، ورغما عن إرادته انفرجت شفتاه وخرجت ابتسامة
صغيرة من بينهما، كان سعيدا أنه أخيرا توصل لخيط حقيقي يمكنه الاعتماد عليه.. ربما هو
ليس بالخيط الكبير لكن هذا يثبت صحة وجود ما يسمى بالجماعة وأن هناك فعلا عصاة
تقوم بالسرقة من المستشفى دون علم مديرها.

كيف يسرق هذا المال ولا يكتشف؟ لا أدري حقيقة ربما لأن هذا المبلغ لا يمثل شيئا بالنسبة للدكتور حاتم.. أو ربما هم بارعون في إخفاء آثارهم!

ثنى رقبته يمينا ويسارا وطقطقتها ثم قال: وهل المحامي الذي يقوم بمراجعة الحسابات هذا ينتمي إلى تلك الجماعة؟!

مرر نادر أصابع يديه خلال شعره حتى وصل إلى مقدمة قفاه وظل واضعا يديه هناك لفترة ثم أرخاها وقال: لست متأكدا لكن كل ما أعرفه عنه أنه رجل مُتَلَوْن.. ليس بالرجل الصالح أبدا.. لست أجد ضيرا من أن يكون مشاركا هو الآخر!

الآن اتضح كل شيء..

الدكتور حاتم لا يعرف بشأن مايجري لأن المحامي الذي خوله بمراجعة أوراق الحسابات ومعرفة صحتها فاسدٌ.

فليذهبوا كلهم للجحيم.. لقد توصل إلى خيط أكبر هذه المرة.

طلب منه مؤمن بلهفة أن يخبره كل ما يعرفه عن هذا المحامي والذي عرف فيما بعد أن اسمه راضي منصور.

كان الرجل يشعر بالخوف وحاول أن يتهرب من الإجابة عن هذا السؤال كثيرا ولم يفرج عن معلوماته حتى أقسم له مؤمن أن هذا الحوار بينهما سري وأن شيئا من هذا لن يعرفه أي حد.. كما أخبره أن موقفه في تلك القضية سليم تماما وأن لا ضرر عليه إلا في حالة أنه لم يرغب في التعاون مع الشرطة.

انكسرت شجاعته الضعيفة أو الأصح انكسر حاجز خوفه من "الجماعة" وأخبر مؤمن كل شئ يخص هذا المحامي.

كان يبدو واثقا وكلامه مترابطا ولم تكن يداه ترتعشان حينها، لم يكن بيد مؤمن سوى أن يصدق روايته.. أن يصدق أن من استأمنه د. حاتم على ماله خاناه! لكن يبقى السؤال: ماذا سيفعلان بكل هذا المال؟ كيف سيخبأانه؟ لا يهم. سيعرف لا محالة..

كان مؤمن محقا تماما في اتباعه حدسه.. وقد توج ذلك أخيرا بنتيجة جيدة. العمل الجاد يضعك حيث يمكن للفرصة المناسبة أن تواتيك.. كان شيئا أخيرا لا بد منه.

أخرج الرسالة من جيبه وعرضها على نادر وسأله عما إذا كن يعرف معنى الكلام المكتوب فيها أم لا وأي نوع من الشيفرات تلك. قرأها نادر عدة مرات بتفحص شديد جدا ثم رفع رأسه وهزها ببطء يمينا ويسارا وهو عاقف شفتيه.

يبدو أن لغز الرسالة هذا سيلازمه مدة قبل أن يكتشفه!

ركب سيارته واتجه نحو عنوان مكتب "راضي منصور" وللمرة الثانية لم يكن يعلم ماذا سيقول أو ماذا سيفعل حين يصل. لكن السؤال الأهم الذي كان يدور في رأسه كان: هل

يجب أن أذهب إلى الشرطة وأخبرهم بما أعرفه؟ هل من الصواب تولي تلك القضية بمفردي؟

لم تكن الإجابة على هذا السؤال بالشاقة فالمعطيات في هذه القضية قليلة جدا والأمور المتعلقة بالشرطة تأخذ وقتا طويلا وتستلزم إجراءات ورقية مهولة. لماذا لا يذهب للدكتور حاتم ويخبره ما يحدث؟ بكل بساطة كما أخبر علي من قبل "إنها كلمتك ضد كلمتهم" من تراه يصدق د. حاتم حينها؟!

الأمر بديهي.. سيجعل نفسه محط سخرية فحسب وسيقضي على كل آماله الباقية في تلك القضية.

كانت مخاطرة أن يكمل التحقيق وحيدا خصوصا أنه إذا انكشف أمره فسيتم تقليل رتبته وقد تتأخر ترقيةاته بالإضافة إلى بعض الغرامات المادية بالتأكيد لكن الموضوع الآن في هذه القضية أصبح شخصا مذ حاولوا تسميم صهره فلا مجال للتراجع.

بمناسبة الرسالة كان هذا أغرب ما حدث حتى الآن في تلك القضية على الرغم من عدم وجود دليل قطاع حتى الآن يدل على أن لها دورا في هذا الأمر إلا أن حدثه كان يخبره أن هناك سرا ما ورائها.. كان هذا أكثر ما شغل تفكيره طوال الطريق إلى مكتب "راضي منصور".

لم يتوقف ذهنه عن التفكير طوال الطريق ولم يكن عقله مركزا على الطريق وإنما اعتمد على ذاكرته التصويرية لتدله على طريق المكتب.

ولكن فجأة وقبل أن يصل إلى مقر المكتب مباشرة ضغط المكابح بكل قوه مما جعله يرتطم بالمقود بشدة.

تذكر شيئا في غاية الأهمية لتوه..

نسي أن يسأله عن علاقة أحمد بهذا الموضوع كله..

تبا..

لم يكن يملك الكثير من الوقت للتفكير فمن حيث يقف بالسيارة كان بإمكانه رؤية مقر المكتب ولم يكن يريد أن يضع المزيد من الوقت في التفكير.. بل الفعل.

على باب المكتب الرئيسي كان هناك اثنان من رجال الأمن يبدوان على قدر عال من التدريب والمهنية.

طويلان يرتديان نظارات سوداء ويحملان أجهزة لاسلكية ومن حزام بنطال كل منهما يظهر مسدس من النوع "غلوك-٢٦" يعلن عن نفسه واضحا جليا ليثني كل من سولت له نفسه بالعبث مع أيأ منهما أو ارتكاب أية حماقات. سأله أحدهما بصوت أجش عن سبب قدومه فأخبرهم بابتسامة وديعة أنه يريد الأستاذ راضي في موضوع خطير جدا.

في البداية لم يسمح له بالدخول إذ كان يلزم أن يحمل ميعادا مسبقا أو أن يكون من الأشخاص الذين يعطيهم السيد راضي صلاحية الدخول في أي وقت، لكنه كان شديد الإصرار فتقدم إليه أحدهما وسأله عن اسمه ووظيفته فأخرج له مؤمن بطاقته فنظر فيها سريعا ثم أعادها إليه وطلب منه مد ذراعيه جانبه وبدأ بتفتيشه تفتيشا صارما ثم أشار له أن يتفضل بالدخول.

كان المكتب كبيرا حقا. مكون على الأقل من عشر حجرات كلها بنفس الحجم تقريبا ماعدا واحدة تبدو أكبر.. لم يكن من الصعب تحديد مكتب المدير من بينها، كان يقع مقابلا للباب الرئيسي.

كان له أكبر باب من بين جميع الغرف الأخرى لونه بني يميل للصفرة من نوع الآرو غالي الثمن (تعرف مؤمن على نوع الخشب بسهولة فقد كان يريد أن يشتري منه لأبواب شقته في الأسكندرية لكن أسعاره كانت أكثر ارتفاعا من برج خليفة نفسه) وكان هو الباب الوحيد المحاط بإطار من نقوشات ذهبية اللون بديعة المنظر.

كانت هناك ردهة قصيرة قبل باب المكتب وعلى اليمين في الردهة كان هناك باب آخر لكنه كان خاصا بمكتب سكرتيته -والذي بالمناسبة كان أكبر من المكتب الخاص بمكتب مؤمن بقسم الشرطة- بالكاد أثار هذا حنقه.

لم يكن المكان مزدحما كما كان يتوقع قبل قدومه.. لا بد أن كل شيء هنا يتم بنظام محدد جدا لا يسمح بحدوث ازدحام من أجل توفير الراحة للموكلين..

تقدم حتى الردهة وما أن اقترب من باب المكتب حتى خرجت له السكرتيرة -لا بد أنها رأتها قادمة في كاميرا المراقبة- وكانت شابة في مقتبل الثلاثينات بيضاء صهباء ترتدي بدلة نسائية رسمية بابتسامة صغيرة سألتها عما إذا كان قد حجز موعدا مسبقا أو أنه يريد حجز موعد جديد بلطف شديد أجاب:

- لا هذا ولا ذاك سيدي، أنا فقط أريد أنا أقابله لبضع دقائق إنه موضوع مهم وما أريد يعرف سبب قدومي حتى يسمح لي بالدخول.

أخبرته أنه لديه اجتماع ولن يستطيع أن يقابل أحدا قريبا، سألها عن أقرب وقت يستطيع مقابله فيه فأخبرته أن جدول مواعيده مزدحم حتى نهاية الشهر الحالي وبعدها يمكنها أن تحجز له موعدا.

نهاية الشهر الحالي! هذا جنون..

أخبرها بصبر نافذ أنه لا يمكن لهذا الموضوع أن ينتظر كل تلك المدة، عقدت شفتيها وهزت رأسها بأسف مشيرة إلى أنها لا تستطيع فعل شيء بخصوص هذا الأمر، كان صبره قد بدأ ينفد واحمر وجهه لكنه كان يحاول كبح جماح نفسه بكل ما أوتي من قوة وفي تلك الأثناء أحس بكاميرا المراقبة المثبتة أعلاهم تتحرك نحوه، أدرك من فوره أن راضي ليس في اجتماع كما أخبرته وأنه يراقب ما يحدث عن كثب.

كانت تلك فرصته الوحيدة لجذب انتباهه والحصول على فرصة للحديث معه -لا يدرى تحديدا ماذا سيقول لكن بخبرته يعلم أنه عندما سيوضع أمام الأمر الواقع فإنه سيجد كلمات مناسبة تعبر عما يريد- تجاهل السيدة الواقعة تماما وصوب نظره تجاه كاميرا المراقبة وبصوت عال قال: أنا أعلم أنك تراقبنا الآن، أنا أريدك في موضوع هام جدا لن يأخذ من وقتك كثيرا أعدك، أرجوك لا تجعلني أتخذ إجراءات تجعلك تندم بعد ذلك.

في تلك الأثناء رجعت السكرتيرة للخلف وأطلقت جرس الإنذار فهرع رجل الأمن إليها فطلبت منها -وقد زالت الابتسامة من على وجهها- أن يخرجها من المكتب بسرعة.

تقدم الرجلان نحوه فأخرج شارته وصاح بأعلى صوت:

-أنا ضابط شرطة لا تقتربوا مني وإلا جعلتكم تندمون.

نظرا إلى بعضهما البعض في تردد لم يدم طويلا قبل أن يقررا أن يكملا مسيرتهما نحوه لكن ببطء أكثر هذه المرة.

فقد مؤمن الأمل في أن يكلم راضي هذا اليوم وكان أوشك على المغادرة بكرامته لكنه سمع صوت الباب خلفه يُفتح فاستدار.. كان واقفا هناك مرتديا بذلة كلاسيك كحلية اللون كاروهات من تصميم "ديز موند ميرون" وحذاء أسود ماركة "أوبرسي" لا تغفله العين بسبب تلك الألباسات الصغيرة المروصّة على ما يشبه الوردّة على مقدمته، يحمل سيجارا في يده، لم يكن هناك شك أنه راضي منصور.. تنطبق عليه كل أوصاف الطبقة الأرستقراطية كما يقول الكتاب.

أشار بيديه إلى الحارسين أن يتوقفا مكانها ثم أخذ نفسا من سيجاره ونظر إلى مؤمن نظرة متفحصة باحتقار ثم قال: ما اسمك يا فتى؟

قال مؤمن وقد أذهله منظر الرجل وكاريزمته: مؤمن السبع، ضابط شرطة في قسم....

لم يتح له أن يكمل جملته. أخرج النفس الذي أخذه من سيجاره وقاطعه قائلا: حسنا يا مؤمن انصرف ولا تعد إلى هنا مرة أخرى، شكرا.

ثم ظل واقفا يرمقه بنظرة مخيفة..

شعر مؤمن أن راضي ينقصه نظارة سوداء والقلادة التي يرتديها مغنو "الهيوب هوب" حتى تكتمل مراسم "قصف الجبهة" كما يطلق عليها الشباب هذه الأيام.. فقد كانت هذه واحدة من أكثر المرات التي شعر فيها مؤمن بالإحراج إن لم تكن أكثرهم بالفعل.

لم تُتاح له الفرصة كي يشرح عن سبب قدومه حتى شعر بأنفاس رجل الأمن على قفاه.. في تلك اللحظات كان راضي قد استدار ليعود إلى مكتبه فصرخ مؤمن كغريق يحاول التمسك بقشة للنجاة قائلاً:

- أنا أعلم عن الأمور غير الشرعية التي تقوم بها، كانت هذه فرصتك للحديث قبل أن تصل تلك المعلومات للشرطة.

أعاد راضي النظر إليه ثم قال بغلو واستعلاء: حظاً موفقاً.

ودخل مكتبه وأغلق الباب بهدوء.

شعر مؤمن بأحد رجلي الأمن يضع يده على كتفه فسحب يده بشدة وابتعد عنهما ثم توجه نحو الباب الرئيسي وخرج وهما يتبعاه.

لم تكن الدنيا لتسع غضبه في ذاك الوقت.. تحول إلى وحش مسعور.. وحش طعن في كرامته.. وحش يدمي غروره.

لم يحدث من قبل أن عومل بهكذا احتقار.. ومن من؟ من أحقر رجل عرفه..

مع أول شعاع شمس دخل الغرفة ومع أول صوت زقزقة العصافير فتح عينيه ببطء..

وظل على سريره فترة من الزمن يسترجع أحداث الأسبوع الأخير كلها باختصار. ما

حدث بالفعل كان ضرباً من خيال.. لكن يبدو أن ما ينتظره أغرب من الخيال!

نهض من سريره القذر وعاد يتفحص الغرفة مرة أخرى؛ لأنه من شدة التعب الليلة

الماضية لم تتح له فرصة التدقيق في شكلها.

كانت غرفة صغيرة مربعة الشكل الجدران مطلية بلون رمادي فاتح أو أبيض قد اتسخ بفعل الزمن لا يمكن الجزم حقيقة، والأرضية من سيراميك أبيض رخيص. سرير صغير يتوسط الغرفة -أعتقد أن حقير هو الوصف- المحترم المناسب له -عليه مرتبة غير مستوية فهي مرتفعة في بعض الأماكن ومنخفضة في أخرى، عليها ملاء صفراء اللون متسخة قليلا وبطانية خفيفة لا تقل اتساخا عن الملاءة.

وبجوار السرير كومودينو صغير عليه أباجورة بها مصباح بداخلها لمبة مرتعشة، وأمام السرير خزانة صغيرة مضغضعة من أردأ أنواع الخشب، وإلى جوار الخزانة هناك باب أصفر اللون يفتح على الحمام والمطبخ الذي لا يزيد عن كونه حوضا ومطبخية أعلاه بها بعض الملاعق الصدأ وعدة أطباق بلاستيكية تنوعت أشكالها.. فمنها ما قد حُرق أو كسر أو خُدش..... إلخ

وبجوار الحوض "بوتجاز" صغير أكله الصدأ، عليه حلة سوداء أسود من الثقب الأسود نفسه. يقع الحمام مقابلا للمطبخ وهو أصغر منه.. إنه أصغر من أي مكان آخر على الكوكب.. لكن للأمانة كان نظيفا.

في العادي لم يكن مؤمن يرضى أن يبيت في مكان قدر كهذا لكن للأسف كان معه القليل من المال وكان قد نسي بطاقته الائتمانية في شقته بالأسكندرية وكان هذا الفندق هو أرخص مكان عثر عليه وكان يمكنه تحمل نفقته ويتبقى له القليل من المال ليقضي باقي حاجيات يومه.

استحم وأكل بعضاً من الطعام كان أحضره بالأمس ثم عاد وجلس على السرير وبدأ يفكر في كل الأحداث في الأسبوع الفائت، كانت هذه هي طريقته التي يستخدمها دائماً عندما تتعذر عليه قضية ما.

يجلس في هدوء ويصفي ذهنه ويستر جمع كل الأحداث بتفاصيلها..

بعد أن انتهى من استرجاع الأحداث نظر في هاتفه وكانت الساعة السابعة والنصف، لقد أخذ منه هذا التذكر حوالي ساعة ونصف، لقد تأخر بالفعل عن الميعاد الذي وضعه لتنفيذ خطته، أجل كانت هناك خطة هذه المرة، لن يرتكب نفس الخطأ مرة ثالثة ويعتمد على الخبرة والحظ!

يبدو أنني نسيت أن أخبرك فبعد أن انتهى من مقابلته -إن جاز أن نعتبرها مقابلة- مع راضي منصور بالأمس والطريقة المهينة التي أخرج به من مكتبه جلس في سيارته وبدأ يفكر كيف يُجبر هذا الوغد على أن يخطأ وسيكون هو حتماً موجوداً هناك ليسجل خطأه هذا ويوقع به ومعه أحمد وباقي "الجماعة".

أول ما خطر على باله هو أنه يريد أن يكون متقدماً على راضي خطوة؛ لذا بدأ يفكر مثله، بالطبع حادثة كذلك لم تكن لتمر عليه مرور الكرام لا بد أنه سيتقصي عن مؤمن ويتصيد له الأخطاء كما أنه بالطبع سيوقف من مقابلاته المشبوهة قليلاً أو على الأقل سيقوم بها في مكان حيث لا أحد يمكنه مراقبته فيه، بدا أن أصلح شيء يقوم به مؤمن هو أن يتقصى عن راضي هو الآخر فحتى وإن لم يتقدم عليه خطوة لا يكون متأخراً عنه.

بسرعة أخرج هاتفه واتصل بصديقه في الشرطة "شريف عز" وطلب منه أن يخبره كل ما يمكن معرفته عن "راضي محمود أحمد منصور" (قرأ الاسم بالكامل من الكارنيه الخاص

به)، كان شريف معترضا في البداية وأخبره أنه أمر صعب لكن مؤمن ذكره أنه مدين له بخدمة وأن هذا كل ما يطلبه منه فوافق على مفضض وأخبره أن ينتظر منه مكاملة قريبا. في المساء أرسل إليه شريف ملفا يحتوي على كل المعلومات التي يمكن له أن يعرفها عن راضي منصور.

قرأ الملف عدة مرات بتمحيص شديد عله يجد هفوة يستطيع من خلالها أن يضغط عليه، لكن -كما كان متوقعا- لم يكن هناك أي شيء ضده وهذا شيء بديهي، فملفات موكله لا تحتوي على أية أخطاء فالأولى أن سجلات المحامي الخاص به تكون مثله. لكن شيء واحد فقط كان يمكن لمؤمن أن يستغله ضده.. "سميرة القاضي".

زوجته الثانية. ومن سجلها -والذي استطاع شريف أن يحضره أيضا لحسن الحظ- يبدو أنها تسكن في شقة مملوكة لراضي.. لكن الغريب هنا أنها تسكن في منطقة بعيدة جدا عن الفيلا التي تسكن فيها زوجته الأولى، كما أنها أصغر منه بست وعشرين عاما؛ لذا فعلى الأرجح إن زوجته الأصلية لا تعلم بشأن الزوجة الأخرى وهو ما مهد الطريق لخطئة مؤمن للتفوق على راضي فلو كان هناك أي شيء يخشاه الرجل أكثر من السجن.. فهو غضب زوجته!

أمام فيلا راضي منصور جلس مؤمن في سيارته يترقب كأنه صياد يتحين اللحظة المناسبة للإنقضاض على فريسته، لكن هذه المرة تعلم من خطأه السابق وأحتبى بشكل جيد كي لا يلفت الأنظار.

وبعد دقائق طويلة من الانتظار شعر فيها بالخدر في كامل جسده وخصوصاً قدمه خرجت فريسته من جحرها وتأكد مؤمن أنها موجودة.

لقد حانت اللحظة المناسبة.. حانت لحظة الاصطياد..

أسرع نحو بوابة الفيلا الحديدية الكبيرة وسار نحو حارس الأمن وأخبره أنه يريد مقابلة الهانم فأخبره أنه لا يمكنه أن يدخل دون تحديد موعد سابق أخرج مؤمن من جيبه ظرفاً وقال للحارس: هذا الظرف مُرسل من الأستاذ راضي منصور وطلب مني أن أسلمه إلى الهانم في يدها هي خصيصاً لأحد آخر.

نظر إليه الحارس عدة مرات ثم طلب منه أن ينتظر حيث هو، ثم دخل إلى مبنى رجال الأمن الموجود من الخارج على يمين البوابة الكبيرة، ثم عاد إليه وطلب منه أن يمد يديه وفشه كما حدث في المكتب ثم دخل المبنى مرة أخرى وضغط الزر ففتحت البوابة وطلب منه أن يتبعه.

كانت الفيلا واسعة جداً كان الطريق نحو المبنى الرئيسي مرصوف برخام "ستواريو" أبيض أنيق وعلى جانبي الطريق الرخامي كانت هناك العديد من أشجار الفاكهة ونباتات الزينة مثل "نخيل السيكاس" و"شيمادوريا" وغيرها تملأ المكان، وعلى اليسار كان هناك حمام سباحة كبير على شكل حرف "D" وحوله أربعة كراسى شيزلونج جميلة.

كان المنظر كله يبعث على الراحة والاستجمام. ليته كان يستطيع أن يجلس هناك ويستريح وينسى همومه تلك ولو قليلاً لكن هيهات.

أتكون في بيت الشيطان متعة؟! هي ذا الجحيم بعينه.

لم تكن السيدة "نيفين" تجلس في الفيلا كما كان يتوقع بل كانت تجلس في الخارج في الحديقة الخلفية للفيلا على أنثريه أنيق من نوع "Henkel Harris" الغالي.. كما كل شئ في هذا المكان!

لا أريد أن أطيل عليك الحديث في هذا الأمر، لكنها كانت سيدة في عقدها الخامس بالرغم من كبر سنّها إلا أنّها كانت صارخة الأنوثة كإلهة إغريقية، ببضاء قصيرة لها عينان خضراوان كخضار الزرع الذي أسفل كرسيها ملامحها بسيطة وأنيقة دون تصنع أو مغالاة ترتدي فستان "شانييل" قرمزيا وتضع عطرا لذات الماركة أيضا. لطيفة جدا يبدو وجهها بشوشا على العكس تماما من زوجها.

أخبرها مؤمن أنه لا يملك رسالة من زوجها أو أي شئ.. وقبل أن يترك لها مجالا للتفكير في استدعاء الحرس أخبرها أنه يملك محل هدايا كبير في القاهرة اسمه "The gift" وأن زوجها كلفه هو وشريكته "سميرة القاضي" في المحل أن يُحضّر هدية فخمة جدا سيأخذها من أجل زوجته.. وطلب منه أن يرسلها على هذا العنوان حالما ينتهي منها.. لكنه لم يعطه أية معلومات عن ذوق زوجته أو أي شئ مما صعب المهمة عليه هو وشريكته "سميرة القاضي" في اختيار الهدية المناسبة. وبما أن عنوان المحل الخاص بهم هو "لكل شخص الحق في اختيار هديته" فإنه قد ذهب إليها ليسألها عن نوع الهدية التي تريد.

كانت مبتهجة جدا وتضحك كثيرا لأن زوجها مازال يحبها ويريد أن يفاجأها على غير عادته. لكنها كانت حزينة لأنه بذلك فقدت متعة الشعور بالمفاجأة عندما يحضر لها زوجها الهدية. أما مؤمن فقد كان سعيدا لأنها لم تتعرف على اسم شريكته مما يؤكد أنها لا تعرف

شيئاً بخصوص "سميرة" والتي كرر اسمها أكثر من مرة أمام المرأة لكنها بكل تأكيد لم تعرفها.

لربما يضحك له الحظ أخيراً.. وإن لم يفعل.. سيجبره..

طمأنها مؤمن وأخبرها أنها لن تعرف ما هي الهدية بالضبط لكن فقط ستعرف نوعها وستكون من النوع الذي تحبه لذا ستكون أكثر هدية ملائمة لها.

أسهبت كثيراً في وصف الأشياء التي تحبها والتي تريد أن يحضروها ومؤمن يتظاهر أنه يدون خلفها ماتقول له هي وهو أصلاً لا يعلم كيف يتهجأ تلك الأشياء التي تريدها.

وبعد أن انتهت شكرها مؤمن وشدّد عليها ألا تخبر زوجها أبداً أنه كان هنا يسألها عن نوع الهدية فهذا من شأنه أن يضايقه لأنه أتى بغير علمه. وعدته السيدة المنتشية بالرومانسية أنها لن تخبر أحداً بهذا الأمر.

وأكد عليها أيضاً أنه لا يريد أن تتعامل معه بلطف زائد وحنية غير معتاده فهذا أيضاً قد يجعله يشك في الأمر بل بالعكس طلب منها أن تحاول أن تبدو أقل لطفاً قليلاً حتى لا يشك بأي شيء.

كانت فرحتها بهذا الخبر كبيرة مما جعلها توافق على أي شيء يطلبه منها.

ابتسم لها مؤمن ابتسامة كبيرة وتظاهر بأنه سيغادر ثم استدار إليها متظاهراً بحيرة شديدة وقال في قلق يجيد اصطناعه: هل تدري يا سيدتي. أظن أنه لا مانع من أن تخبري زوجك أنني أتيت هنا كي أسأل عنه وأطمئن فقط. فأنا لا أحب أن أدخل بيت شخص دون علمه، لكن لا تخبريه أبداً عن الموضوع الذي جئت لأحدث إليك بشأنه.

هزت رأسها بالإيجاب ثم أشارت إلى الحارس كي يوصله إلى الباب، نظر إليها مؤمن ثم مدعيا أنه تذكر شيئا كان قد نسيه قال لها: آه أيضا أبلغيه تحياتي "مؤمن السبع" وصديقتي "سميرة القاضي" هل تستطيعي تذكر الاسمين يا سيدتي أم هل من الأفضل أن أكتبهما لكي في ورقة؟

-لا، سأذكرهما لاتقلق، لا تنس أنت أن تحضر مما أخبرتك به.

قالت بابتسامة مازحة.

بالرغم من كبر سنهما إلا أن تعبيرات وجهها كانت أشبه بالطفل عندما يحصل على لعبة يريدتها.

هي تملك كل شيء في هذه الفيلا.. يعلم أن لا شيء من الذي طلبته منه ينقصها.. فقط أرادت أن تشعر أن زوجها مازال يهتم لأمرها.

هذا هو النوع من المشاعر الذي راهن عليه مؤمن.. الحب الساذج.

مهما بدت ذكية أو تصنعت الذكاء.. مهما كان عمرها.. غبية هي كي لا تدرك أن زوجها قد نسي أمرها منذ زمن.. لم تعد تلزمه.. على الرغم من جمالها واهتمامها الواضح بنفسها.. إلا أنه تزوج من هي أصغر منها سنا.. لا شيء يغلب الشباب.. أولئك الذين لم يتدقوا ما يكفي من سم الوقت بعد.

قليلا من ذاك السم يجعلك تتشي بقوتك.. بجمالك.. بعنفوانك وحماسك.. كثير منه يقتلك.. بعد أن يقتل كل ما تحب في نفسك بالتدريج.

تصير شخصا لا تعرفه ثم تموت.. تموت لا تعرف من هذا الشخص الذي صرته.

كيف لسيدة بهذا الجمال والرقّة والذكاء مثلها أن تُجَدِّع بحجة ساذجة كنتك؟!

كيف تقنع عقلها أنه مازال يتعلّق بها أو يفكر أن يُهاديها؟!

مسكينة هي ومخطوظ هو مؤمن..

نظر إليها وضحك لكنها كانت ضحكة حقيقية هذه المرة! ثم انصرف.

لقد سارت الخطة كما توقع بل أفضل، لقد رمى الطعام الآن كل ما عليه هو أن ينتظر مثل أي صياد محترف حتى تقع الفريسة في الصنارة.

في المساء وجد مؤمن رقم غريب يتصل به على هاتفه.

رد على الهاتف وكما كان متوقعا، كان الاتصال من مكتب "راضي منصور" تخبره

السكرتيرة أن الأستاذ راضي ينتظره في مكتبه اليوم التالي الساعة الثالثة عصرا.

قبل مؤمن الطلب وأغلق هاتفه وهو يلوح بيديه في الهواء ويطلق تعبيرات تدل على شدة الفرح. تماما كما فعل لدى معرفته خبر رجوع علي مرة أخرى.

لم يقبل الرجل التحدث إليه حتى عندما أخبره أنه سيبلغ عنه الشرطة.. ما إن أحس أن زوجته ستكشف سره انتفض واسرع في طلبه ليتحدث معه!

أخشاها أكثر من السجن والفضيحة! لا يستطيع أن يلومه كثيرا في هذا الأمر.

تخيل نفسه مكان راضي وردة فعل مشيرة إذا عرفت أنه تزوج عليها.. لم يتبادى في الأمر كثيرا فسرعان ما استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وصرف النظر عن هذا الكابوس.. إنها خدعة من الشيطان ليضل بها فرحته بما وصل إليه في تلك القضية.

تكتشف -تخيلىا- أنه يخونها! ياللسخافة.

ستكون نهايته..

في المكتب أوقفه حارسا الأمن كما في المرة السابقة وسألاه عن اسمه وعندما أجابهم سمحوا له بالدخول دون تفتيش كما في المرة السابقة.

دخل من الباب وكانت خطواته أكثر ثقة هذه المرة فقد أعد ما سيقوله مسبقا وهو أيضا يعرف شكل راضي ومكتبه لذا لن يتفاجئ مرة أخرى وهذا من شأنه أن يعطيه ثقة أكبر. عبر الردهة أمام المكتب ومثل المرة السابقة خرجت له السكرتيرة وكانت تبسم أيضا ثم مشت أمامه حتى مكتب راضي والذي لم يكن يبعد سوى بضع خطوات من مكتبها حتى وصلت إلى الباب فطرقت وفتحته دون أن تنتظر ردا من الداخل وأشارت إليه أن يتفضل بالدخول.

كان المكتب مبهرا كان تحفة فنية حقيقية.

كانت الجدران مغطاة بـ "باركيه" من خشب الزان يعطيه مظهرا أثريا، كان هناك أيضا أنثريه خشبي جميل على اليمين لكن أكثر مالفت انتباه مؤمن هو الجدار الواقع خلف مكتب راضي، كانت به مكتبة ضخمة تضم عددا كبيرا من الكتب معظمها في القانون ومنها كتب

قام هو بتأليفها بنفسه لم يكن هذا هو الغريب في الأمر بل هو وجود سيف ساموراي "كاتانا" خلف مكتبه مباشرة محمول على حامل سيوف يبدو مصنوع خصيصا لهذا النوع. من منظره يبدو أنه مصنوع من الفولاذ ومقبضه من الخيزران يدوي الصنع، كان المكتب أشبه بمتحف!

تقدم مؤمن وجلس أمام المكتب وبدأ بالنظر إلى راضي الذي بدا أنه مشغول بإنجاز بعض الأوراق في يده.

نزع نظارته المخصصة للقراءة وتنهد ثم نظر إلى مؤمن وقال بصوت هادئ رزين: ماذا تريد يا سيد مؤمن؟

أخرج مؤمن زفرة تدل على الاستنفار ثم قال: أنا؟! أنت الذي دعوتني إلى هنا كنت أنتظر أنت تخبرني أنت عن سبب دعوتك المفاجئة هذه.

فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج منها سيجارا أشعله وأخذ نفسا ثم قال متأففا:

-ليس لدي الوقت لتلك الألعاب. أخبرني بما تريد ولماذا كنت في منزلي أمس؟

ابتهج مؤمن لأنه لأول مرة رأى راضي منزعا قليلا. هذه بداية جيدة

وسيحاول أن يكمل على تلك الوتيرة حتى يستطيع أن يجعله يخطئ ويكمل "بكرة

خيوطه" المشودة. بتعجب مصطنع قال: آه، مدام سميرة لا يمكنها كتمان سر..ها، أوه

أسف أقصد نيفين. وابتسم ابتسامة استفزاز صغيرة.

-ستلجأ للأسلوب الطفولي إذا ها، يبدو أنك تقصيت عني والآن تحاول أن تبتزني. إليك ما في الأمر لا أحد يمكنه أن يملئ على "راضي منصور" ما يفعل. إذا كان لديك شيء ضدي

إذا أحضر مذكرة تفتيش رسمية وتعال منزلي أفعل ما يحلو لك، عدا ذلك لا أريدك أن تدخل منزلي مرة أخرى وإلا سأبلغ الشرطة.

أنهى كلامه ونفث دخان سيجارته في وجه مؤمن العابس ثم نهض من كرسيه وسار نحو مكتبته في تبلد وبدأ يبحث في الكتب عن شيء ما.

كان للرجل أسلوب من نوع خاص، لا عجب أنه أشهر محامي في مصر وكل رجال الأعمال تقريبا يعتمدون عليه.

مهما كانت خبرته فهو يعلم أنه ليس ندا مباشرا لخصم محنك مثل راضي.. لا يمكن أن يواجه جيش قوي كجيش.. سيقاومه ك"ميليشيات".

قال بكثير من الحصافة: أنا لست هنا لأساوئك أو أبتزك على الإطلاق، لو أنك كلفت نفسك وبحثت عني لعلمت أي ضابط شرطة وأن...

قاطع راضي بعجرفة: أعلم أعلم. لكن هذا لا يعطيك الحق لدخول بيوت الناس واستجواب ذويهم.

كان مؤمن سعيدا جدا لأنه من نبرة صوت راضي يبدو أنه مازال لم يعلم سبب زيارته لمنزله أمس.

في تلك المواقف يجذب مؤمن التزام الصمت فهذا يدفع الشخص أمامك لأن يعرض كل مآلديه من معلومات وبعدها يستطيع أن يعلق هو على جملة أو أكثر ويدع الشخص الآخر يكمل كلامه حتى يستنفذ كل معلوماته.

وبالفعل لم ينطق مؤمن وظل ينظر إلى راضي -وهو يبحث عن كتابه المنشود- الذي تابع حديثه قائلاً: لقد تحرّيت عنك بالفعل كما فعلت أنت، أنت ضابط ناجح ولديك أسرة جميلة، زوجة لطيفة والصبي الصغير ما كان اسمه... آه أجل إنه ياسين، حفظهما لك الله، وصهرك "علي" أنا حزين حقاً لأجله، خالص تعازي الحارة لك ولباقي أسرته.

احمر وجه مؤمن واشتد به الحنق، إنه يستطيع تمالك نفسه في أي شيء عدا أن يكون المعني هو زوجته وابنه، لكن على الفور أدرك أن كل هذا هو مجرد خداع ذهني يمارسه السيد راضي.

هو ليس أحق لهذه الدرجة كي يقوم بتهديد ضابط بابه وزوجته. لا، إنها مجرد خدعة، كما أن كلامه لم يكن كله سيئاً إذ يبدو أنه مازال لا يعرف ما حدث لعلي وهذه نقطة كبيرة تضاف في رصيده، لذا تمالك نفسه وأطلق ضحكة قصيرة ثم قال: لقد وضعت يدك على لب الموضوع يا سيد.

التقط راضي كتاباً من المكتبة، أحضره وجلس على كرسيه ووضع على المكتب أمامه ثم قال وهو يرتدي نظاراته مرة أخرى:

-أه، الآن فهمت، أنت تظن أن لي دخلاً بما حدث لقريبك ولذلك تريد الانتقام مني... لكن للأسف لا تملك أي دليل ضدي لذا لا تستطيع اللجوء إلى الشرطة فبدلاً من أن تصرف نظر عن تلك القضية وتقتنع أن ما حدث كان قدراً إلهياً تذهب إلى منزلي وتحدث إلى زوجتي ثم تأتي إلى هنا لتبتزني ها!

أخذ نفساً آخر من سيجاره ثم قال بهدوء:

-دعني أخبرك شيئاً، أنت مازلت جديداً في الحياة.. مازلت شاباً يافعاً.

اعلم أنه ليس من الضروري أن يكون هناك سبب لكل شيء. أنت تريد شخص تلقى باللوم عليه لوفاة صهرك تريد أن تشعر أنك تفعل شيئاً مفيداً بالبحث عن سبب ما حدث له تريد أن يكون شرير في قصتك علك بعد ذلك تقنع ضميرك أنك فعلت كل ما يمكنك فعله حتى تستطيع النوم مرتاح البال، للأسف.. ليس هناك أشرار، هناك أشياء تحدث لا نستطيع تغييرها.. كل ما يمكننا فعله هو التعايش بأقل الأضرار.

عش حياتك بعيداً عن المفاهيم الخيالية لأنك هكذا تركض بأقصى سرعة خلف سراب.. وستدرك ذلك في لحظة اصطدام قد لا تنجو منها. ومن هيئتك يبدو أنك لم تنج بالفعل.. ما الخطب في هيئته؟! لقد خرج في أحسن زينته.. لكن للأمانة ملابسه مقارنة بملابس راضي تبدو أنها من القمامة!

لن يسمح له بالتلاعب بأفكاره.. أو ينتقص من حقه.

كان كلامه مغرياً جداً، وكان مؤمن ليقتنع بهذا الكلام لولا أنه يعلم أن علي حي وأن هناك سبب وراء ما حدث له وهذا السبب يتعلق براضي.

هز كتفه وابتسم باستفزاز قائلاً:

-أنا أعلم أنك رجل مشغول لذا لن أطيل عليك، أنت تريدني أن أتوقف عن تتبعك والذهاب لمنزلك، حسناً، ليس لدي مشكلة مع هذا. أنا فقط أريدك أن تحبيني عن بضعة أسئلة وبعدها لن تراني مجدداً.

انفجر مقهقهقا: الآن أنت من تضع الشروط؟! أخبرتك قبلاً أنني أستطيع منعك من مضايقتي بكل سهولة لكن -وعلى الرغم من كوني محامياً- إلا أنني أحبذ أن تتم الأمور بشكل ودي، أرني مالدريك وبعدها سأرى إن كنت سأجيب أم لا.

قالها راضي بكل سهولة وثقة ثم استلقى للخلف على كرسيه وعقد ساعديه خلف رأسه.

وجد مؤمن نفسه يضع قدماً فوق قدم كنوع من ردة الفعل للحركة التي فعلها راضي كي يستطيع أن يكسب بعض الثقة والكاريزما هو الآخر فلمهم في حوارات كنتك ليس الكلام وإنما كيفية توجيهه.. ثم قال بشئ من الكياسة:

سأبدأ معك من البداية، أولاً أريدك أن تخبرني جل ما تعرفه عن ما يسمى "الجماعة" وعن عملياتكم الإجرامية والسرقات التي تقومون بها.

ثانياً أخبرني كل ما تعرفه عن البشمهندس محسن الصباغ وعملية قتله.

ثالثاً أريدك منك أن تشرح لي لماذا تم تسميم صهري وماذا تعرفه المتورطين في هذه القضية.

أنا أعلم أنك لن تكون صادقاً معي في كلامك فهذه أمور من شأنها أن تسبب لك ضرراً أو تلقي بك في السجن لكنني -بحكم خبرتي- أستطيع تمييز الكذب من الحقيقة بسهولة فلا تحاول العبث معي.

يلعب بالنار بكل تأكيد... لا بد أن يكون مجنون ليلقي بكل تلك الأسئلة مباشرة هكذا في وجهه، إما أنه مجنون تماماً أو أنه واثق تماماً.. في كلا الحالتين كان الأمر مناسباً له.

قد لا تتاح له فرصة أخرى لمقابلة راضي.. على الأقل لو لم يجب عن أسئلته فسيعلم أنه مراقب.. يعلم أنه هناك من يعرف عن جرائمه.. هذا من شأنه أن يجعله يرتبك أخطأ.. الجميع يفعل فلما لا يفعل هو.

الخوف والتوتر أكبر حافزان لكي يخطئ الإنسان. يموت معظم الناس من الفزع بعد أن يتعرضوا للدغة ثعبان وليس من تأثير السم. خوفهم هو ما يقتلهم.. وهو بكل تأكيد ما سيقتل راضي و"جماعته".

اعتدل في جلسته مرة أخرى وبدا على وجهه الاستغراب. يبدو أنه لم يكن يتوقع أن مؤمن على دراية بكل تلك الأشياء، لكن سرعان ما عادت إليه ثقة وكاريزمته المعتادة ونظر إلى عيني مؤمن ثم ابتسم وقال في استهجان:

-يبدو أنك أتيت إلى الشخص الخطأ، أنا لا أعرف عما تتحدث!

-الآن هذه أول كذبة، كنت متأكدا أنك ستكذب عليّ.. لكن بهذه السرعة!

نظر راضي إلى ساعته الفاخرة من نوع "رولكس سكاي دويلر" ثم حلق بمؤمن وقال بشئ من الكبر: أسف لقد تأخر الوقت، أنا عندي اجتماع مهم في الثالثة والنصف، أعتقد أن هذه هي نهاية حديثا.

وأغلق الكتاب الموضوع أمامه الذي فتحه ولم ينظر فيه حتى وبدأ يجمع بعض الأوراق ويهاها كي يضعها في حقيبته.

اشتد غضب مؤمن الذي قال: أي حديث ذاك الذي انتهي؟! أنا لم أبدأ بعد، لن أتحرك من هنا قبل أن تجيبني عما أتيت من أجله.

في تلك الأثناء كان هناك صوت طرقات خفيفة على الباب، كانت ثلاث طرقات متتالية بنسق معين يبدو أن راضي يعرف تلك الطرقات لذا سمح للطارق بالدخول دون أن يسأله عن اسمه أو ربما رآه في الشاشة الموضوعة أمام مكتبه والمتصلة بكاميرات المراقبة خارج المكتب كما فعل عندما أتى مؤمن أول مرة.

بالفعل كان الطارق هي سكرتيرته والتي في ود قالت: سيدي لقد اتصل الدكتور حاتم منذ قليل كان مستاء وطلب مني أن أخبرك أنه يريد مقابلتك غدا الساعة الواحدة ظهرا في م....

احمر وجه راضي ولأول مرة رآه مؤمن عصبيا ثم بدأ يصيح في السكرتيرة ويوبخها عن كم مرة أخبرها أن مواعيد هي شئ سري ولا يجب أن تقوله في العلن. انتفضت الفتاة التي كادت تبكي وبدأت تطلق الاعتذارات وتعد أنها لن تكررهما مرة أخرى، طلب منها راضي أن تخرج من مكتبه وسينظر في أمرها فيما بعد...

كان مؤمن لا يزال جالسا في مكانه يحدق إلى راضي الذي كان منفعلا جدا.

أدرك أنه لن يتخلص من هذا الشخص إلا عندما يعطيه ما يريد.

فقال بسرعة رهيبية:

- حسنا ماذا تريد؟ تريد أن أجيب على أسئلتك حسنا لك ذلك، أولا لا أعرف ما يسمى "الجماعة" ولا شئ عن عملياتهم الإجرامية. إنه مصطلح سخيف لم أسمع به قبل ربما اخترعه أحدهم ليقلي باللوم عليه فقط.

أما عن محسن فما أعرفه لا يزيد عما تعرفه أيضا لقد كان موظفا في الحسابات عند الدكتور حاتم وكما سمعت فقد كان يختلس الأموال بحكم السلطة الممنوحة له، اكتشف الدكتور حاتم هذا الاختلاس واستشارني عن الأشياء القانونية التي يستطيع فعلها في هذا الموضوع، بالطبع لن أخبرك عما دار بيننا من حديث فهناك سرية بين المحامي وموكله أنا ملتزم بها تماما، وبعد ذلك وُجد متحرا في منزله. هذا كل ما أعرفه بخصوصه.

ماذا أيضا؟ ما كان سؤالك الأخير؟

اعتدل مؤمن الذي كان مستمتعا بها يسمعه وقال:

- "علي رشاد" ماذا تعرف عن المتسببين في قتله؟

- ها هذا أسخف شيء سمعته على الإطلاق، يموت قريب لك إثر أزمة قلبية فيكون أول ما تفكر به هو أنها عملية اغتيال! ياللسخافة، هناك تقرير الطب الشرعي يمكنك الاطلاع عليه. هذا كل ما يمكنني أن أخبرك به. أعذرني الآن.

جمع أوراقه ووضعها في الحقيبة وأطلق زر الإنذار لاستدعاء الأمن.

كان الرجل يتحدث بسرعة ولباقة غير عاديين، كان الكلام ينساب منه كأنه أعد تلك الإجابات مسبقا وتدرج عليها كثيرا، كان يبدو صادقا خصوصا بالسرعة التي يتحدث بها لم يكن هناك مجال ليختلق الأكاذيب، ربما يستطيع مؤمن تصديقه في جميع الأمور عدا قضية قتل علي.

أخرج الرسالة من جيبه بسرعة وفتحها ووضعها أمام وجهه راضي مباشرة وقال بغل وحنق: هل تعرف ما هي تلك الرسالة؟ هل تعرف ماذا يعني الكلام المكتوب فيها؟!

انتفض راضي ووثب للخلف قليلا واحمر وجهه وكانت هناك رعشة صغيرة في يده كانت كفيلة ليلاحظها مؤمن. ثم عدّل وضعه مرة أخرى وقال بتبلد: "بلها واشرب مائها" بينما يقف مؤمن مغتاضا يحلل ما قاله الرجل شعر برجلي الأمن يقفان على الباب ومرة أخرى أثر السلامة وفضل أن يحفظ ماء وجهه وخرج من تلقاء نفسه وهو يرمق الرجل بنظرات حادة.

صباح اليوم التالي استيقظ مفزوعا على صوت هاتفه برن، كان هناك سبع وعشرون مكالمة فائتة كلها من علي.

خفق قلبه بشدة وظن أن مكروها ما حل به، قام هو بالاتصال به تلك المرة، رد علي بسرعة وبدا غاضبا جدا من تجاهل مؤمن له كل تلك الفترة ومنحه ثمان ساعات كي يعود إلى شقته في الأسكندرية وإلا سيغادر هو ويذهب إلى منزله.

كان هذا الوقت كافيا لينجز مؤمن كل الأعمال التي خطط لها بالأمس.

كانت محاولة أخيرة لتتبع آثار هذا الخيط حتى يحصل على أكبر جزء من الأدلة عليه يجد دليلا ماديا واحدا يقنع به الشرطة باتخاذ إجراءات قانونية تجاه راضي و"الجماعة".

أو على الأقل يفضح فعلته أمام الدكتور حاتم.. سيواجهه بها يعرف، لابد أنه سيرتبك ويخطئ.. قد جهز مؤمن كل شيء..

مرت أربعة ساعات منذ آخر محادثة دارت بينه وبين علي والتي أمهله فيها ثمان ساعات حتى يعود لم يفعل فيها سوى أنه ظل يحدق في الرسالة محاولا فهم ما ترمز إليه.

لم يتوصل إلى أي نتيجة ذات فائدة.. كان بيده أن يرسل صورتها إلى علي كي يساعده في حلها.. لكن لا يدري حقا لماذا لم يخبره، لم يكن يفكر تلك المرة في أن يجنبه القضية كي يحمي.. على الأرجح كان شعورا منه أنه يعاقبه على تحدّثه معه بلهجة قاسية وعدم مراعاة ما يفعله من أجله، لكنه لم يكن متضايقا لأن كل هذا الوقت مر سدى فما هو مقدم عليه الآن ربما يكون أهم شيء حدث في هذه القضية على الإطلاق.

حوالي الساعة الثانية عشر والنصف قاد سيارته حتى توقف أمام مكتب "راضي منصور" لكنه لم ينوي الدخول هذه المرة بل كان ينتظر خروج شخص ما. وقف خارجا حتى قاربت الساعة الواحدة ولم يخرج أحد.

ارتبك وبدأ يخيب أمله لكنه كان في قرارة نفسه يعتقد أنه حتما سيحصل على ما يريد، قرر النزول من سيارته المرسيديس والاتجاه إلى الجراج أسفل المبنى ليتأكد أن سيارته موجودة هناك، بالفعل كانت السيارة -التي رآه مؤمن فيها قبل- موجودة هناك. لا مفر إذا من الانتظار ربع ساعة أخرى؛ عليه يكون قد تأخر عن مواعده، أشخاص كهؤلاء دائما ما يكونون مشغولين وأحيانا يتأخرون عن مواعيدهم.

مرت أكثر من ثلث ساعة وهو ينتظر أيضا لكن دون جدوى، خرج من سيارته واتجه نحو الجراج مرة أخرى كانت السيارة ماتزال متوقفة، أيمن أن يكون غير مواعده وذهب مبكرا؟! أيعقل أنه كان يعلم أن مؤمن سينتظره حتى يخرج ويتبعه؟! هذا الرجل داهية حقا..

هذه المرة لم يكتفي بالتحديق إلى السيارة فحسب بل اتجه نحو السائيس وسأله عن سيارة المحامي راضي ليتأكد أنها ملكه وأنها ليست واحدة شبيهة لها، أكد له الرجل أنها سيارته لكن فاجئته وأخبره أنه لم يحضر ذاك اليوم بسيارته تلك وإنما كان يركب سيارته الأخرى الـ"BMW" وقد استقلها منذ ما يقارب النصف ساعة وغادر.

كز على أسنانه بشدة وظل يوبخ نفسه كثيرا ويلقي باللوم على عنده وكبريائه فلو أنه سأل منذ البداية لكان الآن يتجسس على اجتماعه هو والدكتور حاتم ولربما استطاع أن يقتنص من حديث راضي معلومات تسهل الإيقاع به..

لو أنه استمع إلى كلام مشيرة لما حدث كل هذا، فهي دائما ما تقول له أن الرجال يمنعهم غرورهم من أن يسألوا عن أشياء يحتاجونها وكانت تنصحه أن يتوقف عن العناد ويسأل عندما لا يعلم شيئا لكنه دائما ما كان يصصر على موقفه ويحاول أن ينجز الأمور بمفرده وهاهو الآن قد أفلت من قبضة يده أحد أهم الخيوط في تلك القضية.

أراح ضميره قليلا تفكيره أنه لو كان سأل السائيس قبلا لكان أخبر راضي بهذا ولربما كان راضي حاول الخروج من هناك بطريقة أخرى، كان هذا احتمالا مستبعدا لكنه على الأقل أراح ضميره قليلا، جل ما يمكنه فعله الآن هو العودة إلى شقته في الأسكندرية ويطمئن على "علي" ويعيد ترتيب أفكاره حتى يستطيع أن يكمل ما بدأه في تلك القضية.

وهاهو الآن يجلس على الأريكة في صالته يحكي لعلي ما حدث معه.

كان هذا بالتفصيل هو ما حكاه مؤمن لعلّي خلال الساعة ونصف الفائتة وهو يحتسي كوباً من الشاي.

كان عليّ يستمع بإنصات شديد حتى أنه في كل تلك المدة لم يقاطعه سوى مرة أو اثنتين على الأكثر، كانت حكايته مليئة بتفاصيل الدقيقة أعجبت عليّ بشدة، لكن لم يكن الإعجاب هو الشعور الطاغي عليه في ذاك الوقت بل الخوف والتعجب! كانت تسري في جسده شعيرة أو رعدة من نوع غريب طوال ما كان مؤمن يحكي.

كانت المعلومات كثيرة جداً وغريبة "الجماعة" محامي متورط في قضايا غير شرعية! كل تلك الأشياء كانت تدور في مخيلة عليّ الذي كان لم يفق من صدمة أن نسيبه حاول تنحيته عن القضية بعد.

كان ينظر إلى مؤمن شزراً عندما أخبره أنه كان يفكر في تنحيته عن الأمر لكن مؤمن سرعان ما علل موقفه هذا بأنه كان يريد أن يحميه.. أن يجنبه الألم والتعب. لكن في النهاية أدرك أنه لن يقدر على حلها بمفرده.

حتى مع كل خبرته تلك يظل عاجزاً عن الإتيان بشيء جديد..

قبل اعتذاره على مضض..

على الرغم من كل ما توصل له مؤمن إلا أنه لم يعرف بعد سبب تسمم عليّ أو من كان وراءه ولا حتى كيفية وصل السم له.

هل من الممكن أنها مصادفة وأن قلبه توقف من تلقاء نفسه؟

هذا أمر مستبعد بشكل كبير..

لكن ما عساه يكون قد فعل هذا به؟ ما عساه أوقف قلبه وأصابه بغيبوبة كل تلك المدة؟
أيعقل حقاً أنها مصادفة كما قال المحامي؟!

عندما أنهى مؤمن كلامه تنهد بشدة لكنها لم تكن تنهيدة لإخراج الهواء بل لإخراج
المشاعر..

لم ينظر إلى علي ولم يسأله عما يدور بباله لكن ظل ينظر إلى الحائط كأنه يهيم في عالم آخر.
أمسك علي الرسالة وظل يتفحصها كما فعل أول مرة لكن بدقة أكبر هذه المرة.
مرت دقائق عدة ولم يصل لنتيجة.. ومؤمن ما يزال صامتا يفكر.

يشعر أن الظلام مازال يجثم على نفسه.. بعد كل ما حدث ينتظر أن يفيق!

لم يكن القبر أسوأ كوابيسه.. الأسوأ لم يأتي بعد!

مر شتاء الناس ولم ينته شتاء قلبه بعد.. مازالت عواصف أحزانه تضرب صحراء قلبه..
تخيل برقاً بلا ضوء يضرب وسط قلبه!

حزن.. رعب.. ألم.

مثلث الموت..

ظلا على تلك حال فترة وخيم صمت كالموت بينهما ثم في لحظة خاطفة وثب علي من
مكانه وتنحنح ثم قال: آه، لقد تذكرت شيئاً الآن...



سأتركهم يتنعمون في جهلهم بالحياة.. معتقدين أنهم آمنون.. وهم للموت
أقرب منهم للحياة!

تركت إعداد الطعام وانطلقت نحو الباب الذي رن جرسه.

كانت تمشي الهوينى كما يمشي الوجى الوحل.. تتسأل في نفسها من ذا تراه يأتي في هذا الوقت المبكر؟

وقفت خلف الباب دون أن تصدر صوتا ووضعت إحدى عينيها على "العين السحرية" ونظرت على الطارق. لقد كان أحمد واقفا ثم همّ بالانصراف لأنه لم يجد استجابة.

وضعت حجابها ثم فتحت الباب بسرعة ونادت عليه كي يعود. سلم عليها بلطف وسألها عن مؤمن فأخبرته أنه غير موجود اليوم أيضا.

لم يكن أحمد وحده الذي لاحظ غياب مؤمن كل تلك الفترة الماضية.. الجميع لاحظ.. الجميع كان منه غاضبا.. عداها.. ومن ذا يهمله سواها!

تمشي مشيرة وتسمع الناس حولها يتأهسون عن زوجها الذي تركها مباشرة بعد وفاة أخيها، يؤثر ذلك في نفسها كثيرا لكنها تتحمل همس الناس ونظراتهم لأنها تعلم أنه عندما يعود علي وتظهر الحقيقة ستخرس كل تلك الألسنة. لم يكن أحمد أحد أولئك الأشخاص الذين يلقون تعليقات سخيفة عن غياب مؤمن، كل ما في الأمر أنه بدا متعجبا فقط، هي لا تلومه فالأمر حقا يدعو إلى الريبة والشك خصوصا عندما يكون حاضرا كل يوم بلا انقطاع منذ وفاة صديقه ولم ير زوج أخته مرة واحدة! كان أحمد وفيما جدا فهو لم ينقطع عن الزيارة والسؤال عن أحوال عطيات ومشيرة منذ ما حل بعلي، كان يبدو أنه متأثر بشدة وكان يبكي يوم الوفاة بحرقه، كان يضرب الحائط بشدة كما لو أنه يندب حظه.

كما أنه ألف خطاب تأبين لصديقه.. ليس هذا شيئاً معتاداً في عائلتهم لكنه فعله على كل حال، وللأمانة كان مذهلاً. كانت بدايته: "يا طيور العالم قفي.. يا أرض الحزن قفي.. يا كل الكائنات أعلنوا حدادا على أنقى قلب وأطهر روح. أترأه وحده في الظلام يسير؟! أي ظلام وقلبه منير!...." لا تتذكر باقي الكلمات لكنه كان تأبيناً رائعاً، خصوصاً الشعر الذي ألقاه في النهاية، لا يمكن أن تنسى كلماته ولا تعبيرات وجهه وهو يلقيه. كان يقول:

"أرى عمل ابن آدم بعد موته.... يظل الدهر حياً له يموتُ

ومن بث المعارف بين قوما غداً متحـدثا وهم سـكوتُ

وإن سكن الثرى فهو الثريا وهل يُخفي الضياء العنكبوتُ!"

تعلم أن الكتابة ليست من هواياته لكن هذا التأين كان مؤثراً بحق.

صدق من قال لست بحاجة أن تكون أديبا كي تبهر الناس أنت بحاجة لتكون صادقا.

كل هذا جعل عطيات تغير وجهة نظرها عنه تماماً، فهي ما كانت تطيقه قبل ذلك، لكن كل

ذلك الإخلاص في حديثه ومواساته لها دائماً جعلتها تشعر بالذنب لأنها كانت تظلمه

طوال تلك الفترة، لكنها سعيدة بوجوده الآن لأنه يذكرها بفقيدتها.

ودعها أحمد فور معرفته أن مؤمن غير موجود وأخبرها أنه سيمر عليهم في وقت لاحق

واستدار كي يغادر لكنها دمدمت قائلة: ماما عطيات موجودة أذا كنت تريد رؤيتها.

نظر إليها قليلا وبدا أنه محتار، لم يكن هذا من عادته فلم تكن تلك أول مرة يأتي إلى المنزل ويجلس مع عطيات يواسيها ويخفف عنها فلماذا هذه المرة إذا يبدو مترددا؟! ولماذا جاء مبكرا هكذا؟! أليس لديه عمل؟

في النهاية وافق على الدخول. كانت عطيات تجلس جلستها المعتادة في الصلاة على أريكتها، دخل أحمد فسلم عليها وبدأ يسأل عن حالها وما إذا كانت تحتاج شيئا. اطمئنت مشيرة إلى أن كل شيئا بخير ثم دلفت إلى المطبخ تكمل إعداد الفطور وتعد شيئا لأحمد كي يشربه. وضعت الماء على البراد وتركته يغلي ثم عادت إلى الصلاة مرة أخرى كي لا تجلس عطيات مع أحمد بمفردها. ما أن دخلت الصلاة حتى قطع أحمد حديثه ثم بتردد قال: تعالي يا مشيرة، أريد أن أخبركما أمرا هاما.

بدت الدهشة على كليهما فهما غير معتادتان على هذا الأسلوب في الحوار من أحمد كما أن هذه أول مرة ينادي فيها مشيرة باسمها على الإطلاق، لا بد أنه سيقول أمرا خطيرا. - في البداية أريدكما أن تعرفا أن ما سأقوله الآن مهم جدا، لم أقل هذا الكلام لأحد قبل، لكنني أشعر أن هذا واجب علي أن أخبركما الحقيقة.

نظرتا إلى بعضهما البعض ثم عاودتا النظر إليه في دهشة، دعت مشيرة الله في سرها ألف مرة أن يكون خبرا عاديا.. لن يتحمل قلب والدتها الضعيف مزيدا من الأخبار السيئة.. ولا حتى الجيدة. استأنف حديثه قائلا بتردد: إن علي... تحشرج صوته وقبض يده اليسرى وقربها من شفته السفلى، ثم تابع وهو يقاوم البكاء في نفسه: علي لم يميت....

لم تدعه مشيرة ينطق حرفاً آخر فقاطعته بسرعة قائلة في حزم: أجل يا أحمد، نحن نعلم أن علي لم يمِت، إنه حي في قلوبنا جميعاً، إنه حي بأعماله الخيرية وطيبة قلبه. لكن أرجوك لا تُعد علينا تلك المآسي مرة أخرى، نحن بالكاد نستطيع تحمل الأمر.

انتهت كلامها ثم بدأت تغمز له عدة مرات حتى فهم مرادها فقال: أ...أجل بالطبع، أنا أسف لم اقصد مضايقتكم، لكنني حقيقة أشعر أنه مازال حياً بأعماله التي يذكرها الناس دائماً عنه.

كل هذا والدهشة بادية على عطيات وتتسائل: هل جُن الفتى؟ يجمعنا ويخبرنا أنه أمر مهم ثم يقول إن علي حي بأعماله! هذا هو الأمر الخطير؟! لقد قال لي هذا الكلام أكثر من مرة قبل ذلك فلماذا الآن يقوله مجدداً؟ هل من الممكن أنه يخفي عني سراً؟ ومشيرة أيضاً يبدو أنها تعلم شيئاً.

كانت عيناها تفضحانها.. تفضح كذبهما وترددهما كما تفضح عدم تصديقها حرفاً مما قالوا.

نهض أحمد وودع عطيات وأخبرها أنه سينصرف حتى يلحق علمه، دعت أنه يجلس ويشرب الشاي فاعتذر ووعدا أن يأتي مرة أخرى يشرب فيها الشاي معها.

نهضت مشيرة من مكانها متحفزة ومشت أمامه بسرعة في خطاها كي تفتح له الباب. وعند عتبة الباب استدارت إليه وهمست: فيما كنت تفكر؟ هل تظن أنها ستتحمل خبراً كهذا مباشرة هكذا دونما تمهيد!

تغير لونه واصفر وجهه وبدأ يتعرق.. قبل ان يأتي كان يتوقع أن تكون الصدمة على وجهها لا وجهه! نظر إليها بتعجب ثم قال: هل كنت تعلمين طوال هذا الوقت ولم تخبري أحداً؟! لا وجهه!

أشارت إليه أن يخفض صوته كي لا تسمعها عطيات ثم قالت صوت غاضب منخفض:
أجل كنت أنا أعلم أنه لم يمت، ومؤمن كذلك يعلم، إنه الآن يهتم بكل شيء الآن لذا هو لا
يأتي كثيرا إلى المنزل. لم نخبر أحدا آخر لأننا ننتظر اللحظة المناسبة حتى يتم تجهيز كل شيء،
عدني أنك لن تخبر أحدا آخر بهذا الأمر.

تردد صوته وخرجت من بين شفثيه الكلمة مرتعشة: أعدك.

حسبه هذه الصدمة اليوم.. لا حاجة لمزيد من الكلام.

شكرها على الاستضافة ثم ارتدى حذاءه مسرعا وانطلق مهرولا.

أغلقت الباب واستدارت وسندت ظهرها عليه، هي تعلم أنها على وشك الذهاب إلى قاعة
المحاكمة، ربما في أية لحظة الآن سيتم استدعائها، هي ليست كأية محاكمة.. إنها محاكمة
صدر فيها الحكم قبلا، هي تعلم علم اليقين العلم أن عطيات لم تصدق ولا كلمة مما جرى
بالداخل، ومهما أقسمت لها وفعلت الأفاعيل فإنها لن تسلمها عقلها وتصدق هذا الكلام.
متى يعود زوجها ويخلصها من هذا الحمل الثقيل! من نظرات الناس وتلميحات عطيات
بعقوق زوجها! متى صارت ضمة واحدة منه لها تساوي الكون بأكله؟

لطالما حازت الدنيا ولم تدري.. فلتذق المرار عقابا لاستنقاصها النعمة.

أن تملك شيء وتفقدته أصعب ألف مرة من أن تعيش حياتك لا تملك الشيء.. أتقارن عذاب
الأم الثكلى بأخرى عقيمة لم تذق حلاوة الإنجاب!

على الجانب الآخر كانت مئات الأفكار تتداخل في رأس أحمد، أفكار تحيي وتختفي دون أن
يدركها عقلها، كيف تولدت كل تلك الأفكار من هذا الموقف؟ كيف استعاد نصف شريط

حياته أمام عينيه وهو في طريقة إلى الخارج؟ هل حياته فارغة إلى تلك الدرجة؟! أو ربما هي كالكوب المملوء يُقلب رأسا على عقب فيفُرغ كل ما فيه دفعة واحدة!

كان يحدث نفسه متسائلا: إذا كانت تعلم أن أخيها قتل ولم يمت فبالتأكيد ستصل في وقت ما إلى معرفة أن لي صلة بهذا الأمر وإن كانت صلة بعيدة، خصوصا وأن مؤمن يهتم بالأمر، إنه رجل شرطة ومن المؤكد أن له معارف كثيرة هناك، سيكون التحقيق على أعلى مستوى ولا بد أن يقع ضحايا! حتما ستسقط رؤوس كبيرة.. ستقطع رؤوس الشياطين.

خرج من باب العمارة وهو يجري لا يدري إلى أين سيذهب، هل يهرب؟ هل يلجأ إلى الدكتور حاتم؟ لكن بأي وجه يقابله الآن؟!

قطع جبل أفكاره وجود سيارة شرطة تقف مباشرة أمام العمارة التي تسكن بها عطيات. نظر إليها متعجبا ومتسائلا في نفسه عن سبب وجودها في هذا المكان في هذا الوقت المبكر!

كأن القدر سمع تساؤلاته وقرر أن يُجيب...

رأى شرطيا يخرج من السيارة ويمشي مسرعا نحوه حتى صار على بعد أقل من مترا واحدا منه ثم سأله: أأنت أحمد الدمنهوري؟



"أظن أنك قد طمست هويتي

ومحوت تاريخي ومعتقداتي!

عبدًا تحاول لا فناء لثائر

أنا كالقيامة ذات يومآت"



لقد فقد صوابه. أجل، لا تفسير آخر لذلك.

يصيح عليه مؤمن ويوبخه بضع لحظات فيجمع حاجياته ويغادر! وإلى أين؟ إلى منزل والدته! يريد أن يفسد كل شيء، هذا الأحمق الأناني المغرور، لا يرى إلا نفسه ولا يشعر بمعاناة الغير. المضحك في هذا الأمر أنه -وفي عز ثورة جنانه- وقف على الباب يطلب منه أن يقرضه بعض المال حتى يستطيع أن يركب بها المواصلات!

على الرغم من أن مؤمن عرض عليه كثيرا أن يصحبه بسيارته إلى المنزل -حالما يأس من محاولة إعادته إلى رشده- لكنه رفض.

من يراه وهو في حالة تلك ربما يعتقد أن مؤمن حاول سرقة ماله أو قتله أو شيء من هذا القبيل بيد أن كل ما في الأمر أن مؤمن لم يتمالك أعصابه عندما أخبره علي بالشئ المهم الذي تذكره.

على الأرجح أنت أيضا تتذكره.

أخبره عن تلك الليلة في الحفلة قبل أربعة أيام من الحادثة عندما أخبر أحمد بكل شيء، عندما هيا له خياله الواهي أن أحمد هو الآخر في نفس التوقيت -وياللعجب- كان يشك في محسن وأنه يقوم بأعمال خفية غير شرعية. بالرغم من أن مؤمن حذره كثيرا من أن يفصح لأي مخلوق أيا كان عن المعلومات التي توصلها لها في تلك القضية.

أصبحت الأمور أوضح الآن..

كان علي مستهدفا ليلقى مصير محسن.. بطريقة أخرى ربما لكنه يظل المصير ذاته.. مصير من يُخطئ أو حتى يعرف بأمر ما يجري هناك..

لم يكن مؤمن غاضبا منه لأنه لم يتذكر هذا الأمر قبلا - فهذا كان من شأنه أن يضيق نطاق البحث ويوفر على مؤمن جهدا كبيرا - لأنه يعلم تماما أنه كان مصابا بمتلازمة اضطراب ما بعد الصدمة وأن نسيان تلك الأشياء هو أمر خارج عن إرادته، لكن الذي أغضبه حقا هو ما فعله في الحفلة، وهو الأمر الذي يجعله يعيد تفكيره في إشراكه في تلك القضية من الأساس. بالرغم من أنه هو أول من بدأ علمية البحث في هذا الموضوع إلا أنه لا يصلح لأن يكمل مشوار البحث.

إنه إنسان ساذج يعيش في "يوتوبيا" بعيدا عن الواقع وتغلب عليه العاطفة. وهو بخروجه من المنزل بهذه السرعة وتوجهه نحو منزل والدته محاولا إخبارها بكل شئ مخاطرا بحياتها وصحة قلبها الذي لن يتحمل الصدمة على الأرجح أكد فكرة مؤمن بشأنه، لكن هذا أيضا لم يكن ليعطيه أي حق أن ينفع عليه بتلك الطريقة.

حتى لو استطاعت عطيات تجاوز الصدمة فإنه بهذا الفعل الطائش الأهوج أفقدتهم مزيتهم وتقدمهم عن راضي وأحمد ومن معهم.

لم يكن هذا وقت تحديد من يمكنه أن يشارك في القضية أو لا، كان على مؤمن أن يتصرف سريعا ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك الكارثة التي هي على وشك الحدوث.

رفع سماعه الهاتف واتصل بمشيرة، أخبرها أن علي لم يعد يتحمل الابتعاد عنهما وهو الآن في طريقه إليهما، وطلب منها أن تهيا عطيات لتتحمل صدمة هذا الخبر. بالطبع انهالت عليه

بالإتهامات بالتقصير عن كيف يتركه وحده في تلك الحالة وبلا بلا بلا... أغلق الساعة وهي تتحدث، لم يكن لديه القدرة على تحمل المزيد من الصراخ والتوبيخ. ارتدى ملابسه وانطلق.

في المواصلات لم يكن الحال يختلف كثيرا، كان هناك الغضب والندم ومحاوله تبرير الأفعال وأخيرا الاعتراف بالخطأ.

قد أكون أخطأت لأنني اجتزت النهر بطولي وقدمي العاريتين.. كاد يغرقني.. ربما فعل! عندما هدأ قليلا وأعاد ترتيب الأمور في ذاكرته رأى أنه لم يكن هناك مبرر حقيقي لفعلته تلك، فحتى وإن أخطأ مؤمن فهذا ليس مبررا أن يفسد كل ما فعلاه الفترة الفائتة.

"تعود دائما أن تتعايش مع الحياة بمشكلاتها ومتطلباتها وإخفاقاتها وطموحك فيها.. تمتع بها على علتها واقبلها على عوجها - ما لم يكن للتقويم سبيل -. استمتع بالطريق كما تستمتع بلحظة الوصول. فالمتعة الحقيقية في الرحلة. ليست كل المشكلات قابلة للحل..."

كان هذا جزءا من مقالة كتبها فترة غياب مؤمن عنه.. كيف يمكن أن يكون كلامه بهذه الدقة وهذا الصواب!

دائما ما تعبر مقالاته عن حالته المستقبلية..

كأنها كان قلبه يشعر بما هو مقبل عليه..

أو ربما أصبحت حياته حلقة متشابهه ماضيها كمستقبلها!

لم يكن هناك سوى تفسير واحد فقط لشعوره بالاستياء من ردة فعل مؤمن وتصرفه الأهوج المتهور هذا. إنه يمر بالمرحلة الثالثة من متلازمة اضطراب ما بعد الصدمة "الإثارة والانفعال" لم تكن تلك أول مرة يرى فيها هذا التأثير فقد رأى مرضى كُثُر أصيبوا بتلك المتلازمة ومروا بتلك الظروف لكنه لأول مرة يوضع في نفس الموقف ويشعر بما كانوا يشعروا به.

أدرك لأول مرة أنه كان يكذب عندما كان يواسي هؤلاء المرضى ويخبرهم أنه يشعر بحالهم.. في الحقيقة هو لم يكن قريبا من هذا الشعور قط.. ما من شيء أسهل من الكلام. وسط كل تلك الأحداث كانت فكرة واحدة تنقر رأسه كما تنقر الدجاجة الأرض وهي: "لو قالت الأرصاد ان الطقس مشمس وقالت والدتك خذ معك مظلة.. خذها لأنك بالطبع ستحتاجها إن قالت أمك ذلك" لا ينفك يفكر في والدته، هي أول ما يسعى إليه المرء.. الأمان.

ربما تكون تلك هي أصدق مقولة سمعها في حياته، لطالما أخبرته والدته أنها لا تشعر بالارتياح لأحمد، بالرغم من عدم وجود أي دليل حينها على أنه قد يفعل شيئا كهذا، إنها تمتلك بصيرة خارقة.

بدأ يبكي، هكذا بدون أية مقدمات، سالت دموعه الحارة من مقلتيه دون حتى أن يدرك، لا يدري أيهم أشد ألما استيقاظه وحيدا في مقبرة مظلمة أم خيانة صديق العمر؟ لا يحتاج الأمر إلى التفكير مرتين بالطبع إنها الأخيرة.

كأنها الدنيا بنزين وجسده صنع من أعواد الثقاب! كيف يستقيم له سعادة فيها؟!

كان عزائه الوحيد حينها هو اقتراب لم الشمل مع والدته وأخته مرة أخرى..قريبا.

في الضلع الثالث من أضلاع الحكاية لم يكن الوضع يختلف كثيرا عن الضلعين الآخرين إذ لم تختلف ردة فعل عطيات عندها سماعها خبر أن ابنها حي عن ردة فعل مشيرة عندما علمت الأمر لأول مرة كثيرا.

كان اللوم كل اللوم يقع على عاتق مشيرة التي لم تمهد للموضوع بشكل جيد، فقد ذهبت إلى والدتها وألقت عليها الخبر كالصاعقة.

اتسعت عينا عطيات في ذهول وتقبض وجهها وسألتها عما إذا كانت تكذب عليها فأجابت مشيرة فرحة بالنفي، جاء رد والدتها سريعا جدا، سقطت مغشيا عليها، تماما كما عندما رأت مشيرة علي أول مرة بعد الحادثة إلا أنها كانت رأتها بعينها ولم تحتج أحدا أن يؤكد لها هذا الخبر كما فعلت هي مع والدتها.

أطلقت مشيرة صرخة عالية منادية على والدتها التي تهاوت على الأرض، أسرع إلىها وتحسست نبضها عند الشريان السباتي "common carotid artery" ثم تحسست نفسها كما علما أخوها أن تفعل في مثل تلك الظروف فوجدت كل شيء طبيعيا فحمدت الله لأنها تأكدت أنها كانت مجرد إغماء عادية من أثر الصدمة، عدلت مشيرة من وضعية والدتها وجعلتها مستلقية على الأرض تماما بدلا من جانبها كما كانت عندما سقطت، ثم أحضرت لها وسادة ووضعتها أسفل قدمها، وبدأت تهز رأسها حتى تجعلها متيقظة قدر الإمكان، كانت تطبق التعليمات التي علمها إياها مؤ من قبلًا بحذافيرها.

وبالفعل آتت الطريقة ثمارها، وبعد حوالي خمس وأربعين ثانية فتحت عطيات عينيها وبدأت تستعيد وعيها تدريجياً، سألتها مشيرة عدة مرات عما إذا كانت بخير، لكن عطيات لم تجب وإنما تركت الإجابة لكف يدها، تلك الإجابة لا يُعلى عليها، الإجابة الشافية الوافية. رفعت يدها اليسرى ببطء وصفعت بها مشيرة على خدها الأيمن وقالت بجهد شديد: كنت تعلمين طوال هذه المدة ولم تخبريني! يالك من ابنة عاقبة.

وضعت مشيرة يدها على خدها وابتسمت ثم قالت: ابنك هو الذي أمرني ألا أخبرك بشيء حتى لا يحدث كما حدث منذ قليل.

قالت عطيات بسرعة وهي تثب من مكانها كأن عقرباً لدغها: ابني، أين هو الآن؟ سأذهب إليه، أين هو؟ أين يسكن؟ هل هو بخير؟

ضحكت مشيرة هذه المرة وطمأنتها وأخبرتها أنه قادم في الطريق إلى البيت هو ومؤمن، أما عن باقي التفاصيل فالأفضل أن يخبرها هو بنفسه عنها.

أخيراً سيهدأ روعها وتسكن نفسها.. أخيراً ستعرف للحياة طعماً.. وهي التي كانت كل ليلة تتحسس وسادته وتضمها إليه في فرع.. علم الله ضعفها وعدم قدرتها على تحمل غيابه.. أراد الله أن يمتحن صبرها وإيمانها.. الآن وقت الثواب.. إنها النجدة الإلهية لأم ثكلى الله وحده يعلم كيف كانت تقضى لياليها. سقطت من عينيها دمعة واحدة كانت - لأول مرة في حياتها - دموع الفرح!

كان اللقاء مهيبا، تكون الكلمات مجحفة في إيفاء مواقف تلك حقها، يمكن للكلمات أن تصف أحداثا، أشكالا، أنواعا، أما المشاعر! إنها تُحس بالقلب.

مذ وضع علي قدمه على أول درجة من درجات العمارة حتى خفق قلب عطيات بشدة.. بلوعة شوق. فكما أن عين الأعمى تعرف طريقها جيدا.. قلب المحب يشعر.. يحس.. يبصر ما لا تراه العيون ويعلم ما لا تدركه العقول.

طلبت من مشيرة مرة أخرى أن تتفقد الشارع للمرة الخمسين، لكن هذه المرة رفضت مشيرة وطلبت منها أن تهدأ قليلا، فقد استطاعت أن تتحمل غيابه ما يقارب الأسبوع ألا تستطيع الانتظار بضع لحظات!

مسكينة مشيرة، تظن أن والدتها كانت تتحمل الألم! كانت تعض على شفتيها طوال اليوم حتى تكتم صرخاتها التي لو أطلقت لها العنان لدوى صداها أرجاء الكون، لم تكن تظنها بتلك السذاجة.. مسكينة حقا.

رن الجرس فانفجر قلبها بخفق بقوة مئة إعصار، كانت تشعر أن قلبها سينخلع من مكانه قبل أن ترى "علي" .. من شدة الانقباض أحست أنه سينقبض ولن يرتخي في إحدى المرات.. لو كان سيفعل فليفعلها بعد أن تراه..

نهضت من على الأريكة وهرولت إلى الباب تفتحه.

لقد كان هو، حقا كان هو. ضمته إليها وضمها إليه. كانت عينها تفيض بالدمع، هي لم تبك.. بل أمطرت. وضعت كفها الرقيقين على خده ووجهه تتحسس كل خلية منه تتأكد أنه كما هو، لا يهم ماذا حدث أو كيف حدث المهم أنه هنا.

راحت تقبل كل جزء منه، تتحسس رائحته، تشعر به.

أطالت النظر في عينيه دون أن تنطق، صحيح أن العيون نواطق.

انسته نظرتها وابتسامتها التي لاحت على شفيتها فأضافت إلى سمرتها جمالا من نوع خاص وكفها الرقيق على خديه كل الألم وكل المعاناة.. أنسته من يكون.

هي كالعودة للمنزل بعد يوم طويل.. كبراءة سجين ظن أنه سيُعدم.. كالارتواء بعد قحط.. كالخروج حيا من مقبرة.. وأكثر.

مسح دموعها وقبّل جبينها، فضحكت، رأى "علي" ضحكتها وكيف أنارت ألف مدينة مظلمة في عقله.. تلك المدن المحاطة بأسوار لا ترى نهايتها.. ولا يعلم لها بداية.

قص عليها كل ما حدث بأدق التفاصيل، طبعا لم ينطق الحقيقة كاملة كما فعل مع أخته، كان يحاول أن يكون دقيقا جدا في كلامه إذ لم يرد أن تختلف الرواية التي أخبرها لمشيرة عن تلك التي يرويها لوالدته، هو دائما يؤمن بالمقولة القائلة "إذا كنت كذوبا فكن ذكورا".

ليته كان يستطيع إخبارهما الحقيقة الكاملة عما حدث له، لكن هو حتى الآن لا يدري ماذا حدث؟ لا يدري أتحملان صدمة أن ما حدث كان محاولة قتل متعمدة؟!

كيف تتحملانها وكانت والدته تجلس على أريكتها تنظر إليه وهو يحكي لها ما حدث يداها ترتعشان من المفاجئة كانت أنفاسها سريعة، كان قلبها يخفق بقوة ربما لو كانت الضوضاء أقل قليلا لاستطاع سماع نبضاته حيث يجلس!

بينما علي منهمك في إخبار حكايته وصل مؤمن. لم يكن استقباله بذات الحفاوة التي قوبل بها علي فقد اكتفى علي وعطيات بالنظر إليه من حيث يجلسان في الصلاة، وحدها مشيرة هي التي انقضت عليه تستقبله وتطمئن عليه، وتطمئن نفسها في الوقت نفسه.

كان ينتظر تويخا قاسيا من عطيات لأنه أخفى الأمر عنها ومن علي لأنه صاح بوجهه ومن مشيرة لأنه أغلق الهاتف بينما هي تتحدث.

لا شيء من هذا كله حدث، كان الجميع صامتون، ينظرون برقة وهدوء، لم تكن تلك تعبيرات وجههم التي رآها عليهم آخر مرة، لم يكن هؤلاء هم نفس القوم منذ عدة ساعات.

لكنها لوعة الشوق ونار الفراق التي انطفئت.. ما دونها لا يستحق الغضب.

اتجه إلى الصلاة وسلم عليهم وجلس مجاورا العلي الذي افسح له مجالا ليجلس. كانت تلك أول مرة تبسم له عطيات منذ حوالي الأسبوع، كانت ابتسامة صغيرة فحسب.. ولا كلمة أخرى.

"الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الحسنة"

مر يومان منذ عودة علي، كان يتخفى فيهما ولا يريد أن يعلم أحد ما حدث، كان متيقنا أن اختفائه هذه الفترة هي الخطوة التي يستطيع أن يسبق بها "الجماعة".

كانت صدمة كبيرة له أن يعلم أن أحمد قد قبض عليه صبيحة اليوم الذي عاد فيه إلى المنزل، لا أحد يعلم السبب الحقيقي حول إلقاء القبض عليه حتى الآن.

بدأ علي يحدث نفسه: من المؤكد أن الدكتور حاتم عرف بما كان يفعله هو باقي "الجماعة". هذا أيضا يفسر سبب رغبة حاتم في لقاء راضي وهو مستاء.. لا بد أنه عرف كل شيء.

كان محسن هو رأس العقد انقطع فانفرطت حبات العقد بعده.

لا عجب أنهم -كما نعتقد- قاموا بشنقه..

أم أن أحمد كان ضمن العصابة لكنه اختلف معهم فتسببوا في إلقاء القبض عليه! أم أنها حدثان منفصلان وهذا كله مجرد صدفة!

كل شيء وارد الآن لا يمكن استبعاد أي احتمال. لكن حتى الآن -حسب المعلومات المتاحة- فإن احتمالية أن يكون الأمر مجرد صدفة هو أقل الاحتمالات توقعا.

ما زاد استغرابه أكثر هو ما قالته والدته ومشيرة عن أنه كان دائما معها وكان يبدو أنه أكثر الأشخاص تأثرا بما حدث، كان أول الحاضرين إلى الجنازة وآخر المنصرفين وأول الحاضرين كل يوم من أيام العزاء الثلاثة، حتى بعد ذلك لم يفارقهما لحظة.



للوهلة الأولى قد يجعل هذا الكفة تميل إلى أنه كان محقا فيما أخبر به علي يوم الحفلة، لكن من الجانب الآخر قد يكون هذا ضميره. ضميره الذي أرقه الليل بسبب مساعدته على قتل صديقه، قد يكون الإحساس بالذنب.. "قد".

لم يكن هناك سوى طريقة واحدة للتأكد من صحة أي من هذه التوقعات..



"إنّ النّثر ليس عميقاً فى النّفس الإنسانية إلى الحدّ الذى نتصوّره أحياناً..
إنّهُ فى تلك القشيرة الخارجيّة الصلبة، التى يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء،
فإذا أمِنوا انقشعت القشيرة"



انتفض أحمد وتراجع بضع خطوات للخلف بسرعة ثم هجم على علي يحضنه ويبكي.
أبعده علي عنه برفق ونظر إليه بتعجب غاضبا ثم جلس فجلس أحمد.

كانت ردة فعله غير متوقعة، أهكذا تكون ردة فعل شخص رأى رجلا عاد من الموت؟!
فسر له أحمد ردة فعله عندما أخبره أن مؤمن أتى إليه وأخبره بكل شئ اليوم الماضي، كان
يريد أن يعرف معلومات من أحمد لكنه رفض أن يُدلي بأي شئ، غير أنه كان متأكدا أن
مؤمن يخدعه ويخبره أن صديقه حي وأنها إحدى الخدع التي يستخدمها المحققون.
أحتى في هذا سبقه مؤمن؟! يبدو أنه سيظل دائما متفوقا عليه بخطوة.

لم يكن علي يعرف بالتحديد شعوره؛ لأنه لم يكن يعلم موقفه من أحمد حينها.
كانت يدها مكبلتين بالأصفاد، رأسه منكس، ملامحه منكسرة، وجهه شاحب.

كان يقوده شرطي غليظ الملامح قوي البنية. يقاد كما الأسير.. أسير مكبل هش. أهو
بسبب ذل السجن، أم إنه الذنب القديم مازال يطارده، خصوصا وهو يرى ضحية أفعاله
أمامه. أم الاثنين معا!

كل تلك كانت أسئلة تدور في رأس علي، أسئلة ضمن مئات وآلاف الأسئلة التي تحتاج إلى
أجوبة.

قال أحمد بصوت خفيض ذليل والدموع تتلألأ في عينيه: أرجوك لا تسء فهم ما حدث، لا
تستمع إلى ما أخبرك به مؤمن، أنا سأخبرك بكل شئ.. سأخبرك بكل شئ.

هل يعتقد أنه بهذا الغباء لينتظر مؤمن أن يخبره أن صديق عمره خدعة؟ لأنه خدعه بكل سهولة قبلًا يخيل إليه أنه لن يكتشف أنه خُدع؟! بعد التفكير في الأمر بهذه الطريقة بدا أن معه حق أن يعتقد أنه لن يفهم انه تم خداعه.. من يُخدع بتلك الطريقة لابد أنه أكثر حقا من أن يمتلك عقلا حتى.

كفاه جلدا لذاته وليركز على المهم.

قال بثقة واستعلاء: أولاً أخبرني سبب القبض عليك.

وضع كوعيه على المنضدة الحديدية ثم وضع رأسه بينهما ووضع كفيه على رأسه وبدأ يقبض بهما على شعره ثم رفع رأسه وقال في صوت كالفحيح: لأنني كنت أدافع عنك، أجل، كنت أدافع عنك فاتهموني بسرقة الأموال من المستشفى ظلما وأعدوا كل الأدلة ضدي وها أنا ذا هنا الآن.

اتهموه بالسرقة ظلما؟! ياللسخافة.. لو أن علي يلومهم على شيء واحد فهو أنهم لم يكتشفوا ألاعيبه تلك قبلًا..

نظر إليه وابتسم من سذاجة قوله هذا فعقب أحمد: ليس لدي سبب لأكذب عليك. لقد فقدت كل شيء في سبيل الدفاع عنك.. كل شيء!

رق قلب علي عندما أخبره أنه كان يدافع عنه.. لكنه لن يُخدع مجددا.. كل الأيدي مصوبة نحوه.. هو مذنب بلا استثناء.

سأله باستنكار: إذا كنت لم تسرق هذا المال فلماذا لا تعين محاميا للدفاع عنك وإخراجك من السجن؟

ابتسم أحمد ابتسامة سخرية صغيرة وقال: هه، لقد تواصلت حتى الآن مع مايزيد عن سبعة محامين جميعهم عندما علموا أن المحامي المسئول عن القضية المرفوعة ضدي هو "راضي منصور" رفضوا.. رفضوا وأخبروني أنه لا أمل لي، هذا الرجل يتلاعب بالقانون كما يتلاعب المهرج بالكرات. لا مفر لي من هنا لا مفر.

بدأ بعدها يبكي بحرقة وتحول وجهه لون الدم، الأيدي أصبحت تهتز والعيون احمرارها أشد من الدم.. والدموع أشد من الأمطار.

راضي منصور هو من يقف ضده الآن! لا يسع المظلوم أن يكون أكثر سعادة من أن يرى ظالميه يتشاجرون.. ما من ظالم إلا سيبل بمثله..

على الرغم من ذلك لأن له قليلا. لكن سرعان ما تذكر نفسه وهو في القبر

وحيدا في الظلام لا يقدر على التنفس فعاد مرة أخرى إلى وجهه المتخشب المتبلد المشاعر وأخذ نفسا عميقا إثر تذكره الحالة التي كان فيها في القبر،

قال بصوت خال من أية تعبيرات متجاهلا بكاء الشخص الجالس أمامه:

-وما هي الحقيقة الكاملة التي كنت ستخبرني بها؟

مسح دموعه وجفف أنفه ثم أجاب محاولا إخفاء أثر البكاء من صوته:

-كل شيء تريد معرفته سأخبرك به. لم أنم ليلية واحدة منذ الذي حل بك، لم يغمض لي جفن. لأنني عندما أنام أحلم.. أحلم بك.. أحلم ذات الحلم كل مرة.. أحلم أنني جلد أمسك بيدي حبل، هذا الحبل متصل بشيفرة مقصلة حديدية تلمع وعلى الأرض أسفل

منها تكون أنت هناك، لكنك لا تنظر إلى الأرض بل تنظر إلى مباشرة، عينك شديداً
السواد تحدفان بي بشدة،

تبعثان في جسدي قشعريرة غريبة، ثم يفلت الحبل من يدي فتهوي على رأسك الشفرة
الحديدية، فيتطاير الدم فتدخل بضع قطرات منه في فمي، تندرج رأسك حتى تستقر أمام
قدمي وعيناك تحدفان بي بشراهة. ولا أستيقظ إلا وقد أحسست بطعم الدم في فمي.
سأحكي لك كل شيء، أقايض عمري كله مقابل ليلة واحدة أنام فيها هادئ البال، سأفعل
كل شيء كي يزول هذا الألم.. كي أريح ضميري.

ثلاث مئة وخمس وستون يوماً في العام مجدداً! لن أتحمّل هذا.

كان كلامه مؤثراً جداً، لقد اخترقت كلامته جسد علي حتى النخاع.

كانت برودة غريبة تسري في أوصاله، كان مرتبكاً جداً، لكن كانت عزمته أكبر، أخفى
مشاعره وقال بحزم وفطنة: صديق الأمس عدو اليوم ها! الجماعة غدرت بك. هذا الكلام
لن يؤثر في، لا تلعب على الوتر الحساس، ولّى هذا الزمن.. والفضل يعود لك.

أرجع رأسه للوراء قليلاً وبدأ عليه الدهشة ثم قال متعجباً بطريقة مبالغ فيها:

-صديق؟ لا أعلم ماذا أخبرك مؤمن بهذا الشأن لكنه إما كان مخطئاً أو كان يكذب عليك.
أنظن أنني أخلق هذا؟! أحقا تعتقد أنني أستغل مشاعرك كي تساعني؟!

مرة أخرى مؤمن! بدأ الضيق يتغلغل قلبه. كفى إهانة لذكائه.

قاطع به بضيق: لقد فعلتها مرة لن يصعب عليك تكرارها.

تأوه أحمد ثم قال متنهدا وهو يمسخ دموع افلتت من مقلتيه: لقد تغيرات كثيرا حقا يا علي، أنا لا ألوامك. لكن أأظن أني أأنظر أن آسأأأني؟ أنا لست بهذه السأأأة، أنا لا أأأب المسأأأل. سأأأأل آوآأأك لآ وإأأأك سأأأأل أنفعأأأك وغبأك، عأأأ آأأل صوآ ضمآرآ هأأ.

آأرك آأأأ أن اللوم والعأأ سآكون مفآأأ لأأأ، هو أأأأ لآس آألك أأأأة، لن آعطآه ما آرآء..

نظر إلى الأصفاء آآ آآ آءه ثم عأآ نأظر إلىه مآأأأ وسأل آآوسل: هل ما أأأه لآ لآلة أأأة كان أأأأآ؟ هل كان آآ آآ آأأ آأأآ؟ آآ آآ!

-آأأآ ألف مرة لو أنه كان كذلآ.. لكن للأسف لا.

آنهأ عآآ آنهآة آآظ عأأة ورفع بصره نحو السقف وزفر بآل ما أوتآ من قوة. اسأأنف أأأ موضأأ:

-لا، لا، أرجوك أعآآ أآأل. لآأ طلب مآآ الأآآور أأآ أن أسألك عآ المألومأ آآآ آعرفأأ، هو الأآ طلب مآآ أن أأوم آألك أأأة. لكن أقسم لك أنه وعأآ أن هأأ لن آمسك بسوء، كل ما كان آرآه هو أأأأ عآ سرآة أعمأله. أو عآ الأقل هأأ ما أأأرآآ به آآنأأ. لو كنت أعلم أنه آأأعآآ لآ أأأأأ عآ فعل ما طلبه مآآ، بل عآ العكس كنت لأأأرك بآل آآ. صدآآآ.

د.أأآم؟ أعمأ سرآة؟!

هي خدعة لا محالة.. فليذهب عذاب ضميره إلى الجحيم.. سيفعل أي شيء كي يخرج من هذا السجن.. أو على الأقل يظهر بثوب المظلوم..

حيلة قديمة فعلها المجرمون على مر التاريخ، يرتدون قناع البراءة والوداعة، لكن أحمد كان مبتكرا في هذا.. أراد أن يظهر بريئا ويحمل علي معروف أنه ما فعل هذا إلا ليدافع عنه. بل حتى يتهم ضحية سرقة د. حاتم! يبدو أن -في نظره- الكل مذنبون خلاه. لم يكن يعتقد أن الحوار سيكون بهذه السخافة ويكون الكذب بهذا الفجر.

لكن هذا الكلام لم يؤثر في "علي" على الإطلاق، بل لم يحرك شعرة واحدة فيه حتى. إن جلسة التوبيخ التي أعطاها إياه مؤمن وقت أخبره بما فعله في الحفلة جعلته يدرك حقيقة مع من يتعامل، جعلته يتخطى سداخته ويُنحي عواطفه جانبا. بعد كل شيء يبدو أن مؤمن كان محقا.. في كل شيء.

نظر إليه في استخفاف وسأل بطريقة بوليسية: ها يا شهرزاد ماذا أيضا؟ الدكتور حاتم كان يساعدكم لتسرقوا أمواله وطلب منك مراقبتي وماذا بعد؟

انتفض أحمد غضبا هذه المرة وقال بلهجة تفيض غيظا: افق يا أخي افق. ليس هناك سرقة ولا شيء، إنها أعمال غير شرعية يديرها حاتم ويشرف عليها بنفسه. أنت بعيد تماما عن الحقيقة.

مرت ثوان لا يعرف ما حدث فيها.. فقد الإحساس بالزمن وبكل شيء.. برودة شديدة تجتاح صدره.. قلبه يرتجف كأن أحدهم يقبض عليه بقوة عارمة.. تتقلص أمعاؤه.. هبوط شديد في دورته الدموية.. دوار وألم حاد في رأسه.

عندما ظن أنه وصل إلى الحضيض.. اكتشف ما هو أسوء.. ما كان يعتقد أنه قاع وجد أنه سقف قاعه الجديد.. سيسقط مجددا ولن تمسكه يد غير الأرض.. ستحطمه أكثر مما هو محطم..

لطالما زرع الحزن والفرح كل موسم.. لكن سماءه لم تسق سوى خيائه!

صددمات متتالية.. أصغر ما فيها كان أكبر كوابيسه.

لكن لا يجب أن يتعجل الحكم على الأمور، ربما هي خدعة يمارسها عليه أحمد.. ربما.

بشفاه مرتجفة وقلب واهن سأل: وما هي تلك الأعمال؟ قلت إنك ستخبرني كل شيء.

علت شفتي أحمد ابتسامة صغيرة جدا استطاع علي ملاحظتها، كأنه كان واثقا من أن خطابه الذي سيلقيه عليه الآن سيدل مرارة آلامه والغصة التي في نفسه تجاهه. اقترب منه وقال بصوت منخفض: سأجيبك عن كل ماتريد معرفته، لكن بشرط، لا، بل هما اثنان.

رفع حاجبيه متعجبا من غرابة هذا الوضع إذ يبدو أنه ليس بموقف يسمح له بوضع الشروط، لكنه رفع يديه وهزها مشيرا إليه أن يتابع. لن يكون أسوء ما سمعه هذا اليوم.

-أولا أريدك ألا تخبر أحدا بالمعلومات التي أخبرك بها، أو على الأقل لا تخبره مصدرك. ثانيا وهذا طلب شخصي، أرجو منك أن تستمع إلى كلامي حتى النهاية وتأخذه بصدر رحب.

أوما علي مواقف علي تلك الشروط رغم ما كان يحز في نفسه من عدم تقبل للشرط الأول.

باعد بين يديه موضحاً أنه سيبدأ بقص ما لديه كما يجب أن يفعل دائماً إلا أن الأصفاد حالت بينه وبين رغبته.. نظر إليها نظرة خاطفة حزينة ثم أشاح بوجهه عنها وقال بجمود مصطنع: سأحكي لك من البداية.

قبل أن أعمل في المستشفى مع الدكتور حاتم -أي قبل ثلاث سنوات تقريبا- كنت ما أزال شاباً حديث التخرج، مثلك، تخرجت من الكلية بعد سبع

سنوات دراسة وتدريب في المستشفيات، لم أكن حققت خلالها أي إنجاز يُذكر، بل على العكس كنت أعيش عبثاً على والدتي التي لم يكن لها وظيفة وإنما كانت تنفق من المال الذي تحصل عليه من معاش والدي المتوفي وعندما زادت نفقات الكلية باعت كل الذهب الذي كانت تملكه، لكنه لم يكن

كافياً أيضاً فماذا تفعل بضع جرّامات من الذهب أمام بحر مصاريف الجامعة؟! لذا بدأت بالحياكة والبيع حتى خوّرت نظرها. تخرجت وأنا لا أملك أي شيء، لا مال، ولا درجات عالية كفاية كي تضمن لي مركزاً في تعيينات الجامعة أضمن به وظيفة ذات دخل كبير. كانت تلزمني نفقات للتخصّير لدراسة الماجستير تمهيداً لأفتح عيادتي الخاصة،

ونفقات كي أكمل نصف ديني وأتزوج، وما أدراك ما معنى مصاريف الزواج. فوق كل هذا أتت أقوى الصدمات عندما توفيت والدتي بعد تخرجي بشهور قليلة، تاركة لي كم من الديون الله وحده يعلم كيف كانت والدتي تستطيع تحمل كل تلك الديون، وهي تعلم أنها لن تقدر على السداد، وأنها بذلك تخاطر أن تقضي بقية حياتها في السجن. تخيل امرأة عجوز مثلها تخاطر أن تقضي ما بقي من حياتها في السجن كي تنفق على ولدها الذي جاوز الخامسة والعشرين من عمره وما زال يمد يده كي يأخذ مصروفه منها!

زفر علي بقوة وقال بسرعة وغضب: لا، لن أتحيل. تضيع كل وقتي هذا من أجل أن تمهد إلى أسباب مشاركتك في تلك الجريمة؟! كم جلست تحضر

تلك الخطبة محاولا استجداء قلبي كي يرق لحالك؟ يبدو أنك جلست طوال الفترة الماضية تتابع مسلسلات عربية قديمة كي تخرج على بهذا العذر.

كفاك هذا الهراء. أخبر شخصا آخر - لا يعرفك - بهذا الأمر، أما أنا، لقد كنت حاضرا كل تلك المدة معك، لم تكن ظروفك بأحسن من تلك التي لديك، لكن لا تراني أعمل في أشياء غير شرعية أو أشارك في جريمة قتل!.. كانت لديك ألف فرصة لتسافر وتعمل بالخارج وتسدد ديونك

وتتزوج بسرعة، لكنك في كل مرة كنت ترفض عروض السفر وتخبرني أنك مرتاح في العمل في المستشفى مع الدكتور حاتم؛ لذا لا تلعب دور الضحية الآن. طرق أحمد بقبضة يده على الطاولة الخشبية الموضوعة أمامها وقال:

إذا كنت تريد التحدث اخفض صوتك. أنا لم أكن أخبرك بذلك لأستعطفك، إنما هي الحقيقة. لا أنكر أنني أحببت العمل مع الدكتور حاتم قليلا، لكن لم يكن هذا كل ما في الأمر.

- بالطبع ولما لا تحبه وكنت تحصل على معاملة خاصة! أنت والعمال في قسم الجراحة تكادون تقدسون الدكتور حاتم. لطالما كنتم تذكرونني بالشاعر بن هاني الاندلسي عندما مدح الخليفة الفاطمي المعز قائلا:

ماشئت لا ما نشأت اللقدار.... فاحكم أنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبي محمد.... وكأنما أنصارك الأنصار.

طالما تعجبت من السبب لكن يبدو أنني بدأت أفهم كل شيء الآن.

انقلبت الطاولة.. وابتسم أحمد ابتسامة سخرية تماما كل التي أظهرها علي منذ قليل ثم قال:

وكنت تقول أنني من سهر الليالي أعد خطبتي؟! لقد أدركت الآن. أنت لم تأتي إلى هنا كي

تعرف معلومات، لقد أتيت كي تسخر مني.

تريد أن تراني مكسورا. ليتك أخبرتني بهذا بداية ووفرت علي عناء الحديث. في النهاية

يبدو أنك حققت مرادك.

اختفت الابتسامة من وجه علي ودمدم بين شهقتين: أرجوك أجب عن أسئلتني. فأنا حتى

وإن تيقنت أنك من وضع لي السم بيدك لن أقدم على أن آتي إلى هنا وأرى الذل في

عينيك. هذا ليس أنا.

-لقد تغيرت كثيرا، لم أعد أعرفك.

-ولا أنا كذلك.

اعتدل أحمد في جلسته وبسرعة شديدة حتى تشوهت بعض الكلمات قال:

على كل لم أكن أصلا أنوي أن أكمل في هذا الأمر، كانت مجرد مسألة وقت قبل أن أستقيل

من المستشفى وأفتح عيادتي الخاصة. لكن هذا لا يهم الآن. لقد قارب وقت الزيارة على

الانتهاء لذا سأجيب عن أسئلتك سريعا.

تريد أن تعرف ما هي طبيعة ما يحدث، حسنا سأخبرك.

إنها تجارة أعضاء.. أجل كما سمعت، الدكتور حاتم يتاجر بالأعضاء. ألم أقل لك أنك بعيد كل البعد عن الحقيقة.

تجارة أعضاء؟! هل هذا أمر حقيقي حتى؟!

لطالما كان علي من المناهضين لفكرة أن تجارة الأعضاء تتم بشكل كبير في مصر كما تروج الصحافة، فليس هناك سوى عدد محدود جدا من مراكز زراعة الأعضاء وهي تابعة للحكومة، كما أن عدد الأطباء القادرين على أداء عمليات من هذا النوع ليسوا بالعدد الكبير، بالإضافة إلى الإجراءات الصارمة المتبعة في تلك العمليات فهناك شروط كثيرة يجب أن تتوافر في المتبرع - في تلك الحالة يكون "المسروق أعضاؤه" - والمتلقي ويجب أن تتم في وقت محدد وتخزن في ظروف مناسبة.

كل تلك الأمور تجعل تجارة الأعضاء -خصوصا في مصر- من الأمور المستبعدة، وكل تلك القصص التي تروى عن تجار أعضاء هي مجرد حكايات رعب لتخويف الأطفال من السير وحيدين ليلا.

لكن حكايات الرعب ليست بأفضل من حياته في شيء.. هاهو قد عاش كل شيء يمكن أن يخطر لمؤلف رواية رعب على بال.. ومالم يخطر حتى!

هذا الألم الذي يربض بين ضلوعه ما هو إلا خنجر شق به من كان يدافع عنه قلبه.

تلك الصدمة لن يتجاوز صداها في نفسه ما حيي.. بعض الأشياء لا فائدة من محاولة تجاوزها.. فقط كونها لم تقتلك يعد إنجازا.

قاطع أحمد صدمته تلك مكملا حديثه:

- ليس الأمر كما يظن الناس. نحن لا نخطف الناس ولا نسرق من الأحياء أعضائهم أبداً كما تروج الصحافة والإعلام لهذا الأمر بقصص سخيفة من نوع أن امرأة ذهبت لتجري عملية الزائدة وبعد عدة أيام من انتهاء العملية شعرت بألم في جنبها الأيسر وعندما أجرت التحاليل وجدت أن الأطباء معدومي الضمير قليلو الرحمة سرقوا منها عدة البروستاتا الخاصة بها.

هذا كلام لا يقبله عقل. لا، على الإطلاق لا يصدق أي عاقل هذا. الموضوع باختصار أن هناك شراكة بين المستشفى وبين مراكز أخرى أوروبية، تقوم تلك المراكز بإرسال كشف بالحالات التي لديها التي تحتاج إلى عمليات نقل أعضاء وتعرض تحاليلهم لنا، مهمتنا هي مقارنة تلك التحاليل بالمرضى

الذين لقوا حتفهم وإذا وجدنا التحاليل متقاربة بحيث يصلح نقل الأعضاء نقوم باستخراج العضو المنشود ونغلق الجرح مرة أخرى -كي لا يحس أي من أقاربه بالضيق لشويه جثة قريبه- ونقوم بحفظ تلك الأعضاء في شروط خاصة جداً ومعايير دقيقة، نكون قبلها قد أخبرنا المستشفى الذي بها المستقبل ليقوموا بالتجهيزات، عند هذا الحد تنتهي مهمتنا أما طريقة النقل إلى أوروبا فهي على الأرجح عن طريق طائرات خاصة مجهزة بأحدث الأجهزة لأن هذه الأشياء كما تعلم لا يجب أن تظل محفوظة مدة طويلة. هذا أيضاً يفسر كل شيء..

أخطاء في الحسابات لتغطي تكلفة عمليات استخراج الأعضاء التي -بالطبع- لا تسجل في كشف الحسابات، شراكة مع مستشفيات أوروبية لتصدير "قطع غيار بشر"! هذا هو الأمر.. الأمر الذي عجز عن إدراكه بعقله رغم كل الدلائل والمؤشرات..

وسط كل هذا الذهول والأجواء محتدمة في عقل علي يلملم المعلومات المتناثرة هنا وهناك أكمل أحمد الذي كان يريد أن يقول كل شيء قبل انتهاء ميعاد الزيارة:

-نحن لم نؤذ أحدا، ولا مرة واحدة تعدينا على حقوق شخص حي أو أي شيء من هذا القليل. الموضوع كان سهلا وبسيطا للغاية. ما تفعل لو علمت أن القلب الذي تأخذه من رجل متوفى قد ينقذ حياة شخص آخر، هذا الشخص قد يخترع علاج للسرطان أو يكتشف أشياء أخرى تفيد البشرية. من وجهة كنت -ومازلت- أرى أنها صفقة رابحة لجميع الأطراف.

ضحك علي بشكل هستيري بصوت عال ثم وضع يده على فمه محاولا الحد من صوت ضحكاته وقال بلهجة ساخرة: ها... وماذا بعد؟ يخترع علاج للسرطان ويحرر القدس ويقود أرسنال للفوز بدوري الأبطال! أما أنتم.. أنتم مجرد ملائكة تبعث الحياة والأمل للمرضى. يال رقة قلوبكم.

كان ينظر إليه باشمئزاز وهو ينصت إلى كلامه،

كان أحمد ما يزال يحاول تبرير فعلته بعد كل هذا! كان علي يحدث نفسه ويقول: إن ما يقوله أحمد كلام لا يدخل العقل إطلاقا، لكنني أعذره ليس لأنه يشارك في تلك الجريمة بل لأنه يقوم بتبريرها.

دائما ما يميل الإنسان إلى تبرير أفعاله حتى لو استخدم في سبيل ذلك حججا واهية وأساليب رخيصة، كل هذا من أجل إرضاء السيد، أجل هذا السيد المغرور الذي يجلد ولا يبالي.. لا يهمه إلا رأيه ومن يخالف كلامه لا عقاب له عنده سوى الجلد.. سوى العذاب

الأبدى.. يجلد بسيطا من ألم وحسرة هي أصعب على المرء من أن يُكوى جسده بالنار. آه
كم أحسد هؤلاء من لا يملكون ضميرا.

أدرك علي ضيق الوقت وأنه لا يملك حتى رفاهية التألم فأكمل بفضاظة: لماذا مستشفيات
أوروبية؟! لماذا لا تتم هنا؟

- ليس هذا النوع من العمليات مشهورا هنا، والأماكن ليست مجهزة وعدد الأطباء
القادرون على فعلها قليل جدا. بالإضافة إلى أن الدفع يكون باليورو وما أدراك ما اليورو.
ربما قد تسأل أيضا ما سبب كل هذا الموضوع ولماذا لا يأخذ الأوروبيون الأعضاء من
موتاهم، وبكل بساطة الإجابة هي "القانون" يصعب جدا خرق القانون هناك وانتزاع
أعضاء من شخص غير متبرع.. هنا الأمر أسهل.. يعرفون هذا ويستغلونه أفضل
استغلال.

كانت كل الأجوبة تبدو منطقية، لا يشعر علي أن أحمد يحاول خداعه بالإجابة عن أسئلته،
بالرغم من علمه ما حدث مع محسن الصباغ حينما حاول -فقط حاول- أن يخبر مؤمن بما
يعرف، يبدو أنه محق في تأثيره هذا، يمكن للمرء أن يكذب بخصوص كل شيء إلا
العواطف، دائما تفضحه رعشة يده أو نبرة صوته، وإذا كان متمكنا من الكذب والإخفاء
فإن العين تتولي أمر فضحه.

كاد علي ان يسأل مجددا إلا أن أحمد قاطعه قائلا: أيضا تريد أن تعرف من يشارك في هذا
الأمر أليس كذلك؟

أوماً علي بالإيجاب، كان هذا بالتحديد هو السؤال الذي يود طرحه.

أجاب أحمد بانكسار: بالطبع أنا، أما الآخرون فهم - كما تعلم - بعض الأطباء - الذين أرفض ذكر اسمائهم - من قسم الجراحة معظمهم أجانب أنت تعرفهم لست بحاجة لذكر أسمائهم.. لكن دولهم تحميهم.

لا أستطيع أن أخبرك أكثر عن الآخرين لكن أستطيع أن أخبرك عني.

لقد عملت معهم مايقارب الستين ونصف السنة. أعلم أنك لا تريد أن تسمع قصتي لكنني سأرويها لك على كل حال، ليس لأنني أنتظر منك عطفًا أو شفقة ولا أنني أنتظر إقناعك بموقفني، كل ما في الأمر أنني تعبت من الحديث إلى نفسي، تعبت من الانهالك في التفكير كل ليلة في هذا الأمر حتى يغلبني النعاس. أحتاج أحدا أقص عليه قصتي.. حتى لو كان.. ضحية أفعالي! أجل سأحكي لك قصتي شئت أم أبيت، لن أجيبك عن أي سؤال قبل ان تسمعها مني.

في البداية أريد أن أطرح عليك سؤالاً، ألم تفكر للحظة كيف تم قبولنا للعمل في تلك المستشفى؟ بالرغم من أن هناك مئات الأطباء من هم أعلى منا في الدرجات العلمية والخبرات العملية قد تقدموا ولم يتم قبولهم؟! أتعتقد أن هذا كله حدث صدفة؟ هز هذا السؤال كيانه علي، وبدأ على وجهة الاستغراب والتعجب.

بالطبع لقد فكر في هذا الأمر مرات عديدة، كان يرى نفسه دائماً محظوظاً للحصول على وظيفة في مثل هذا المكان، لكن عطيات دائماً ما كانت تجربره أنه تم قبوله لأنه شاب متميز إنه يمتلك مهارة فطرية.

لم يكن يصدق هذا الكلام كثيرا في البداية، فلم يكن أمهر أقرانه في أداء وظيفته ولا كان أكثرهم خبرة، لكن مع الوقت وبعدما تدرب على يد خبراء حقيقيون صقلوا مهاراته ونموها له بات يعتقد حقا أنه ربما يكون مميزا، فما وصل إليه لم يصل إليه أحد من أقرانه. لكن ها هو الآن أحمد يطرح عليه ذات السؤال الذي ظل يسأله لنفسه كثيرا.

لم ينتظره أحمد حتى يجب فلم يكن هذا غرض السؤال وتابع يقول:

إذا، اسمع كلامي حتى النهاية. أخبرتك قبلا أن والدتي كانت مريضة ثم توفيت بعد تخرجي بشهور قليلة، أخبرني أنك تعرف كل هذا أليس كذلك؟ إذا هل تعرف ما كان مرضها؟ ولماذا لم يتم علاجها؟

تعجب علي من هذا السؤال أكثر من سابقه. ضغط على عينيه بيديه كي يستجمع قواة العقلية ويستطيع تذكر الإجابة على هذا السؤال الذي فاجئه.

فتح عينيه ونظر إلى أحمد نظرة تحدى بعدما ظن أنه أدرك الغرض وراء السؤال وقال بثقة: أجل أعلم. لقد كانت تعاني فشل كلوي حاد، كانت تحتاج إلى عملية زراعة كلي، لكنها لم تجد متطوعين لذا فارقت الحياة -رحمها الله-. أنا أرى ما تحاول فعله هنا أنت تحاول تبرير....

قاطع أحمد كلامه متظاهرا أنه لم يسمع الجزء الأخير وقال وقد امتلأت عيناه بالدموع مجددا: أخبرتك أنك لا تعلم شيئا.

في الواقع نصف كلامك صحيح فقد كانت تحتاج إلى عملية زراعة كلي مستعجلة، لكننا بالفعل وجدنا متبرعا. أو بالمعنى الأدق وجدنا رجل ميتا تتناسب تحاليله وتحاليل والدتي.

الفضل في هذا -بعد الله- يعود للدكتور حاتم. فقد كنت قد يأست من البحث في المستشفيات عن متبرع أو أي أحد يمكنه القيام بالعملية لكن دون جدوى، حتى وجدت ضالتي في الدكتور حاتم

والذي أخبرني أنه سيفعل ما بوسعه لمساعدة والدتي خاصة عندما علم انني طبيب جراح مثله. شدد على سرية هذا الأمر وأنه لا يجب أن يعلم أحد ما يحدث، وافقت بكل سرور فقد كانت هذه هي القشة التي أتعلق بها لنجاتها.

تم الاعتناء بوالدتي في المستشفى على أكمل وجه. لكن لم يكن بأيدينا سوى انتظار الفرج. وبالفعل بعدة عدة أيام عثرنا على ضالتنا في شخص متوفي

تتوافق تحاليله وتحاليل والدتي وأخبرونا أن العملية ستتم في أسرع وقت. لا

تدري كم السعادة التي اعتلت وجه والدتي حينها، لم أرها بتلك السعادة قط .

رغم الألم كانت تضحك وتبسم وتقبلني على جيني كما لم تفعل مذ كنت طفلا، ليتك رأيت نظرتها لي وهي....

توقف عن الحديث وأجهش بالبكاء، كانت الدموع تنهمر من عينيه كأنها شلالات نياجرا، بكى كما لم يرى علي أحدا يبكي من قبل. كان يبكي ويئن كالأطفال.

أما علي فقد تحجرت دموعه في مآقيها، لا يقدر على البكاء رغم شدة التأثير ربما قد استنفز مخزوه من البكاء الفترة الماضية أو ربما من التعجب، فلم يعد يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول، أصبحت الدهشة أقرب أصدقائه، دائما ما ترسم على وجهه.

مسح أحمد دموعه ولملم شتات نفسه وأكمل: كانت سعيدة، أجل كانت سعيدة لأنها أخيرا لأول مرة رأت ثمرة تربيتها المضيئة، ابنها الوحيد الذي كان الفشل عنوان حياته قبلا، الآن هو مفتاح النجاة لها، هو الذي أعطاها أكبر أمل في الحياة. آخر كلمة قالتها لي... آخر كلمة كانت "لو مت الآن سأكون سعيدة، لأنني الآن رأيت ثمرة مجهودي أنا الآن مطمئنة عليك".

أشاح بوجهه بعيدا عن علي وتوقف عن الكلام قليلا ثم أدرك ان وقت الزيارة قارب على الانتهاء فعاد إلى الحديث بسرعة قائلا: فشلت العملية. طبعاً أنت تعلم الباقي. ما لم أكن أحسب حسابه نهائيا وقتها هو أن لكل شيء ثمن. لم تكن تلك العملية خدمة تطوعية من الدكتور حاتم.

فبعد الوفاة بعدة أيام طالبني برد المال الخاص بتكاليف العملية. كنت بالفعل قد وقعت إيصال أمانة بمبلغ كبير جدا قبل العملية وقبل كل شيء، أخبرني حينها الدكتور حاتم انه لن يستخدمه إلا إذا وجدنا متبرعا وتمت العملية.

كانت هذه خدمة كبيرة منه فلم يطالبني بسداد قيمة جلوس والدتي في المستشفى وعميات غسيل الكلي التي قاموا بها من أجلها عندما كانت هناك وطالبني فقط بسداد ثمن تكاليف العملية إذا وجدنا متبرعا. وللأمانة حينها وقعت على الإيصال لم أكن أعتقد أننا سنجد متبرعا مناسباً أو قل إنني حينها ألجأت عقلي عن التفكير في كيفية سداد هذا المال.

المهم في الأمر أنني أخبرته أنني لا أملك ما لا يكفي لسداد هذا الدين وتوالت الأحداث حتى عرض علي في النهاية أن أعمل عنده والباقي انت تعرفه.

شعر علي حينها شعورا جديدا كل الجدة، لم يشعر به قبل، كان مزيجا من الحزن على والدة أحمد والغضب علي الدكتور حاتم والرثاء لحالة صديقه الذي في النهاية يبدو أنه مُسير في هذا الأمر.

بالطبع كان يمكن أن يفضح هذه الشبكة ويسرب معلومات عنها لكن لا استبعد أنهم هددوه شخصيا وهددوا كل من يعرف. الجُبْنُ هو المسيطر في تلك المواقف.. ليس جُبْنا حقا إنها غريزة البقاء. تذكر أنه قرأ سمع ذات مرة أحدا يتفلسف ويقول: لو أن شخصا حُكم عليه بالإعدام وخير بين تنفيذ الحكم أو أن يجلس مكبلا على حجر لا يتعدى موضع قدم في مكان ناء مظلم حار لا يسمع فيه صوتا في ظلمات أبدية وعزلة خالدة يظل فيها واقفا.. لأثر الخيار الأخير.

أجل سيفعل.. المهم ألا يموت الآن.

يبدو أيضا أنه لم يلتحق بهذا العمل بمحض إرادته كما قال سابقا وأنه لا يجد في هذا عيبا وأنه لم يؤذ أحدا، بل يجد فيه كل العيب لكنها كذبة اخترعها عقله وصدقها ضميره ورضي بها.

نكذب كثيرا.. نكذب باحتراف حتى تصدق ضمائرنا أن ما نقوله هو عين الصواب!

كان هذا يشبه الأفلام والمسلسلات لا بل هو أغرب. هذا هو الواقع، فالحياة

دائما ما تكون أغرب من الخيال، الأفلام والمسلسلات لا تحتوي على كل هذا الحزن والدموع لا تحوي كل هذا الألم، لو فعلت ما تحمل أحد

مشاهدتها.. يشاهدون الأفلام للهروب من الواقع الموحش أتتوقع أن يرضون بأن يروا تجسيدا للمسوخ المسمى بالواقع في أفلامهم؟!!

لم يعد يحس بالانبهار أو العجب.. يحس بها بشكل خافت يأتي من مكان بعيد.. هناك في أعماق عقله حيث أخفاها في "العقل الباطن". لا يحس بها طوال يومه وتؤرقه طوال ليله. كانت الحياة قد أعدت له صفقة أخرى من حيث لا يتوقع عندما أكمل أحمد بعجرفة:
- هذه قصة التحاقى بالمستشفى. دعنى أخبرك كيف التحقت أنت.

قال كلماته وتوقف قليلا ينظر في عيني على، ولأول مرة لم يكن يبدو عليه الانكسار، كان يبدو كجندي ينظر إلى عيني ضحيته قبل ان يطلق عليه آخر رصاصة في بندقيته.. وربما ليست الأخيرة...

استأنف كلامه في هدوء نسبي قائلا:

- بعد انضمامي للمستشفى بثلاثة شهور تلقيت مكالمة من والدتك، كانت تسألني فيها عن ظروفى وأحوالى وكلام من هذا القبيل، ثم سألتني عن المستشفى وكيف يمكن أنت أن تلتحق بها وما الشروط المطلوبة. أخبرتها باحترام أن المستشفى لا تبحث الآن عن أطباء في ذات تخصصك وأنه من الصعب انضمامك بسبب كثرة الأشخاص الذين يتقدمون لتلك الوظيفة ممن هم أكثر من خبرة وكفاءة.

ظنت يومها أنني أقول هذا لأنى لا أحب لك الخير أو أنى أرى نفسى أفضل منك لأننى انضمت وها أنا ذا أخبرها أنك لا تستطيع. ربما لهذا السبب هي لا تحبني. أنا لست غيبا

أنا أعرف أنها تبغضني بسببك ذلك، أرى ذلك في نظرتها لي حتى الآن. ليتني تشجعت حينها وأخبرتك بكل ما حدث ولماذا لا أريدك أن تعمل في هذا المكان الخبيث.

لكن ما عساي أقول لك حينها.. أخبرك أنني عبد! أجل، تظن أن العبيد اختفوا؟! هذا ما يعتقد الساذجون، العبيد الآن أكثر من ذي قبل، إنها علاقة عبد وسيد لكن يحكمها القانون. هذه أشياء في الماضي لا يمكن تغييرها.

المهم. بعد عدة أسابيع من هذا الحوار بيني وبين والدتك اتصلت مجددا تسأل عن الموضوع ذاته، لكنها كانت تتوسل هذه المرة، كانت تقول إنها

تفعل أي شئ لترك سعيدا في أعلى المناصب وأن عملك في مستشفيات وزارة الصحة لا يوفر لك مرتبا كافيا لحياة سعيدة. أدركت أن لا مفر من أن أتوسط لك عند الدكتور حاتك ليقبلك، وفي النهاية سيكون هناك صديق يعمل معي وتكون هذه خدمة تحملها لي والدتك طوال العمر. أيضا الباقي أنت تعرفه.

ما إن أنهى كلامه حتى انتفض علي كأنه عاد من قرون مظلمة قد قطع فيها أشواط طويلة. لماذا يا عطيات؟ لماذا رضيت أن يتحمل ابنك أن يعيش هكذا؟ هي السبب في كل هذا. وحدها السبب.

يعلم أن أنها ما فعلت كل هذا إلا لأنها تريد سعادته. يدرك أنها لم تخبره ولو مرة واحدة أنها هي السبب في تلك الوظيفة التي كان يحلم بها، هي كانت السبب الذي جعله متفوقا على جميع أقرانه. ومع كل هذا كانت دائما تخبره أنه فعل كل هذا بمجهوده. لم ترد منه كلمة شكر.. لم ترد منه شئ.. يكفيها أنه هو.

ربما تجد من يحنو عليك.. مثل والدتك؟ هذا هو المستحيل.

لا يهم ماذا كانت النتائج.. المهم أن المقدمات كانت جميلة. هي لا تعلم الغيب.. لا تعلم ما قد يحدث.. لكنها بكل تأكيد تعلم أنها تحبه. وستفعل أي شيء ليكون سعيدا.

في الخلف كان يقف مجموعة من العساكر يراقبون المسجونين وقت الزيارة خرج منهم شاب نحيل، قصير له شارب كث وشرع ينادي أن ميعاد الزيارة قد انتهى ويجب على الزوار الرحيل.

الرحيل؟! لكن مازالت هناك أسئلة عديدة لم يجب عنها أحمد، لا يستطيع الانتظار حتى الغد كي يحصل على تلك المعلومات.

فهم أحمد نظرة الخوف على وجهه وعلم أنه يريد الإجابة عن باقي الأسئلة فقال بسرعة بصوت متحرج: هذا كل ما أعرفه عن أعمال الدكتور حاتم غير المشروعة.

أراد أن يعرض عليه الرسالة لكن لم يُسمح له أن يدخل بها فاكتمى بسؤاله عما إذا كان يعرف ماذا تعنيه تلك الرسالة أو من أرسلها.

استدار أحمد يمنية ويسرة يتأكد أن لا أحد يستمع لما يقول ثم تابع:

- أقسم أنني لم أكن أعلم شيئا عن محاولة تسميمك، لكن بعد ما حدث لك هرعت إلى مكتبة وأقسمت له أنني لن أبرح مكاني حتى أعرف الحقيقة كاملة.. أخبرني محاميه أنه وضع لك سم اسمه "الرايسين" في رسالة مسممة.. جُن جنوني حينها وظللت أصرخ وأبكي فهددني بالسجن أو أن أسكت.. لكنني لم أسكت.. أما الآن بعد أن عرفت أنك

حي، أنا سعيد جدا لأنني لم أتنازل عن حقك. يجب عليك أن تدمر حياة هذا الوغد، كما دمر

حياتنا. أخبرك الحقيقة الخالصة هنا. لن أخسر أكثر مما خسرت. أقسم لك مجددا أنني كنت ألعب دور الجرافيت في المفاعل النووي. كنت أنا الذي أحاول منعهم من التعرض لك بأي أذى بعد أن عَلمتَ بوجود خطأ في الحسابات. نحن البشر قتلنا كل من هدد اسبقيتنا.. أتعرف ما حدث للبشر الأضعف؟.. أكلناهم..

السم في الرسالة؟! تماما كما حدث مع باراك أوباما سابقا في محاولة الاغتيال تلك. بدأ يضرب على جبهته بشدة.. كيف لم يعرف هذا! كيف لم يستنتجها من قبل! واضحة مثل ضوء الشمس.

أتى عسكري وبدأ بسحب أحمد من ساعده بشدة. رفض بكبرياء النهوض معه؛ فانهال عليه بأبشع الألفاظ والشتائم وبدأ يشده بعنف أكثر، منذ بضعة أيام كان هو الدكتور أحمد أحد أنجح الأطباء الجراحين في مصر، والآن هذا! يالللذل.. يالللذل.

كان علي يشعر بالمهانة لرؤيته صديقه يعامل بهذا الشكل، فكيف بشعوره هو شخصا! بالرغم من كل شئ ومن تصميمه أنه لن يغير رأيه في أحمد مهما قال أو مهما حدث، إلا أنه -وبطريقة ما- اقتنع بكلامه وتعاطف معه.

حدث يمينه الذي ألقاه أمام مؤمن يخبره فيه أن لن تطغى عليه عاطفته مجددا.. لكن هاهي تفعل. يقاومها؟ فليصم خيرا له.

لا يوجد شخص يمكنه أن يكون ماهرا في الكذب لهذه الدرجة حتى يجعله يغير رأيه فيه. لا بد أنه كان صادقا، إن لم يكن في الكلام كله فعلى الأقل معظمه كان صادقا.. أو قريبا منه.

فكر علي في قرارة نفسه أنه لن يكون عائقا أمام خروج أحمد من أزمته لكنه أيضا لن يساعده.

وبينا العسكري يسوقه من يديه كالبهيمة نظر إلى علي بحسرة وقال بصوت متقطع منكسر: سمعتك في البداية تقول "الجماعة"! ربما كنت تعتقد أنني منهم لكن هذا غير صحيح لأنه وبكل بساطة لا يوجد ما يسمى "الجماعة". إنه لفظ كان يطلقه محسن على الدكتور حاتم ورجال الأعمال الذين يزورونه، هو لم يكن يعلم أي شيء عن الأعمال التي تتم في المستشفى، لكنه بالطبع لم يكن أحقا وكان يعرف أن هناك شيئا ما يتم في الخفاء. كان يظن أنهم تكوين عصاي أو شيء من هذا القبيل؛ لذا أطلق عليهم هذا الاسم. فليرحمه الله. أنهى كلامه وغادرت دمعة عينه...

قد أزاح أحمد ما علق بصدرة سنوات يطارد أحلامه وأثقل بها كاهله هو.. أطنان من الألم والشك والخوف.. أطنان من الرعب والقلق.. وشعور دائم بالغثيان!



"في بدايه علاقتنا كنت أعرف أن هناك روايات وسطور مدفونه وراء تلك
العيون التي يسكن خلفها سواد شديد.. ولكن قد مر قسبط كافي من الزمن
لنسيان هذا الامر مهما كان.. وشعرت وقتها أن الامر تحسن بعد الالاف
الساعات والمواقف.. لكنها كانت مجرد التثيرة..."

في المنزل كان الجميع يقفون مشدوهين.

كانت عطيات أكثرهم قلقاً وأولهم اندفعاً تجاهه تحضنه وتطمئن عليه.

كان القلق باد على الجميع حتى "ياسين"، كان الفتى في حيرة من أمره فمئذ بضعة أيام أخبرته والدته أن خاله قد صعد إلى الله وأن من عند الله لا يعودون للحياة، وهاهي الآن تجربته أن "لولو" (كما يحب أن ينادي علي) مازال حياً وهو يريد أن يسلم عليه ويطمئن على حاله.

الأطفال! كم يسهل إقناعهم بأي شيء.. فقط إذا عرفت المفتاح الصحيح.

بدأ علي يشعر أن أيام الطفولة كانت الأيام الوحيدة الذي استمتع بها من قلبه، لم تكن الدنيا رحيمة به بعد تلك الأيام.

تمنى لو استطاع أن يخبرهم بما فعله وما سمعه، لكن بأي شيء يخبرهم وهو حتى لا يستطيع تصديق ما حدث.

وهو الذي ظن أن الخروج من مقبرة مظلمة ضيقة حياً أمر صعب!

لم يكن يصدق أن الموت يأتي مرة واحدة فقط أما الخوف يحدث ألف مرة.

مازال يفكر، مازال يلوم والدته ويلوم نفسه. ربما أخطأت عطيات بالفعل عند توسلها أحمد أن يجد وظيفة لابنها، لكنها ما فعلت كل ذلك إلا بدافع الحب والخوف. أما هو فقد قبل تلك الوظيفة وهو يعلم أنه غير مؤهل لها بسبب غروره بسبب "الإيجو".

إنه شيء ما في داخل كل إنسان يدفعه للاعتقاد أنه أفضل من غيره، وأنه مهما كان سيئاً فهو دائماً يستحق الأفضل وإذا أتاحت له الفرصة المناسبة سيحقق ما لم يحققه أحد قبل.

الغريب في الموضوع أن أحمد يجب الدكتور حاتم لذات السبب.

والدة أحمد دائماً ما كانت تراه مقصراً في حق نفسه وأنه لا يبذل جهداً كافياً كي يكون شخصاً أفضل، أما هو في قرارة نفسه - حاله في هذا حال أي شخص - يرى أنه بالفعل الأفضل ولا يحتاج شيئاً ليثبت هذا لأحد. لكن عندما تصادمت توقعاته ورؤيته لنفسه أنه الأفضل بالواقع تحطمت، فقد ثقته بنفسه عندما وجد نفسه عاجزاً عن إيجاد علاج لأقرب شخص له وأنه لا يملك المال الكافي لهذا الأمر.

هنا أتى دور الدكتور حاتم في هيئة الملاك الحارس حيث أعطاه الأمل مرة أخرى في علاج والدته، أعاد هذا الشعور له الثقة في نفسه من جديد أعاد غرور "الإيجو" إلى طبيعته. بالطبع، ولما لا يكون أفضل من أي شخص آخر وهو قد وجد من يستطيع علاج والدته وانتشالها من آلامها، أغلب الناس ما كانوا ليستطيعوا أن يجد فرصة علاج لأقاربهم كذلك. إذا - حسب اعتقاده - لابد أنه أكثر تميزاً عن الآخرين.

أراهن أنه ما كان ينافق الدكتور حاتم عندما كان يخبره أنه يحبه وأنه أفضل طبيب ورجل أعمال يتمنى الجميع أن يكونوا مثله رغم معرفته بأعماله غير الشرعية وبالرغم من أنه أجبره على العمل عنده وأشركه في عمله حتى يسد دينه، لقد كان يحبه بصدق.

نحب دائماً من يعطوننا الثقة بأنفسنا من يشعروننا بالتميز.. حتى وإن كانوا أكبر مصدر لألنا لانكسار أرواحنا.. إلا أنه هذا الشعور اللعين الوهمي بالتميز الذي يرضي غرور الإنسان وجهله يطغى على ما دونه من مشاعر وآلام.

يفكر عقله: هل لو كان وضع في نفس الاختبار الذي وضع فيه أحمد كان ليفعل مثله؟! أم كان ليختار رؤية والدته تتألم ولا يقدر على فعل شيء؟!

هل هناك شعور يساوي نظرة رضا من والدتك! هل هناك أصعب من رؤيتها تتألم!

عندما لا تملك خيارا يكون الوضع أسهل بكثير، أما عندما تملك خيارا واحدا وهو يتنافى مع أخلاقياتك ومبادئك التي رسمتها لنفسك طوال حياتك وأوهمتك نفسك أنك دون تلك المبادئ لا تساوي شيئا.

وقتها أنت في حيرة بين تأنيب الضمير بسبب تقصيرك في حق والدتك بالرغم أنك تستطيع المساعدة أو احتقارك لنفسك طوال العمر بسبب تنازلك عن مبادئك.

أيها أسهل..

هل لو وضع مكانه كان اختار نفس اختياره؟! هل يكون أحمد هو الضحية في النهاية؟! إذا كان أحمد هو الضحية فماذا أكون إذا؟

بدأ يلوم نفسه ويعاتبها لأنه شعر أنه يبرر الأشياء التي فعلها صديقه. لا، بالطبع لا. لو وضع في مكانه لكان ظل يبحث عن حل آخر. أجل، لابد من وجود حل آخر. موافق كتلك تشبه في جوهرها "متلازمة الرنجة الحمراء" أن يلقي عليك أحد موضوع معين فيشغلك به وتبذل قصارى جهدك في الدفاع عنه وإيجاد تبرير بينما بكل بساطة هناك خيار آخر. بالطبع لابد من وجود خيار آخر. ماذا لو لم يجد؟

أنحن أبناء قابيل أم هابيل؟ القاتل أم المقتول؟ المجرمون أم الضحايا؟

تم التلاعب بك مرة أخرى..

هناك جواب آخر. نحن -على الأرجح- أبناء إخوتهم..

هكذا يتلاعبون بك.. تقع فريسة سهلة حتى لأقرب الأشياء منك.. عقلك.

لم يكن مستعدا للتفكير في هذا الموضوع مجددا، إنها مثل حلقة مفرغة حيث يبدأ تفكيره من نقطة تكون هي نفسها نهايته.

تجاعيد القلب تظهر مع أول خيبة.. وأنت انهمرت عليك الخيبات انهارا.

تراه كم أصبح عمر قلبك؟! لا بد أنه جاوز التسعين من العمر.. وأنت مازالت لم تبلغ الثلاثينات حتى!

أسفل عينيك تحول لعنمة لن تراها إلا في قلبك المكلوم أيضًا.

كان الجميع متحمسين لعودته..

الجميع باستثناء مؤمن الذي بدا أنه سعيد أيضا لكن كان الفضول ظاهر على وجهه. على الأرجح هو يعلم أين كان.

أسرعت عطيات ومشيرة إليه تضامنه وتعاتبته، لم يستمع لكلامهما فما في قلبه أثقل من أن يتحمل مزيدا من اللوم والعتاب.

كانت لحظته المفضلة عندما التقى ياسين وضمه إليه. برغم ما أصاب قلبه إلا أنه مازال كالأطفال يضحك مثلهم ويلعب معهم، تكون تلك هي أسعد أوقات يومه.

لم تدعه عطيات وشأنه حتى اضطرت له للكذب عليها حين أخبرها أنه خرج لأنه كان يشعر بضيق في النفس مرة أخرى، وكان هاتفه مغلقاً لأنه لم يكن يريد أي إزعاج، فلم يكن في مزاج جيد.

بدأ أنها اقتنعت بكلامه إذ ارتسمت على وجهها ملامح الشفقة والعطف والثناء لحاله المسكين. لكن لم يبد أن تلك الحجة انطلت على مؤمن الذي كان يقف في الصالة بعيداً ويرمقه متأملاً.

لم يتحدث منذ ما حدث في شقة الأسكندرية، كلاهما يعلم أنه خطئ وكلاهما لا يمتلك الشجاعة ليعتذر!

اقرب مؤمن من علي ببطء ورسم على وجهه ابتسامة لا يمكن معرفة ما إذا كانت حقيقية أو مصطنعة فهو خبير في التحكم بملامح وجهه.

اقبل عليه وضمه وبسرعة وهمس في أذنه: أريد أن ألقاك في البلكونة الآن. قبل الغداء. سريع هو مؤمن، لا يضيع وقتاً.

ابتعد علي عنه وأوماً موافقاً ثم، وفي لمح البصر، اقترب منه مرة أخرى وقال وهو يتسهم محاولاً إخفاء حديثه: لا بل على السطح.

لم يكن يستطيع المغامرة أن تسمع إحداها هذا الكلام كما حدث المرة السابقة. إن الأحداث المتتالية التي حدثت جعلته حذراً إلى حد لا يتوقعه أحد.

على السطح، كان مؤمن يقف مقاربا للسور يتأمل البيوت المجاورة والمارة في الشارع. كان قد تكفل بإيجاد حجة مقنعة تفسر خروجه هو وعلى من البيت، لم يكن علي قادرا على إيجاد سبب مقنع يفسر خروجه بعد عودته بفترة وجيزة، لكن مؤمن كان يمتلك.

كان مؤمن يمتلك ما هو أفضل من الحجة.. كان يمتلك الأسلوب.

إنه سلاح ذو حدين. إذا استعمله في وظيفته أو لأشياء مهمة كتلك كان الخير كل الخير، لكن ما يخشاه هو أن هذا الأسلوب ينطلي على مشيرة كثيرا، وعليه هو الآخر أيضا.

لكنه يثق في مؤمن. لا يمكن القول إنها ثقة عمياء، فهذه الكلمة لم تعد متواجدة في قاموسه مرة أخرى، صار كل ما حوله قابلا للشك والخيانة.

لو كان عيبا فيه يستطيع اختياره فهو بالطبع الجمود، ليس جمود المشاعر فهو شخص حساس قلبه أبيض، لكنه جمود التعبير. هو لا يستطيع التعبير عما يشعر به. ليس كل الناس قادرين على التعبير عن أحاسيسهم. إنها هبة يعطيها الله للبعض فقط.

ما فائدة الحب إن لم يترجم إلى أفعال! ما فائدة أن تفيض روحك بالمشاعر ولا يشعر بها من يكتوى جوارك بنيران الجفاف العاطفي؟!

أيضا من لا يملكون تلك الهبة في اختبار لمقاومة أنفسهم ومحاولة حتى تقرب ما يشعرون به.

مؤمن هو من ذاك النوع الآخر من لا يملكون ملكة التعبير لكنه يحاول.

قضى علي معه ما يقارب الأسبوع بعد أن أقله من منزل عم سعيد.

كان دائما يطمئن عليه وعن حاله لكنها كانت أقرب إلى أسئلة روتينية خالية من المشاعر. هو بارع أكثر في الحياة العملية، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالقضايا التي تشيره وتدفع الأدرينالين في عروقه.

استطاع مؤمن أيضا إحضار مفتاح السطح من بواب العمارة الذي لا يرضى إعطائه أحد من السكان إلا بطلوع الروح.

تقدم علي نحوه ببطء فمشى مؤمن نحو الطاولة الخشبية الموضوعة في أحد أركان السطح، سحب أحد المقاعد وجلس وأشار لعلي أن يجلس عن يمينه.

لا يدري لماذا لكن هذا الموقف ذكره بالرؤية التي رأى فيها والده عندما كان في الغيوبة. هذا غريب!

سأله مؤمن بلطف شديد: ماذا فعلت في الزيارة اليوم؟

لا يفوته شيء، يعلم كل ما يدور بخلده، كل ما يفكر فيه، وما سيفعله. يسبقه بخطوة دائما.. بل عدة خطوات.

نظر إليه ثم قال مازحا: أعلم أنك خبير وتعرف كل شيء، وتعرف أي كنت عند أحمد في السجن اليوم. كفاك طريقة المخابرات تلك.

ضحك مؤمن ضحكة صغيرة ثم عاد إلى ملامحه الجامدة مرة أخرى، كان يبدو أنه مستعجلا ويريد أن يعرف المعلومات بسرعة، استأنف علي بلهجة عملية: لقد أخبرني أشياء كثيرة. لكن السؤال الآن هو ماذا نفعل بعد ذلك؟

لطمه مؤمن على مؤخرة رأسه ثم قال مازحا هو الآخر: أئن تخبرني أولا عما قاله لك صديقك المغفل هذا.

ضحكا الاثنين هذه المرة كثيرا. وقعت عينهما في عيني بعض وأطالا النظر. كانت تلك الضحكات والنظرات كفيفة لتذيب طبقات الجليد بينهما، وتعيد المياه إلى مجاريها. كان أكثر ما أدهش مؤمن وأثار حفيظته هو موضوع الرسالة تلك.. على الرغم من أنه كان مصرا أنها ربما كانت ترمز إلى شيء ما.

إلا أن علي هز رأسه نافيا ثم قال: لا، هذا مستبعد. الأقرب أنها كانت غير مفهومة كي تجذبني لقرأة الرسالة حتى النهاية لأعرف معناها، لكن من حسن حظي أنني لم أكمل قرأة الرسالة فبال تأكيد أنني لو كنت أكملتها كنت قد استنشقت كمية أكبر منه والتي كانت كفيفة بقتلي حقا.

بحكمة ورزانة قال: لا، ليس حظا، إنها الفضيلة هي ما أنقذتك، أنت لم تكمل قرأة الرسالة لأنك اعتقدت أنها لم تكن موجهة لك حفاظا على خصوصية صاحب الرسالة، أحد آخر مكانك كان ليتجاهل القواعد الأخلاقية وأكمل قرأة الرسالة بشكل عادي، لو كنت محظوظا بشيء حقا هو أنك لك قلبا نقيًا وعقلا ذكيا.

احمر وجهه خجلا فهو غير معتاد على هذا النوع من المجاملات خاصة من مؤمن، لكن فكرة أنه تعرض للأغتيال أرعبت أعصابه وأرخت مفاصله وجعلته يرتجف خوفا حتى بدأ يحرك قدميه جيئة وذهابا من فرط التوتر، لم تخف تلك المشاعر عن مؤمن الذي بدأ يطمأنه ويخبره أنه بمأمن هنا الآن.

هذا فقط؟!

هذا جل ما استطاعت مخيلتك اختلاقه؟!

يخبرك أنه يشعر أنه خائف ومُهدد وكل ما تقوله له "اطمئن" هذه حقا معلومة غاية ف
الأهمية.. لابد أنه لم يخطر بباله قط أن يهدأ!

ستحل عليه السكينة الآن بعد أن أخبرته أن يطمئن.. يالك من منقذ!

كان مؤمن يدرك سخافة أقواله.. لكن عندما يكون أحد أفراد عائلتك في خطر أنت لا
تفكر في شيء إلا أن تحميهم..

لكن على غير المتوقع أنت ثمارها وهدأت قليلا من روع علي الذي قال

بنبرة هادئة بعد تنهد: هل تعلم ماذا أريد أن أفعل الآن؟.. ألعب مع ياسين..



"اكذب ثم اكذب حتي تُصدّق. المتلاعبون بالعقول هؤلاء، بكل منهجية وإبداع يستحقون من الناحية المهنية كل إعجاب حتى وإن كانوا من الناحية الأخلاقية يستحقون كل احتقار"

(الإعلامي يسري فودة عند احتلال أمريكا للعراق)

وقف خارج المكتب ينتظر. تماما كما يجب مؤمن أن يفعل، سيتبع طريقته هذه المرة، فهو دائما ما يؤمن بالتخصص.

كانت سيارته المرسيديس "SLC" في الجراج، دخل وألقى نظرة عليها وتأكد أنها موجودة، هو لا يريد أن يقع في نفس أخطاء الآخرين. يعلم أن هذه هي السيارة التي يخصصها الدكتور حاتم للعمل أما سيارته الـ "BMW" فهو يتركها للمناسبات الخاصة. لقد استعد لهذه الليلة بكل ما يستطيع، لا يمكن ان يخرج منهزما أو دون أن يحصل على ما يريد.

تجاوزت الساعة التاسعة مساء بقليل وعلي مازال جالسا في سيارته يراقب خروج "الفريسة" كما يجب مؤمن أن يدعوه.

وبعد فترة وجيزة خرج الدكتور حاتم من مكتبه وتوجه إلى الجراج. كان يرتدي بذلة ماركة "Ermenegildo Zegna" - إيمينيجليدو زينغا الفاخرة. وهذا أمر غير اعتيادي فبذلات سهرة كتلك ليست من النوع الذي يرتديه الدكتور حاتم في العمل، لا بد أنه ذاهب لسهرة من إحدى سهراته الخاصة. هذا ليس أمرا جيدا؛ فربما يرفض الحديث معه متعللا بوجود حفلة تنتظره، لكنه لن ير حل مهما حصل.

انتهاز فرصة دخوله الجراج ليُخرج سيارته وبدأ تنفيذ خطته التي وضعها مع مؤمن قبلا.

بالرغم من كل تلك الملايين التي يملكها د. حاتم إلا أنه يفضل أن يقود سيارته بنفسه..
ليس شحا أو شئ من هذا القبيل وإنما -حسب قوله- لأنها تشعره أنه يمارس الجراحة مرة
أخرى!

"يجب أن تكون كل قطعة في مكانها" كما أخبره مؤمن بالنص، يجب أن تكون الحركة الأولى
والأخيرة لهم.

خرج من سيارته مسرعا وتوقف أمام باب الجراح الرئيسي مباشرة.
بعدة عدة ثواني، أطلقت سيارة الدكتور حاتم الرمادية، شعر بشئ غريب يسري في أوصاله،
كان مرتبكا كان خائفا ويحاول تملك نفسه بشئ الطرق.
وكيف لا يكون مضطربا وهو ذا يقابل قاتله.. وجهها لوجه!

هل فكرت في هذا الشعور من قبل؟! على الأرجح لا، لم يفكر أحد فيه قبلا؛ لذا لا توجد
كلمة أو تعبير في أية لغة في العالم يمكنها وصف هذا الشعور النادر.

لم ينم ليلة أمس. فكر في جميع الاحتمالات الممكنة لهذا اللقاء، كانت بعضها تسير بشكل
جيد حيث يتعاون فيها د. حاتم معه أو على الأقل يستطيع هو بذكائه وحنكته استخلاص
معلومات مفيدة، وعلى الجانب الآخر كانت هناك تخيلات أكثر بشاعة، بل إن بعضها
دموي وينتهي نهايات حزينة، كما توقع أن عندما يراه د. حاتم من داخل سيارته فإنه سيزيد
سرعة السيارة ويدهسه.. ينثره أشلاء.. كما قلبه.

كان يتردد في أذنه أبيات شعر قرأها الليلة الماضية كي تبث فيه الحماسة وجود المشاعر كي
لا يلين أو يضعف، كما أخبره مؤمن أن يفعل:

"يا مجرمون إلى الراء فسوف تذتفض القبور و تقيء موتاهها و يا موتى على اسم الله ثوروا"

كانت تبعث فيه الطمأنينة وتبث في روحه الثبات وأن المذنب هو الذي يجب يكون مرعوباً.

ليت مؤمن يستطيع أن يتولى هذا الأمر نيابة عنه، فقلبه الجريح لم يعد يتحمل المزيد من الصدمات أو الجدال. لكن هذا أمر يجب أن يتم بين القاتل والمقتول! كل هذا لا يعتبر شيئاً إذا ما قورن بشعور قاتل يجد ضحيته واقفة أمامه تحديق به.

أوقف السيارة بسرعة فأصدر احتكاك إطارتها بالرصيف أسفلها صوتاً مزعجاً. كان مفزوعاً وتقبض وجهه بملامح غريبة. أخرج منديلاً من جانبه ومسح به زجاج السيارة من الداخل ليتأكد أن ما يراه صحيح وليس وهماً.

فتح باب السيارة بسرعة شديدة وخرج منها ثم عاد ينظر إليه مجدداً، تقهقر إلى الراء بوثة واحدة، كانت يدها ترتعشان وشفثاه أيضاً، كان جسده كله يرتعش كأن يشبه ورقة في مهب الريح. كان علي يعتقد أنه قادر على سماع صوت اصطكاك أسنانه ببعضها البعض من شدة الخوف.

كان يتسأل علي في نفسه قائلاً: لابد أنه يعتقد أنني شبح عاد من الموت ليذكره بما فعله، ربما يعتقد أن هذا صوت ضميره هو الذي يخيل إليه صورة ضحيته الأخيرة. هل من الممكن أن يكون موقف كهذا قد حدث معه بالفعل سابقاً.. أن يتخيل ضحاياه الذين نكل بهم واعتدى على حرمة أجسادهم دون إذن ماثلين أمامه؟ تراكم يكون عددهم؟!

بل الأغرب هل الممكن أن أكون فعلا مرسل من ضحاياها؟ هل بطريقة ما استطاعوا أن يجعلوني أعود لأنتقم لهم؟ هل هذا حقاً هو الغرض من خروجي من هناك حياً؟! لكن!.. لماذا أنا؟!

كان د. حاتم يقف مدعوراً يتمتم بآيات من القرآن بصوت خفيض. يفعل كل شيء يغضب الله ثم ما إن يأتي وقت الحساب يدعو الله أن ينقذه.. بأي وجه تدعوه؟! ربما يعتقد أنه كذلك يحسن الظن بالله، فهو يرجوه ويتوسل إليه أن يخرجته من المواقف العصبية دائماً لأنه يعلم قدرته. وكذب، لو أحسن الظن بالله وعلم قدرته لاتباع أوامره وترك أعماله غير الشرعية.

تلك لحظة من اللحظات القليلة في حياته التي شعر فيها علي بالانتصار. بدأ يتحرك ببطء حتى وصل إلى مقدمة السيارة بينما كان يتراجع د. حاتم للخلف ببطء، ثم بحركة واحدة خاطفة اندفع نصف جسده الأيسر للأمام حتى وصلت يده إلى شبك باب السيارة الأمامي بينما كان نصف جسده الآخر متراجعا يكاد يلامس سطح السيارة من الخارج.. كان مرعوباً لهذا الحد!

أدخل يده من الشباك وأمسك شيئاً من جوار الكرسي. كان مسدداً. حدث كل هذا بسرعة كبيرة وكان علي يكتفي بالمشاهدة بملامح جامدة. بدأ يخرج يده ببطء وعيناه لا تتحركان من على الشبح المائل أمامه، فاجئه علي عندما تقدم إليه وأمسك معصمه بقوة ثم قال بهدوء كالموت: يجب أن نتحدث.

ألقى المسدس من يده فوق على الكرسي، ثم بدأ يحدق فيه أكثر ويتفحصه من شعر رأسه حتى أخص قدميه، كان أيضا ينظر إلى الشارع عساه يجد من ينقذه، لكن دون جدوى، كان الشارع هادئا جدا، خاليا من الأشخاص تقريبا إلا من عدد قليل لم يعيروا هذا المشهد أي انتباه، كانوا يسرون في طريقهم دون التلفت يمينا أو يسارا كأنهم رجال آليون أو "زومبي"!

زاده هذا شعوره بالخوف أكثر فقد كان الوضع يشبه أفلام الرعب كثيرا. ثم بصوت متقطع ضعيف قال: ع... علي؟! أهذا أنت حقا؟!

- أنا لست علي، أنا شبحة!

جاءه الصوت متقطع خال من المشاعر هادئا واثقا. بدا علي حاتم الخوف اكثر وارتبك.. انكفأ لونه حتى صار أبيض خالصا من شدة الرهبة.

لم يستطع علي تمالك نفسه وانفجرت شفتاه رغما عنه مبتسما، فهم حاتم ما يجري فابتسم هو الآخر.

(هل هذا أحد المقالب التي تُعدونها لرمضان؟ لا يهم. المهم أن من أمامه ليس شبحة، الأشباح لا تبتسم.. أليس كذلك؟!)

هكذا تخيل علي ما يدور في رأس حاتم حينها.

حاول أن يأخذ علي بالحضن لكنه ابتعد ودفع يده بعنف بعيدا عنه. ثم طلب منه أن يصعدوا إلى مكتبه ليتحدثوا.

كان حاتم يتقدم المسير، كان لا ينفك ينظر للخلف ليتأكد أن علي يسير خلفه، على الأرجح كان يريد أن يتأكد أنه لن يطعنه من الخلف. يظن العالم كله مثله!.. لا يعلم أن هناك أناسا لهم مبادئ وأخلاق. ربما أيضا كان يتأكد أنه يسير على قدمين وليس يطفو.. لا يمكنه استبعاد هذا الاحتمال.

وصلا إلى مكتبه الذي يقع في الدور الثاني من المبنى. كان هذا مكتبا خاصا غير الذي يمتلكه في المستشفيات، فمن خلاله يدير ليس المستشفيات فحسب وإنما المصانع وباقي المشاريع.

أمر سكرتيه بصوت عال أن يغادر المكتب فورا هو وجميع الموجودين به. كان يتصبب عرقا وصوته متردد، لاحظ السكرتير ذلك فسأله عن حاله فاندفع يوبخه ويأمره أن يغادر فهو لا يريد أن يرى أحدا في المكتب.

بث صوت توبيخه للسكرتير الخوف في قلب علي، خصوصا أنه كان يريد المكتب خاليا. هل من الممكن أن يفعلها؟

لقد فعلها مرة لن يمانع أن يفعلها مرة ثانية. لكن لا يجب أن يجعل الخوف يتحكم فيه، الذي أنجاه من مكائدهم المرة الأولى قادر أن ينجيه ثانية.

قعد د. حاتم على كرسي مكتبه وجلس علي مقابلا له. سأله حاتم في دهشة عن حاله وعمّا حدث له، بدا متعجبا جدا إذ أخبره انه كان حاضرا عندما توقف قلبه عن العمل، وكان حاضرا الجنازة والدفن أيضا.

بدأ يسأل عن كيفية حدوث ذلك وأنه أغرب شئ رآه في حياته وعن كم هو سعيد ببقاءه. كان كلامه كثيرا غير مرتبا على غير العادة، فقد اجتمعت عليه صدمتان رؤية شخص عاد من الموت، وأنه هو سبب موته في البداية.

أخبره أنه سيقص عليه ما حدث بالتفصيل شريطة أن يجيبه عن بعض الأسئلة هو الآخر أولا.

هز رأسه كأنه يفكر في شئ ما، ثم خرجت منه ابتسامة خفية كالتي تظهر على وجه المحققين في المسلسلات عندما يتوصلوا لحل قضية، وقال بحماس: لا، أخبرني أنت أولا ما جرى، وأعدك أنني سأخبرك ما تريد معرفته.. وأكثر.

كانت كلمته الأخيرة غريبة قليلا لكن علي لم يكن متفرغا للتركيز في مثل تلك الأمور فقد كان يرتب الأسئلة التي يريد طرحها في رأسه قبل أن ينسى أي منها.

رضخ لطلب حاتم وقص عليه سريعا ما جرى. كانت دهشة وسعادة تجتاحان وجه د. حاتم، دهشة لأنه كان قد قرأ عن ما يعرف "بمتلازمة لازاروس" قبلا، لكنه لم يكن يتوقع رؤية هذا الأمر يحدث، أخبره أيضا أن حالته تعتبر نادرة جدا والعلماء من كل مكان سيتسابقون لمعرفة بعض التفاصيل منه كما فعلوا مع الحالات الأخرى المسجلة، وأنه بهذا يحصل على شهرة مجانية سريعة. بينما كان سعيدا لأنه تأكد أخيرا بما لا يدع مجال للشك أن الجالس أمامه هو "علي رشاد" ليس شبحا ولا شبيها له ولا توأمة الشرير كما يحدث في الأفلام عادة.

أنهى علي كلامه وقبل أن يبدأ بقول "كيف..." قال حاتم بسرعة: دعنا نتحدث عن العمل.

كان كلامه غير متوقع، ربما أراد ان يشوش تفكيره ويبعده عن أسئلته بل ربما يعرض عليه رشوة بمبلغ خرافي الآن كي يسكت عن تلك القضية. وعلى الرغم من أن هذا لم يكن ضمن خطة علي إلا أنه فتح له طريقا جيدا لبدء أسئلته حين قال بسخرية وهو يتنهد: أتقصد الأعمال الشرعية أم غير الشرعية؟!

ابتسم د. حاتم ابتسامة خفية كما فعل منذ قليل ربما كان يفكر في الأمر ذاته. ثم قال بلطف وابتسامة صفراء: هل تود أن تشرب شيئا؟ شاي ربما؟

لم يكن يرغب بوضع أي شيء في جسده غير المعلومات التي جاء لاقتناصها منه، لكنه رأى أن طلب شيء يشربه ليست فكرة سيئة، فهو بذلك سيعطل د. حاتم قليلا ويمنعه عن الانصراف مبكرا لحضور حفلته، مما يتيح له فرصة أكبر للحديث معه.

باعد شفثيه عدة مليمترات ثم دمدم يقول: شاي.

ما أن نطق حرف الياء في كلمته حتى وضع حاتم كف يده اليسرى على المكتب ثم قال بحسرة مصطنعة: آه للأسف لقد تذكرت توا أن السكرتير وجميع العمال قد غادروا.. لم يبق سوانا.

قبل أن يقبل الاعتذار أو ينطق بأي شيء، عرض عليه بعضا من "الكوكيز" كانت عنده في مكتبه. رفض علي بلطف، وبالرغم من ذلك أخرج العلبة ووضع أمامه بضع حبات منها. كان هذا عرضا واضحا وصرحا للسيطرة. لن تأكل أو تشرب أو تفعل أي شيء إلا كما يحلو لي.

قد يظن المرء أنها مصادفة لكن في أوقات كتلك مع أناس كحاتم يكون الحديث كله يتعلق بالسيطرة ومن المتحكم في سير الأمور.

لم ينظر علي إلى ما وضعه حاتم أمامه، نظر إليه مباشرة وقال بعجرفة: أنا أعرف كل شيء.. دعنا ننهي الأمر بسرعة.. أوف بوعدك.

كانت هذه أول مرة يضحك فيها حاتم مذ رأى علي في الجراج. ثم قال بثقة: أعرف أنك تعرف. أعرف أيضا أنك هنا لتستجوبني كما كان قريك - لا أذكر اسمه - يفعل مع المحامي الخاص بي.

أدرك الآن سر ابتسامته الصغيرة منذ قليل، لا بد أن راضي أخبره بما جرى مع مؤمن، وهو الآن قد ربط الأمرين معا.

كما يحب أن يقول دائما "خف من العالم ليس الفاعل أو الشيطان"، يبدو أن مقولته تنطبق على هذا الأمر تماما. ليس هناك من هو أعلم من حاتم بعمله وكيف يحميه وكيف يعرف كل صغيرة وكبيرة فيه.

اعتدل في جلسته ورجع للخلف قليلا على كرسيه وحقق في الثريا الفخمة المتدلّية من السقف العالي ثم قال بجفاء: إذا كلانا نعلم ما يحدث. لكن هذا لا يعفيك من الإجابة عن اسئلتني كما وعدت.

نهض من كرسيه واتجه نحو الخزانة الموجودة في زاوية الغرفة على يسار الجدار خلفه، أخرج منها علبة سوداء.

إنه مسدس. أجل، لابد أنه كذلك، سيقتلني هنا لا محالة، لا نجاة لي. أأصرخ؟! لكن بمن أستنجد! هذه المرة لن تغفل تصويته.. كل ما أرجوه.. أن يجعل الأمر سريعاً.

قاطع حاتم أفكاره عندما أحضر اللعبة ووضعها على المكتب وفتحها وأخرج منها بضع حبات من شئ أصفر ثم استدار للخلف مجددا ورفع غطاء حوض السمك ووضعهم فيه. عاد إلى مكتبه واكتفى بوضع اللعبة جواره ولم يعدها إلى الخزانة لكنه أراحها قليلاً حتى طرف المكتب. دون اكتراث لوجود شخص آخر يجلس معه ويحاول إقامة حوار. تنهد علي كثيراً.. داخلها. لم يكن يستطيع أن يظهر ضعفه وخوفه أمامه.

توقف قلبه عن الخفقان بشدة وشعر بارتياح مفاجئ في صدره.

كان الأهم من ذلك كله بالنسبة إليه هو لماذا يهتم بالحياة أصلاً؟!

هو لم يعد يعتبر نفسه شخصاً حياً. كان مقتنعاً أن نهايته كانت يوم دخل القبر. ما بقي منه لم يعد إنساناً.. بل هو حطام إنسان!

لم تمنعه كل تلك الأفكار من طرح سؤاله، ففاجئه متصنعاً الهدوء: لماذا قمت بتسميمي؟ ماذا فعلت لك كي أستحق هذا؟

ضم راحتي يديه إلى بعضهما البعض وثنى جميع أصابعه وشبكها معاً إلا السبابتين، كانا منتصبين كأنهما يشكل مسدساً بيده، كان يشير بمقدمته إلى أسفل ذقنه ثم بحركة مباغتة أنزل يده وصوب السبابتين إلى علي، لا يدري هل هذا تهديد أم مجرد حركة عادية!

أطلق صفرة ثم فك أصابعه وطرق بها على المكتب طريقة خفيفة ثم قال: أخبرك أحمد بهذا؟

ارتبك علي جدا، لم يكن يتوقع أن يعرف بهذا الأمر. لا عجب أنه يتاجر بالأعضاء منذ زمن بعيد ولم يستطع أحد أن يمسك عليه غلطة واحدة. إنه يستحق من الناحية المهنية كل إعجاب حتى وإن كان من الناحية الأخلاقية يستحق كل احتقار.

سأل علي بتردد: كيف عرفت أنني التقيت به؟!

ضحك حاتم ثم قال بكثير من الحصافة: لم أكن أعلم حتى أخبرني. شكرا للتأكيد شكري. أراد علي أن يصفع نفسه مئة صفعه على وجهه في ذاك الوقت، ياله من أحق يسهل التلاعب به.

استدار بكرسيه ونظر إلى حوض أسماكهم ثم قال: ماذا تتوقع مني أن أخبرك؟ تريد معرفة أسراي بهذه السهولة؟!

تعجب علي وبدا عليه الغضب وقال بلهجة شديدة: كان بيننا اتفاق. وعدت أن تحجب عن أسئلتي إذا أخبرتك ما حدث. ماذا كنت تتوقع أنني سأسلك عنه؟ لون ملابسك الداخلية!!

كان الغضب قد تملك منه حقا فنطق بكلمات غريبة، لم يكن يعي ما يقول، تمنى لو أنه سحب ما قال.. بعد فوات الأوان.

نظر إلى ساعة يده ثم نظر إلى علي وقال وقد تبدل هدوؤه استعجالا: دعك من الأسئلة التي لن تعود عليك بالنفع. سأعطيك عرضا لا يمكن رفضه.

لم يكن هناك شيء يمكنه أن يثنيه عما يريد، كان متأكدا أن عرضه سيتضمن مالا وسلطة وشهرة.... إلخ من تلك الأمور التي يعتقد أمثاله أن لا أحد يستطيع مقاومتها، ينسى للمرة الثانية أن هناك مبادئ وكرامة، يبدو أنه لا يعرف عنهما شيئا.

بالفعل عرض عليه العمل براتب يساوي عشرة أضعاف ما كان يتقاضاه. أو ما علي بالرفض وهو ينتظر ما سيقول د. حاتم بعدها، هز رأسه ثم قال بوقاحة: حسنا، فهمت.. لا تريد العمل معي. اختر أي دولة تريد أجنبية كانت أو عربية وأنا سأتكفل بتوفير فرصة عمل في أكبر المستشفيات هناك، بهذا لن تكون مضطرا للعمل معي مجددا. ها..؟

أو ما بالرفض مجددا بكل هدوء. جن جنون حاتم وثارت ثائرتة، بدأ يتحدث عن أنه لم يخطئ وأنه يحاول مساعدته بكل ما يمكن لكنه لا يريد المساعدة ولهذا سيبقي دائما ذليلا يدوسه الناس بأقدامه.. سيظل دوما صفرا على اليسار.

أصر علي على موقفه وأراد إكمال الحوار ومتابعة الأسئلة، نظر حاتم في ساعته مرة أخرى ثم قال: أعذرني أنا لست متفرغا الآن. عندي موعد عمل مهم يجب أن أحضره.

انتفض علي من مكانه ونهض من كرسيه بسرعة كأنها رفعتة قوة غريبة عن الكرسي، صدم يديه المكتب وقرب رأسه من حاتم وقال بعصبية وغيظ: لن أتحرك من هنا حتى ننهي الحوار. ما بيننا ينتهي عندما أقول أنا أنه ينتهي.

لم يشعر أنه بهذه القوة من قبل. يقف أمام أحد أشهر رجال الأعمال في البلد والذي كان يعمل لديه ويصيح فيه بهذا العنف؟! كان يعتقد أن قلبه الجريح لن يتحمل شيئا كهذا. عجيبة قدرة الإنسان.. حتى وإن كان بقايا إنسان محطم.. يستطيع فعل أي شيء.. خاصة إذا تعلق الأمر بالانتقام.

تنهد حاتم بشدة وأشاح بوجهة ثم قال بفظاظة وهو يشير إليه بيديه بهدوء ولا مبالاة أن يجلس: ماذا تريد أن تسأل أيضا يا سيد علي؟

قالها بلهجة سخرية واستخفاف واضحة لكن علي لم يهتم. عاد مكانه وجلس مرة أخرى ثم سأل متجهما:

- هل لك علاقة بما حدث لمحسن الصباغ؟

رجع بكرسيه للخلف قليلا، ثم فتح أحد أدراج المكتب، وأخرج منها ظرفا أبيض، أغلق الدرج وعاد مكانه ثم أعطى الظرف لعلّي.

- اقرأ.

استغرق الأمر علي بضعة لحظات حتى أنهى قرأته. كان الظرف بتاريخ اليوم الذي مات فيه محسن. كان يحتوي على تهديد لمحسن، يهدده أنه إذا أخبر أي شيء يعرفه عما يحدث في المستشفى فإنه سيتم الإبلاغ عن المال المفقود في الحسابات وسيتم حبسه بالقانون. لم تكن الرسالة تتضمن أي نوع من التهديد بالقتل أو أي شيء آخر.

فكر علي في هذا بالإضافة إلى أنه عندما مات محسن لم يكن قد وشى بالدكتور حاتم بعد، إذ كان من المفترض أن يقابل مؤمن في اليوم الذي أرسلت فيه الرسالة؛ لذا لم يكن من داع لقتله.

كان واضحا أنه يحاول نفي تهمة القتل عن نفسه بهذه الرسالة.. سيتبعه في هذا الطريق حتى وإن كان غير متيقنا من صحة الرسالة أصلا.

سأل علي مستغربا: إذا لم تكن لكم صلة بما حدث فلماذا برأيك انتحرت؟!

ولماذا كانت كل الأدلة تشير إلى أنها عملية قتل؟

رد حاتم بكثير من الكياسة:

- لا يوجد شيء أكثر خطورة علي قضية من غباء المؤيدين لها للأسف.

لقد اخترت محسن لأنه متمكن من عمله ولأني أعلم أنه كان لصا قبلًا؛ لذا لن يمانع أن يقوم بهذا العمل ولن يشي بأي شيء، أعطيته مرتبا يكفي لسد جشعه كي لا يفكر أن يسرق، وبالطبع كان هناك حفنة من أفضل المحاسبين يقومون بأداء الحسابات الرسمية أيضا، لكنني لم أثق أبدا بأحد كي يقوم بهذا العمل كما وثقت به. لم أراهن على ذكائه قط.. راهنت على ولائه وإخلاصه. لا أنكر أنني كنت أعلم حين عينته أن له ميولا انتحارية، لكنني

كنت أعتقد أنها ميزة أنه لن يخاف فعل أي شيء من أجلي. ما كان يقيه على

قيد الحياة كانت الوظيفة التي أعطيتها له، لذلك -وفعليا- أنا من منحته الحياة!

لم يوجد دليل واحد يدل على أنه قُتل.. هما الفراغ وهول الموقف ما جعلوا البعض يعتقد أنه قتل لكن هذا غير صحيح.. يجب المرء أن يجد سببا دائما لكل شيء وخصوصا لو كان شخصا يستطيع أن يلقي باللوم عليه..

استخدم عبارات راضي التي قالها لمؤمن ذاتها!

كان يبدو كلامه صحيحا خاليا من الخداع. بالإضافة إلى أنه يملك دليل برائته. هذا لا

ينفي أن تهديده هذا أخافه -ضمنيا- من القتل مما أدى به إلى

الانتحار. يمكنك أن تجبر أي شخص على فعل أي شيء خلا الانتحار..

منذ مدة رأى مقطع "فيديو" لشاب فلسطيني -أو جنسية أخرى- يتناول قطعة من اللحم ويبدو عليه حزن ما بعده حزن، لم يكن أمرا هاما.. الحزن في كل مكان، على الأقل هو حزين ويتناول اللحم، غيره لا يجد ما يسكت به

جوعه. كان اللحم نيئا لكنه يظل لحما. لكن الأمر لم يكن بتلك البساطة، ليته كان. عندما بحث عن مصدر هذا الفيديو علم أن هذا الشخص الفلسطيني قد وقع في أسر مجموعة من السفاحين التابعين لـ "الدارك ويب" هو وأسرته. قُتل أسرته جميعا أمام عينيه بأبشع الطرق.. سُلخت جلودهم.. تكسرت عظامهم.. نزعوا اللحم عن العظام. هذا اللحم الذي كان الفتى يتناوله.. هو لحم أسرته كلها!

لذا فعندما أقول أنه يمكنك أن تجبر أي شخص أن يفعل أي شيء فأنا أعني ذلك حرفيا.. باستثناء الانتحار.. إذا أجبرت أحدا على الانتحار تكون بذلك قتلتة!

على الرغم من أن كل هذا بدا غير منطقي لكن مع ذلك كان هو الكلام الأقرب للواقع.. لكن كان هناك شيء مازال يحير علي ويجعل الأمر غير منطقي بالنسبة له؛ لذا سأله ببرود: إذا كنت لم ترد قتل محسن، لماذا قتلتي إذا.

ابتسم بسخرية ورد عليه قائلا: لم أفكر حتى في ذلك.

تعجب علي كثيرا من هذا الرد، ألم يخبره منذ قليل أنه من قام بتسميمه؟!

استأنف حاتم ليقطع تفكيره قائلا: لو أردت قتلك لما كنت هنا أمامي الآن.

أردت أن أفصلك فحسب. أردت إبعادك عن طريق فيه أذاك. لكن راضي منصور هو من أشار علي أن أترك له هذا الموضوع يتولاه. أعلم تماما كم

هي قاسية أفعاله لكن صدقني لم أكن أعرف أنه سيقوم بتسميمك.. لا أخفي عليك أنني غضبت منه على ما فعل وحدث بيننا خلاف كبير لكن في النهاية كل هذا في الماضي، لننحي خلافات الماضي جانبا ودعني أعوضك عما مررت به.. صدقني لن تندم.

ياله من شيطان. يستطيع تبرير كل شيء. فليذهب هو وماله إلى الجحيم.

بالرغم من كل شيء إلا أن سعادته كانت تزداد. أحس حاتم بنظرة السعادة على وجهه والتي لا تتناسب مع ما أخبره به للتو، صمت قليلا ثم بدأ

يضحك ضحكا هيسيريا صاتما وقال بعجرفة وتحد: هل تنتظر أنت تأخذ تلك المعلومات وتذهب بها إلى الشرطة؟! إذا كنت تنوي اللجوء إليهم لماذا لم تفعل قبل أن تأتي إلي! أنت مسكين.. مسكين حقا.

أنهى كلامه وترك علي يهيم في سواد أفكاره.. يغرق في بحر عرقه.. يبحث عن سفينة تخرجه من هذا الموقف.. أو حتى قشة!

لم يتمالك نفسه فزفر بعنف واحمر وجهه بشدة حتى أصبح كلون الدم

لم يكن هذا ما يضايقه.. ليته يستطيع أن يخبره بثقة أنه سيفعل ويخبر الشرطة بكل شيء، لكن للأسف لقد حاول مؤمن قبالا وقوبل برفض من رؤسائه شديد للتحقيق في تلك القضية، لكنه وقتها لم يكن يملك تلك المعلومات. إذا لماذا يبدو حاتم واثقا إلى تلك الدرجة!

هو إما غبي لتلك الدرجة أو أنه واثق بشدة من قدرته على الخروج من هذا الوضع دون أذى. حاتم به العديد من الصفات.. الغباء ليس منها.

كان يراقب تعبيرات وجهه الشارد، ابتسم نصف ابتسامة ساخرة واستطرد: هه، لا تخبرني، لقد حاولت قبلا ورفضوا.

كان يقهقه ويهتز جسده والكرسي القابع أسفل منه.

هل يعلم كل شيء هكذا؟ من هو؟ عفريت؟!

-لما لا تدعني أفاجئك بما أستطيع فعله. لا تتحد إنسانا ليس لديه شيء يخسره.

قالها بثقة لا متناهية وهو يضرب المنضدة المقابلة له بيده ويضع قدما على قدم. "الورقة الأخيرة" كما أخبره مؤمن، المهم ليس الكلام المهم الثقة، لا مانع أن تكذب طالما لا يمكن التأكد من كلامك، أكذب بثقة.. كذبك يزيدهم توترا وحيرة.. يجعلك أكثر ثقة. ألقى المقامر آخر أوراقه سعيا لكسب السيطرة.

نظر إلى ساعته مرة أخرى، ثم عاد يحدق إلى علي ويقول: لما لا تدعني أفاجئك أنا!

عاد التوتر يضرب جسده من جديد وأنزل قدمه إلى الأرض. عليك اللعنة يا مؤمن، كل مرة أستمتع إلى نصيحتك فيها تنقلب عليّ. كان هذا جل ما كان يفكر فيه علي حين قال حاتم بغلو وتفاجر وهو يلوح بيديه في الهواء متلذذا بالسسم الذي سينفثه:

-ستكون أنت أول من ينال شرف معرفة هذا الخبر. أنا مرشح لأكون وزير الصحة الجديد. دعني أفاجئك أكثر، أنا المرشح الوحيد.

ضحكات شريرة متتابعة خرجت من فمه بعد جملته الأخيرة. يجب عندما تتحطم نظرة الناس المتفائلة.. أمام صخرة الواقع.

لم يدر ماذا يقول أو فيما يفكر. للحظات توقف عقله عن التفكير تماماً، انفصل عن العالم.. بدأ مشهد استيقاظه في القبر يتكرر في ذاكرته مرارا وتكرارا.. شعر بضيق النفس مرة أخرى.. لم يكن نفسه وحده ضاق.. الأرض بها رحبت ضاقت عليه.

ألم يكفه نفوذا؟! ألم يكفه مالا وشهرة?!

كان مجرد رجل أعمال ومالك مستشفى ومع ذلك لم يستطيعوا أن يوقعوا به. الآن! أصبح يمتلك حصانة أكثر من ذي قبل.

سيخرج ما في جعبته، لن يعود خالي الوثاق، ملمم شتات نفسه وشحد أنفاسه قال وهو يشعر أن الكلمات تخرج من أوصاله لا فمه:

-وماذا ستفعل بعدها؟ ستقنن تجارة الأعضاء؟! أم هل ستمنعها؟ بأي وجه تمنعهم وأنت زعيم العصاة! لقد نلت هذا المنصب عن غير وجه حق وأنت تعلم.

رجل فقد الشجاعة.. يتخل عن نصف آمانياته.. وهو ليس مستعدا للهزيمة بعد.

لم يعد خائفا مما سيفعله حاتم. حتى لو أخرج مسدسا وصوبه نحوه الآن، لن يموت قبل أن ينطق ما في صدره. استأنف بحقن يقول: سأشوه صورتك سأقدم فيك شكوى، لن أدعك وشأنك.. في الشباك التي حفرتها لي.. ستنزلق قدمك.

انتظر حاتم حتى خمد هذا البركان.. يعرف كيف يحفظ مجهوده لا يضيع الكثير من الوقت في ترهات لا فائدة منها. بجمود شديد قال وهو يهتد ملابسه: أفعل ما تريد. هات ما

عندك. هل أخبرك شيئاً آخر؟ لسنا فقط نأخذ الأعضاء من الأموات فحسب، نحن نشترىها أيضاً. ليس بالمعنى الحرفي

للشراء لكن تستطيع أن تقول أننا نسدد ديون أشخاص فقراء بمقابل.. بالطبع

تتم الفحوصات والإجراءات قبل أي شيء.. عنواننا هو "لا يهمكم كم هو قدر العمل.. أفعله بشكل جيد". كما ترى أيضاً نحن نساعد الفقراء ونسدد ديونهم.

تبع كلامه بنظرية استهزاء كمن يعلم أنه يقول كذبا لكنه يقوله فقط ليغيب من أمامه، ألم يكن مرعوباً منه ويتوسله منذ قليل؟ ماذا حدث؟

استطرد حاتم في جفاء: أراك لاحقاً. عندي حفلة يحضر فيها رئيس الوزراء الآن، لا يجب أن أتأخر. أرجو أن تفيدك تلك المعلومات.

قالها ساخراً مستهزئاً في ثقة غير عادية، ثم عاد يقول وهو ينهض من كرسيه:

لكن نظراً لما مررت به سأخبرك شيئاً أخيراً عليك تستفيد. البخل في التعامل مع كل لحظة.. الطمع في الفوز بكل شيء تحرث لقاءها انتصارات متتالية وتدفع ثمنها أعصاباً محترقة.. لا تُصنع الأساطير براحة النفس.. بل كراهية الفشل. لا يهم كيف.. المهم إلى أين وصلت. أساطير؟ أيعيد نفسه أسطورة حقاً؟

من يعتقد أن الخطأ الذي يفعله صواب هو أسوء الناس.. والأسوء منه من يعتقد أن كل ما يفعله صواب وما دونه خطأ.. هذا هو حاتم.



كأن نارا أمسكت بقلبه وهو يرى فيه هذا الجمود واللامبالاة والكبر هو ذا يستعد للنهوض والمغادرة وتركه صريعا! بعدما دق بخنجره المسموم كل خلية من خلاياه.. ثم أحرق ما بقي منه.

بلا مشاعر لتلك الدرجة!.. الحيوانات تحس تتألم تتعاطف، ماذا يكون هو؟! إنسان. لا كائن آخر بتلك القسوة وذاك التجبر.

تحرك حاتم من مكانه واتجه نحو الباب مغادرا، لم يكن على استعداد للمزيد من النقاش، هو لا يتهرب منه، هو فقط يحتقره، يعامله كالجثث التي ينكل بها.

انتفض من مكانه وأمسك معصمه بقوة، دفعه حاتم بعيدا ونظر إليه شزرا.

كانت أنفاسه تخرج من أنفه كالجحيم. لم يدر ماذا يفعل. لو قتله الآن هنا لكان هذا الصواب كل الصواب.. لن يفعلها.. ليس لأنها خاطئة.. لأنه جبان.

لا إراديا وجد الحروف تخرج من فمه وسأل: ماذا ستفعل بأحد؟

رد باقتضاب: أعلم أنه توسل أن تسامحه، وأقسم أنه مظلوم وأنه ضحية. لكن دعني أخبرك.. لقد نال ما يستحقه. الأفضل أن تهتم بشئونك. فكر بعرضي مرة أخرى..

استدار متجها نحو الباب متجاهلا وجود شخص غريب في مكتبه، غير عابئ بما يمكنه فعله.

التفت علي كالمجنون والتقط بروازا خشيا أنيقا يحمل بداخله صورة ل"أمل" زوجة
د. حاتم المتوفية، ثم بكل عنف ألقاه تجاه حوض الأسماك فتحطم وتطاير الزجاج في أرجاء
المكتب.

نظر حاتم بطرف عينيه دون أن يلتفت ثم رمش برفق وانصرف.

المذنبون جميعهم يتوبون.. تختلف طرقهم في التوبة لكنهم يفعلون.

المشكلة الأكبر عندما لا يدري أنه مذنب.. قد يفعل أي شئ في سبيل فكرته الخاطئة..
يقتل يسرق يبيد شعوبا يتاجر بالأعضاء أو أسوء.. يكسر قلوبا.

لا يمكنك هدم فكرة بقتل صاحبها.. لأنه قد رسخها في عقول آخرين.

الحل أن يسعى أحد لتصحيحها. لكن في هذا الموقف لا مجال للتصحيح، لا مجال لأن
يدرك حاتم ومن على شاكلته أنهم على خطأ، لقد فجروا.. فتجبروا في الفجر. الانتقام
أفضل وسيلة.

لا يتأتى المجد بلا مخاطرة.. والمخاطرة تستلزم تضحيات..

على منضدة الطعام جلست عطيات وإلى جوارها ولدها يتناولان طعام الإفطار. تكاد تطير من السعادة لتجمعهما معا على ذات الطاولة مجددا.

في بداية عودته كانت تشعر أن به شيئا غير معتاد، كانت تدرك أنه ليس بخير، كان هذا يجعل هناك غصة في صوتها أثناء حديثها معه، كان يتعبه أن يسمع صوتها منكسرا، أو يراها حزينة حتى وإن كان سبب حزنها.. هو حزنه.

من وقتها وهو يحاول أن يخمد بركان الغضب والحزن المشتعل بداخله.

كان يضحك ضحكا زائفا مجاملة لها، قد يضحك أحيانا بصدق، لكن ما يتلوها من تفكير يهلك عقله وروحه.. روحه التي أثقلت بدموع غسلت وجهه مرات ومرات، يبكي بصوت خافت جدا في الليل الحزين.. خشية أن تلاحظ عطيات تغيرا فيه أو نبرة حزن على وجهه.

بالرغم من أنها كانت سببا من أسباب تعاسته، حتى وإن كان بغير قصد، إلا أنه لم يكن يتحمل أن يراها باكية أو حتى حزينة. عانت بما فيه الكفاية طوال عمرها.

رغم ما بها من جراح وحزن لكنها كانت دائما تواسيه.

لا يرمم كسيرا إلا كسير مثله.

الألم أكثر من أن يتحملة قلب شخص بمفرده.. نحتاج من يحمله معنا.. ولو بقدر بسيط.

مر يومان منذ التقى حاتم في مكتبه. لم تزر الراحة جسده من حينها.. امتد السواد أسفل عينيه حتى كاد يغطي سائر وجهه.

كان من المفترض أن يتقابل هو ومؤمن بعد انتهاء حديثه مع حاتم مباشرة، لكن بأي وجه يقابله؟! أخبره أنه عاد بخُفي حُنين؟! ليتَه فعل.. بل عاد بأخبار هي أشد كآبة من كل ما سمعه قبلا.

تحجج أكثر من مرة بغرض تأجيل المقابلة بينهما، كان مؤمن متفاهما خصوصا عندما أخبره أن لم ينس التسجيل، لكنه لم يخبره أنه لم يعد ذا فائدة.

صباح اليوم اتصل به مؤمن وأخبره أنها يجب أن يلتقيا، لا يمكنه الانتظار أكثر من ذلك، ليس بسبب فضوله لمعرفة ما حدث فقط، لكن أخبره أنه يملك أخبارا لا تقل أهمية عن التي يملكها هو.

لم يعد هناك داع للمماطلة أكثر من ذلك، وافق علي على أن يتقابلا بعد أن ينتهي مؤمن من عمله لكنه رفض وأخبره أن الأمر لا يحتمل التأخر، سيتقابلا الواحدة ظهرا في مكان بعيد عن منزليهما.

لم يجد عذرا ليؤخر الموعد أكثر من ذلك؛ فوافق..

قبل الموعد بأكثر من ساعة وجده يتصل به مجددا، يخبره أنه يريد أن يقابله في وقتها فالأمر لا يحتمل التأخير. تركه هذا الاتصال حائرا محدثا نفسه: أيعتقد مؤمن أنه يملك أخبارا قد تكون أسوأ مما أملك!

أحمق. ما سأخبره به سيكون ضربة قاضية له، ما أملكه قد وصل إلى أقصى حدود
"الصدام".. وتخطاه بقليل، لن يدري من أين أتته الضربة!

تهرب من عطيات -التي أصبحت تخاف عليه الآن أكثر من ذي قبل - بصعوبة شديدة،
اتجه إلى المكان المتفق عليه بينهما في الميعاد. وجده ينتظره هناك.

لم يعطه فرصة لإلقاء السلام، طلب منه الجلوس ثم بعمق صوته المعهود قال بلهجة عملية
جافة:

-لقد نقلوني صباح اليوم إلى العريش، سأنتقل للعيش إلى هناك مع مشيرة وياسين.

صمت علي صمتا مطبقا وقطب بين حاجبيه، عاد قلبه للنفض بسرعة شديدة مرة أخرى،
بالرغم من أنه منذ ما دار بينه وبين د. حاتم أصبح يتناول دوائا مثبطا للجهاز
"السيمبثاوي" على القلب مما يؤدي إلى عدم تسارع نبضات القلب بشدة عند الاستشارة،
وبالرغم من ذلك شعر بدقات قلبه الواهن المتسارعة.

هذا الخبر.. وصل إلى أقصى حدود الصدام وتخطاها.. بكثير!

لم يدرك هو من أين أتته الصدمة! كان ينتظر لقاءه بمؤمن حتى يجد حلا لتلك المشكلة كما
يفعل دوما.

كان الهدوء على وجهه غريبا، هل يمتلك خطة؟ أم أشهر رأيه البيضاء!

تابع مؤمن بذات الهدوء قائلا: تم إخباري بهذا الأمر مباشرة قبل إخبارك برغبتي في
الحديث معك. كان القرار صادرا من جهات عليا لا يمكن رفضه.

توقف عن الكلام قليلا وقد انقشع عنه هدوءه الذي فييا يبدو أنه كان يستमित ليتصنعه وحل محله الغضب، وضع قبضة يده اليمنى أمام فمه، ويكاد يجزم علي أنه سمع صوته يكر على أسنانه.

لم يعقب علي بحرف واحد واكتفى بتعابير وجهه. تعابير لم يشعر بها ولم يدر كيف تبدو.. لم يشعر بشيء.. كان تائها محاولا استيعاب ما سمع.

استأنف مؤمن قائلا بحزن جلي: أخبرت مشيرة بالأمر، لم تبد سعيدة، لكنني تصنعت السعادة وأخبرت أنها مكان قليل الزحام وأنها فترة صغيرة ثم يعودون إلى القاهرة مرة أخرى؛ فنقبلت الأمر قليلا، كانت متجهة لتخبرك وعطيات بالأمر؛ لذا طلبت مقابلتك مبكرا قبل أن تصل هي وتخبرك بالأمر.

لم يزد علي عن سؤاله عن ميعاد انتقاله والذي أجابه أنه بعد يومين، هذا قرار نقل سريع لا يمكنه التأخر عنه.

كأن الوضع كان يتحمل المزيد!

أذهب كل ما فعلاه سدى؟

أصبح يخشى أن يسأل، كل سؤال تكون إجابته صادمة أكثر من الذي قبله، لا يعلم إلى أين سيصل إذا واصل بهذا المعدل.. سيهبط تتين مخنح!.. هذا ما ينقصه.

لم يمهل أن يسأل عن سر هدوءه هذا إذ أشار إليه بيده بسرعة وطلب منه أن يخبره تقريراً عما دار بينه وبين حاتم.

أخبره كل شيء بالتفصيل. لا يمكن أن يغفل حرفاً.. كيف يفعل وهو ما فعل طوال اليومين الماضيين سوى أنه استعاد هذا الحوار مراراً وتكراراً!

أثني مؤمن على تصرفه في البداية وكيفية إدارته للحديث، ثم توقف عن الكلام عندما وصل إلى الوقت الذي أخبره فيه أن د. حاتم هو المرشح الوحيد لأن يكون وزيراً للصحة فقال بحنكة: إذا الشائعات كانت صحيحة.

سأله علي لماذا لم يخبره بأمر كهذا قبل أن يلتقي به إذا كان يعلمه؟ حتى إذا كانت شائعات كان ينبغي ألا يتركه يتلقى تلك الصدمة وحده.

ضم أصابعه إلى بعضها وأشار إليه أن يكف عن الأسئلة حتى ينتهي من سرد الحوار.

كان علي يتململ ويتأفف طوال فترة الاستماع إلى الحوار فقد سمعه أكثر من مرة قبلاً، بالإضافة إلى أنه كان ينتظر إجابة عن سؤال يهمه أن يعرفه.

انتهى علي من الحديث فقال مؤمن بجفاء بصوت عادي: لم أسمع بتلك الشائعات سوى بالأمس، كما أنني لو كنت أعلم لما أخبرتك، لم أكن أريدك أن تصبح متوتراً.

كان ينتظر علي منه أن يعقب على الحوار، يويخه، يسب حاتم، أو أي شيء آخر، لكنه لم يفعل. يبدو أنه كان قد حسم مجرى سير اللقاء قبل أن يأتي، وضع في ذهنه تصوراً لما سيكون شكل الحوار، ولا يريد أن يخالفها.. مهما كان حزينا أو متفاجئاً.. هي نفس التعبيرات.. جهز في عقله كلمات.. سيطلقها مهما قال أو فعل علي.

اعتدل في جلسته وبنبرة حزينة مؤثرة قال: سأكون صريحاً معك.

يعلم علي أن هذه الجملة يتبعها أسوء خبر يمكن ان يسمعه المرء، إنها تشبه ان يقول لك أحد في بادئ الحديث "مع احترامي لك" تعلم بعدها أنه سيمسح بكرامتك بلاط الأرضية.

لكنه لم يحزن عندما قالها مؤمن، بالعكس، كان متشوقا.. متشوقا ليعرف ماذا يمكن أن يكون أسوء مما هو فيه، كان شعورا غريبا.. لكن بكل تأكيد أفضل من الخوف! كان يستمتع بإنصات لما سيقوله له مؤمن.

- "لا تبدأ شيئا لاتنوي أن تنهيه.. وإذا فعلت اختر أقل الطرفين ضررا"

هذه قضية صعبة، وازدادت صعوبة وتعقيدا بما حدث في الآونة الأخيرة.

كنت أود أن أخبرك أنني سأستقيل وأحقق معك في القضية حتى نصل إلى جميع المشتركين فيها ونقبض عليهم.. كنت أتمنى أن تكون لي تلك النظرة الوردية للحياة، لكن للأسف إنها الحياة الواقعية، هي ليست فيلما حيث يظل البطل يبحث عن مراده وفي النهاية يحققه ويتزوج من البطلة ويخيم الظلام مع إضاءة خفيفة عليها وهما يتبادلان القبل والنظرات في سعادة، لا يا عزيزي، هذه الحياة الحقيقية، هناك مسؤوليات وزوجة وأبناء.

من برأيك سيدفع الإيجار أو يجلب الطعام إذا انقطعت عن العمل!

وحتى لا يكون في صدري شيء أريد أيضا أن أخبرك أنه لا توجد ضمانات

أن نحققنا سيفلح، كان يملك سلطة المال سابقا ولم يستطع أحد الإيقاع به،

الآن يمتلك المال والقانون.. أجل، أصبح جزءا من القانون لا ينطبق عليه ما ينطبق على العامة. خلال خبرتي في مجال الشرطة اكتشفت أنه ليس دائما ما يفوز الطيبون كما تصوره لنا الأفلام، كثيرون ما يفلتون. آسف أني صدمتك لكنها الحقيقة.

لست أحاول إحاطك أو تثبيط عزيمتك، كل ما في الأمر أنني أعرض لك الصورة الأكبر.. ما لا تراه من داخل قوقعتك.

ليس معنى هذا أنني أنسحب كلية من القضية، لا. لكن للأمانة سيكون دوري ضعيفا خصوصا مع بعد المسافة هذا. عندما نواجه أشياء نعجز عنها أحيانا يجب علينا فقط أن نتوقف عن المحاولة، لست أعني للأبد، لكن فترة وجيزة، حتى نستعيد قوتنا. هم حتما سيخطئون لا مجال للشك، لا يجب علينا أن نتعجل، يجب أن ننحي عواطفنا جانبا.

عواطفنا! ليست تلك هي ذاتها القضية التي قال أنها أهم القضايا التي

اشترك به في حياته؟! ألم يقل أن ما يفعلونه الصواب وأن هم سيكونون

أبطال لاكتشافهم تلك العصابة.. ليست رغبتهم في الشهرة هي الدافع لكنه الأمل في حياة يُعاقب فيها المجرمون؟ حياة آمنة! نصره الحق.. مع قليل من رغبة الانتقام!

ألم يقل ذلك!.. أم لم يكن يعنيه؟!

كان يشير بيديه كثيرا على غير المعتاد وبدا مرتبكا، كانت هذه الكلمات بالتأكيد لا ترضي عقله أو ضميره، قالها فقط ليهدئ من روعه كما فعل مع زوجته سابقا.

خُلِقَ السحاب وطموح مؤمن من نفس الرحم، لم يعتد علي أن يراه خانعا إلى تلك الدرجة، لقد بلغ الحد ففاض.. حتى سلم.

هز رأسه موافقا وتصنع الرضا. مؤمن بكيفية ما هو فيه، لقد أؤذي في عمله وسيبتعد عن أهله دون أي تقدم يذكر في تلك القضية أو حتى بارقة أمل.

ماذا عن المعلومات التي جمعها من أحمد وحاتم؟

"بلها واشرب مائها" ..

هذا صحيح. هي غير ذات فائدة

لن تؤتي هذه المعلومات ثمارها أبدا.. راضي ومن معه سيطعنون في صحتها.. ومعهم الدليل قبل حتى أن يبلغ الشرطة بها.. لديهم في كل مكان يد.. لقد استطاع أن يمحو آثار جرائم د. حاتم ومن معه تماما، حتى أخطائهم البسيطة استطاع محوها - بطريقة ما - من سجلات الدولة.. سيزورون.. يحرقون.. يشوهون كل من يقف في طريقهم.

أنت في ملعبهم في تلك الحالة ..

كان أمله الوحيد أن يكمل معه مؤمن هذا التحقيق حتى الوصول إلى دليل ملموس.. قد راح هذا الأمل.

لم يرد أن يزد من ألم صديقه. أخبره أنه يوافق الرأي تماما وأنهم بحاجة لاستراحة؛ فقد تعبوا كثيرا مؤخرا. أخبره أيضا أنه ربما ينسى أمر تلك القضية من الأساس ويترك الأمر للقدر!

بدا عليه التصديق أو على الأقل تصنعه.

ربما هذا هو ما فعلته مشيرة معه تماما حينها حاول إخبارها أن من الأفضل الانتقال إلى العريش، رغم علمها أنه ليس الأفضل.

ربما كان مؤمن -الذي ظن أن خطته نجحت في المرتين- هو المغفل الوحيد!

كان يستحق.. الشعور بالرضا.

سيعود علي الآن إلى منزله محبط حزين فاقدا للأمل ينتظر أن تحبره مشيرة بخبر انتقالها
للعریش ومجبرا أن يتظاهر بالدهشة.. مجددا.

"لا يمكن أن تغرز سكيننا في جسد شاه ثم تقول الآن سأأزع سكينني رويدا رويدا، فلنجعل الأمور تمضي بسهولة نظيفة، دون اتساخ، دائما سيكون هناك دم"

-ياجسي

ثلاثة أشهر انقضت منذ رحيل مؤمن وزوجته وياسين، لم يذق فيها للنوم طعماً، لم يغمض له جفن؛ لأنه عندما ينام.. يحلم.. يحلم بكوايبس كالتي يراها منذ خروجه من المقبرة.. لكن تلك المرة دائماً ماتنتهي بوجه د. حاتم، كثيراً ما رأي مؤمن مقتولا أو يتم تعذيبه في كوابيسه.

يبدو أن عقله الباطن يأبى التوقف عن التفكير في الشخص الذي حول حياته نارا موقدة، وسيرها رامدا تعبت به شكوك اليأس وأعاصير الحزن والكآبة. ربما يعتقد الناس أن أكثر ما يؤلم الإنسان هو الحزن، بعد الذي رآه فهو يعتقد أنهم مخطئون؛ فالحزن يقتل المرء يحوله شبعا، لا يصبح إنسانا حينها. ليس يقصد الحزن العابر بل الحزن المضمني الطويل، والليالي التي لا تنجلي، وصرخة الدم في العروق.. أما من زوال لهذا الألم! أرحني.. أرحني!

بدأت الأخبار تتواتر ويعرف الناس أنه على قيد الحياة. لم يعد من داع لإخفاء الأمر أكثر.

تفاوتت ردات فعلهم. كان من المثير رؤية ردة فعلهم على هذا الخبر. قد تبدو للبسطاء قصة خرافية أو مستحيلة.. لكنها - رغماً عن أنوفهم - هي

هي أظف من مئة فيلم رعب.. بل أكثر..

لم تنزل أختها وزوجها سوى مرة وحيدة إجازة طوال تلك المدة.

هي حبل، تنتظر مولودتها الجديدة بفارغ الصبر، تماما كما تتمنى انتهاء

تكليف زوجها بعيدا عن عائلتيهما.

قلّ حديث مؤمن عن الأمر كثيرا أصبح يتابع الأمور بروتينية شديدة،

أصبح حاتم وزير الصحة بالفعل منذ شهرين، لم يفعل أي شيء مثير للريبة

لم يأخذ أي قرارات حاسمة.. أو ذات نفع.. كالمعتاد!

حاول علي الاتصال بـ "نادر الدرندي" أكثر من مرة لكن هاتفه كان مغلقا.

لم يمتلك الشجاعة ليذهب إلى منزله قط، يعلم ما حدث....

يوم عن يوم كان يبدو أن الأمر أصبح أشبه بالمستحيل.. سيسقط حقه

بالتخاذل لا محالة.

فقد آخر ذرة أمل...

آده جلوسه مع والدته عاطلا عن العمل، تنفق عليه من معاش والده،

أصبحت الأمور أصعب، لن يمكنها تحمل نفقاتها أكثر من هذا.

يجب عليه ان يجد عملا.

-الرسالة-

" هل تعتقد أنني بخير وأن الظلام بداخلي حل بمفرده! تعثرتُ ثلاث مئة ألف مرة.. واصطدمت بعشرات الحوائط.. وسقطت في مئات الحفر.. طعنت كثيراً.. لم يعد بي موضع دون أن تكون به ندبة أو علامة غدر وخيانة.. وتظن أنني لازلت بخير! للأسف يبدو أن النار اشتعلت على نقاء وطيبة قلبي.. كانت طيبتني ناري كانت عاطفتي وقودي.. أشعلتني حتى دون أن أدري.

كيف يخلص لي بعد كل هذا سعادة! أو يستقيم لي وقوف في محراب؟! ماذا تفعل تلك السكينة المرجوة وهي لا تجد إلى روحي سبيلاً وسط كل هذا الزحام!؟

كان هذا الربيع أكثر الفصول تطرفاً.. كان ربيع الناس خريفي.

ابتعدتُ عن حقول الحديث بكل خضرتها.. واتجهت صوب بيداء الصمت.. تماوجت في دفقات البوح.. هبت رياح الزجر.. فرمت بذور الكلام بأرض جدباء.. كقلبي.

سرق مني عمري وعمر من حولي.. ضاق صدري.. أحرقتة دون نيكوتين.

عبثاً أحاول ونجاحي فشل.. من فشل.. إلى فشل.. إلى فشل!

لا أدري هل هذا بسبب خطأ اقترفته؟! أم كنت أنا الخطأ.

عالمنا دوماً ممتلئ بالظلام لأي شيء قد يظهر به مجرد بريق.. كنت في الحقيقة أحتاج شخص
إن فشل أن ينير عتمة قلبي ينطفئ عي.. لكن برغم كثرة الجمع حولي كنت وحيداً.

لم يذق احداً ما ذقت.. لم يشعر بي أحد.

يذهبون إلى مضاجعهم ينامون.. وأبقى وحيداً مع ذكريات حفرت في ذاكرتي ونقشت علي
جدران قلبي.. ذكريات تجتر معها أحزانا لا يذهب غصتها إلا دمعات تطفئ حرارتها..
قليلاً.

لم أعد أخشى شيئاً، جفت مشاعري ونضب إحساسي، استوى عندي الخير والشر.. كلا
الجانين سواء.

اختبرت الموت والحياة فوجدت الموت أصدق أنقى أكثر سكينه وأماناً، لا راحة لي في هذا
العالم.. ربما في العالم الآخر.

وحدهم الأحياء يموتون، ولم أعد واثقاً أنني كذلك...

سأذهب للنور الذي كنت أراه من بعيد في أحلامي ولم أعرف لحاقه من قبل.. هذا النور
يناديني الآن.. يدعوني إليه.

في الماضي في انجلترا كانوا يدفعون بقشيشاً للجلاد ليقطع الرأس بضربة واحدة.. ليتني
أيضاً أستطيع أن أدفع بقشيشاً.. للقدر!

رباه.. فلتكن النهاية سريعة. لقد اقتربت أشعر بها.

ماذا عنهم؟ هم؟! لست أدري لكنني واثق من أن الأيام ستدور.. وتسحق أرواحهم بين
رحي آثامهم.

أبعد كل ما مر هناك سبيل للعودة؟ لا. أُحرقت سفن العودة.

غدا أموت غدا أموت.. سأنتحر....."

علي رشاد



"الرحمة ليست مصطنعة إنها تسقط من السماء كالمطر"

_ شكيبير



كانت مستلقية على السرير حينها وضع برفق يده على بطنها التي تضاعف حجمها عدة مرات في الشهور الأخيرة.

قد تكون ليست الأجل الأذكي الأغنى الأفضل.. هي ليست مميزة في شيء.. حتى بمعايره هو.. لا يحبها لأنها تكمله أو لأنه يعتقد أنها نصفه الآخر وشريكة روحه التي ساقها له القدر بمعجزة سحرية كما تصور الأفلام الرومانسية للناس.. يحبها لأنها هي..

هو حب غير مشروط.. غير مقيد بشيء.. وإلا لكان تجارة!

لو استطاع أن يصفها بشيء لقال "هي من لو لم تستطع أن تُضيء عتمة قلبي تنطفأ معي.."

هي رصاصة الرحمة التي قتلت كل ما يؤذيه وانتهى معها حزنه.. أو على الأقل انتهى شعوره به.. ربما لم ينته تماما لكنه أصبح أقل بكثير.. أو ربما أقل بقليل!

هي النار الباردة.. هي الحاسة التاسعة.. هي لقلبه الأمان.. هي ما ليس له وصف!

الطريق إلى قلب رجل ليس الطعام فقط.. حسنا، إنه مهم وهناك بيوت تبنى عليه أخرى تهدم بسببه.. لكن تلك التي تبنى عليه لا تدوم. لكن الطريق الرئيسي دائما هو الأمان.. أن يشعر معها الرجل بالأمان.. ليس أمان جسدي أو مادي كالذي يوفره لها الرجل (غالبا) لكنه أمان معنوي.. أمان وجودي.. أمان يشعر أنك حي.. هناك من يشعر بك.. هناك من -على الأقل كما تظن- يجبك!

شعر بركة خفيفة. كانت تلك أسعد لحظات حياته، كاد يطير من السعادة.

كيف يمكن لشئ صغير هكذا أن يمتلك كل هذا التأثير وتلك الطاقة! بل كيف يخرج منه كائن ينبض بالحياة وملئة بالحياة هكذا!

إنها معجزة الحياة.. يخرج من أشلاء رجل محطم.. جوهرة تفيض بالأمل والطاقة والنشاط..

ربت "سنية" على رأسه برفق ثم دعتة أن يستلقي بجوارها لكنه لم يلق لها بالا؛ فقد كان في عالم آخر، في ملكوت من السعادة والراحة.

لم يره بعينه بعد، يكذب لو قال أنه لم يرها بباقي حواسه.

العين ترى، وكذا حال كل أعضاء الإنسان، فقط تحتاج من المرء أن يحب بشدة.. حتى يستطيع رؤية محبوبه بكل حواسه.

من روعة عينيه الحسنى قد أثيرق نور في السدر..

هو نثهد لم ينثبه إلا يوسف في الحسن مع البدر.

دائما ما كان يراه في أحلامه ويتخيله، كان ينظم في حبه شعرا ويهيم في جماله عشقا قبل حتى أن يرى بعينه منه خصلة شعر واحدة.. لكنه أحس به.. رآه بقلبه.

وضعت يديها فوق يديه برفق ثم نظرت إلى عينيه الرماديتين التي أصابها شعاع الشمس المنسل من الشباك فوق سريرهما فجعلتهما أروع من الفضة وأغلى من الذهب، ثم قالت بحنو وهدهوء: هل استقرت على ماذا تسميه؟

"لَقِيتُ رَجُلًا قَادِمًا مِنْ بِلَادِ عَتِيقَةٍ
 قَالَ لِي: ثَمَّةُ سَاقَانِ حَبْرِيَّتَانِ عِمْلَاقَتَانِ لَمْ يَجِدَا مَوْقِعَهُمَا
 تَنْتَصِبَانِ فِي الصَّحْرَاءِ. وَقَرَّبَهُمَا وَجْهَ مُهَيَّئَتَيْنِ
 نِصْفُهُ غَارِقٌ فِي الرَّمَالِ، تَدُلُّ نَظَرَتُهُ
 وَالتَّوَأُّ شَفَقَتَهُ وَتَغْبِيرُ السَّيْطَرَةِ الْبَارِدَةِ الْبَادِيَةِ عَلَيْهِ
 أَنَّ النَّحَّاتِ أَجَادَ إِدْرَاكَ كُنْهِ تِلْكَ الْمَشَاعِرِ
 الَّتِي مَا تَزَالُ بَاقِيَةً، مَطْبُوعَةٌ عَلَى هَذَا الْجَمَادِ،
 الْيَدُ الَّتِي سَخِرَتْ مِنْهَا وَالْقَلْبُ الَّذِي رَعَاهَا.
 وَعَلَى الْقَاعِدَةِ تَظْهَرُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ:
 "اسْمِي أَوْزِيمَانْدِيَّاسُ، مَلِكُ الْمُلُوكِ:
 أَنْظِرْ إِلَى مُنْجَزَاتِي، أَيُّهَا الْجَبَّارُ، وَابْتَدِئْ!"
 وَلَا شَيْءَ بَاقٍ بِجَانِبِهِ. وَحَوْلَ خَرَابِ
 ذَاكَ الْحُطَامِ الْهَائِلِ، عَارِيَةٌ وَبِلَا حَدُودٍ"

- عالم يروى -

ربما تتعجب الآن من كيفية معرفتي بكل هذا، وكيف عرفت كل تلك التفاصيل.. كل حركة كل إحساس؟

دعني في البداية أعرفك بنفسِي، اسمي "ماهر ماهر أحمد الدسوقي"

أعمل كطبيب نفسي، حصلت على البكالوريوس من جامعة عين شمس بدرجة امتياز، ثم حصلت على الدكتوراة من كندا، أقيم في مصر وتحديدًا القاهرة (لا يهمك معرفة تحديد أدق من ذلك)، أمتلك عيادة خاصة للطب النفسي (بدييات).

بدأت الحكاية منذ عشر سنوات عندما دخل علي العيادة شاب طويل هزيل قمحي اللون عيناه رماديتان مائلتان للسواد، تحتها هالتان قد اشتد سوادهما.

أنا أعلم مريضٍ حينما أراه، كان أول ما فكرت فيه أنه مصاب باكتئاب شديد، لم أكن مخطئًا لكن الأمر كان أكثر من ذلك بكثير.

أخبرني أنه طبيب وأنه أقبل على الانتحار بالفعل لكن شيئًا جعله يعيد تفكيره في الأمر، أراد إعطاء الحياة فرصة أخرى.

تلك هي إحدى أصعب الأوقات التي نقابلها في مهنتنا تلك، أي خطأ تفعله قد يؤدي بحياة شخص. يكون الأشخاص في تلك الحالات هشين بدرجة رهيبية. أي شيء يؤثر فيهم، ولا يعرف أحد بالتحديد كيف سيؤثر!

سألته باهتمام عن السبب الذي حال بينه وبين مخططة، أخبرني أنه بينما يجhez جوب الدواء التي سيتحر بها إذا بصوت الهاتف يرن بلا انقطاع، كان يريد أن يقضي ما تبقى له من دقائق في هدوء. لم يرد ما يعكر صفو خطته؛ لذا أجاب على الهاتف ليسكت المتصل.

توقف بعدها عن الكلام قليلا مما منحني فرصة لأفكر وأحلل الأمر.. هو لم يكن يريد أن يموت، كان هناك ما يربطه بعد، موضوع رده على الهاتف كانت حيلة من عقله ليماطل.

لو لم يرن الهاتف لاخترع ألف سبب آخر لئلا ينتحر.

أشرت إليه بيدي وطلبت منه أن يخبرني مزيدا من التفاصيل عن ما حدث بعد ذلك، أجاب بصوت هادئ عميق: كان عم سعيد النحاس، كان يتصل ليطمئن عليّ، أخبرني أنه حاول الاتصال بي من قبل كثيرا لكنه لم يجد رقم الهاتف بسهولة. كان الحوار عاديا جدا كما حال معظم حواراتي مع الناس مؤخرا، أتصنع الرضا والصحة. فجأة شعرت بشيء غريب، شيء لم أشعر به منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر، شعرت بقلبي يخفق..

كان صوتها، أعاد إلى الذكريات، لم يكن الأمر مناسبا أول مرة التقينا لم تكن الظروف ملائمة، لكن الآن!..! لم لا؟! كان ذاك صوت سنية.

-حدثني عن سنية وعم سعيد أكثر، أخبرني قصتك من البداية، بالتفصيل.

كانت تلك بداية حديثنا الذي دام قرابة العام، معظمها كانت زيارات متقطعة خاصة في آخر الأمر.

كان له سحر خاص، كان له أسلوب سرد مميز لا يخطئه شخص.. كانت له قصة مميزة!

أخبرني كل شيء، بأدق التفاصيل، لم أدر كيف استطاع تذكر كل هذا بدقة حتى أخبرني أنه كان يجب الكتابة ويمتلك مفكرة كان يدون فيها ما يحدث له بالتفصيل.

كان الأمر غريباً عليّ، لم أرى أو أسمع شيئاً كالذي حكاه لي من قبل، خاصة وأن الكلام يشمل شخصيات عامة ذات سلطة مثل د. حاتم السعيد (والذي بالمناسبة ليس اسمه الحقيقي، ستفهم أكثر لاحقاً) وزير الصحة و"راضي منصور" أشهر محامي مصر. في البداية كنت أعتقد أنه مصاب بمتلازمة اضطراب ما بعد الصدمة وأنها سببت له الاكتئاب، لكن للأمانة—وأعترف أنني تسرعت قليلاً—عندما وصل الأمر إلى الجزء الخاص بتجارة الأعضاء وتلك الأشياء الأخرى التي أخبرني بها عما فعله حاتم وأحمد بدأت أشعر أنه يهذي وأن الواقع اختلط بالخيال عنده، بل ظننت أيضاً أنه ربما لم يمر بـ"متلازمة لازاروس" قط من الأساس وأنه قرأ عنها على الانترنت فقط وتولى عقله نسج باقي الحكاية.

أفحمني رده عليّ؛ فقد أحضر لي الرسالة التي أرسلها له د. حاتم، كما أحضر لي مفكرة يومياته وأعطاني الإذن لقراءتها لكنني رفضت حينها، إذ يجب أن يشعر أنني أثق به كي يجيئ العلاج بنتيجة، لكنه أصر على أن يترك تلك الأشياء عندي وأخبرني وهو يكاد يبكي لكن تحجرت دموعه أنه لا يريد أن ير أي شيء يذكره بهذا الموضوع مرة أخرى، واقفت وأخذت الأشياء ووضعتهم في خزانة العيادة.

تسعة أعوام مضت منذ آخر زيارة له، لم أره أو أسمع منه من حينها حتى اتصل بي بعدها بستتين أنه سافر إلى إحدى دول الخليج للعمل هناك. شكرني على مجهودي معه وأخبرني

أنه "بخير". كانت كلمة بسيطة لكنها اسعدتني جدا.. كانت أول مرة أسمعه يقول فيها "أنا بخير" بهذه الطريقة الرائقة.

أغلقت هذا الموضوع ونسيته تماما فبالرغم من أن قصته غير عادية إلا أنه يظل مريضا وأنا طبيبه لا علاقة أخرى تجمعنا كما أن قصته لا يوجد عليها دليل قوي ربما هي مجرد مقتطفات من الحقيقة والباقي أوهام من نسل خياله؛ لذا لم ألق لها بالا.

أتدري كم مرة أخبرني مريض أنه المهدي المنتظر؟! أو أن لهم اتصالا مع الأرواح؟ لو شغلت بالي بكل ما يقولون لن يطول الأمر أكثر من عدة أيام حتى أصير مثلهم.

منذ عدة شهور وبيننا أنا أجمع الأغراض في عيادتي -كي أنتقل إلى مكان آخر- وقعت عيني على المفكرة التي تركها لي، تذكرته.. وتذكرت كل شيء، حركتي الفضول لفتحها، هو أعطاني الإذن مسبقا لقراءتها ولم أجد مانع من قراءتها حينها.

فتحت علي شلالا من الذكريات لم أستطع إغلاقه، كان وصفه دقيق جدا وتعبيراته ووصفه حالته من أروع ما رأيته (أنا طبيب نفسي وأقدر وصف النفس الدقيق أكثر من أي شخص على الكرة الأرضية)، تذكرت كل لقاءاتي وحديثي معه كأنها حدثت اليوم أمس.

لا أنكر أنني بكيت تأثرا تلك المرة؛ فالوضع لم يعد مريض وطبيب بعد وإنما أصبحت أقرأ قصة شخص عانى الأمرين وقاسى من الصعاب مالا يتحمله أحد (ربما أيضا أكون بكيت بسبب أزمة منتصف العمر التي كنت أمر بها، هي تجعل كل شيء قابلا للبكاء عليه. هذا لا ينفي تأثير القصة في نفسي).

كانت كتابته مشوقة جعلتني أريد أن أعرف حقيقة القصة.. ونهايتها.

انتفضت من كرسيّ بعدما انتهيت من قرائتها مباشرة وتوجهت إلى مكتب أحد مرضاي القدم، إنه العقيد "علي رشاد مؤنس سالم" (أجل، هو ذاته اسم الشخص الذي تفكر فيه، ولا، إنها ليست مصادفة)، هو صديق عزيز قبل كل شيء، طلبت منه أن يسدي إلي معروفًا.

طلبت منه أن يتحرى عن عن د. حاتم السعيد (الذي أقيل من وزارة الصحة منذ مدة طويلة) وراضي منصور، طلبت منه أيضًا أن يخبرني ماذا حل بمؤمن السبع.

أخبرني أن الأمر ليس باليسير خصوصًا قضية حاتم السعيد، فهي قضية حساسة جدًا. تعجبت من أنه كانت هناك قضية أصلاً موجهة إليه، أنا لست من محبي السياسة ولا أتابع الأخبار كثيرًا، ولا حتى أخبار وزير الصحة وهي الوزارة التي أعمل بها!

نظرت إليه بوجه حزين وتصنعت الحسرة والضعف أمامه.. هولت الأمر عدة مرات حتى اقتنع في النهاية وأخبرني أنه سيبدل ما بوسعه ليحضر تلك المعلومات، شكرته وانصرفت.

في النهاية يبدو أنني تعلمت شيئًا جديدًا من قصة "علي" خاصة من مشيرة، حينما أرادت أن تعرف مكان زوجها، كان يجب أن أريه الوجه الآخر، في تلك الحالة كان وجه الاستعطاف.

لم يمض يومان حتى وجدت ملفات الثلاثة جميعهم أمام مكثبي. كنت سعيدًا جدًا وأنا أقرأ ما في تلك الملفات حتى أنني أخذت باقي اليوم إجازة من العمل.

بدأت قراءة ملف الدكتور حاتم لأنه أكثر الأشخاص الذين أثاروا دهشتي في الموضوع بأكمله.

وجدت أنه تمت إقالته بعد توليه منصب وزير الصحة بحوالي عام ونصف، لم يكن التغيير اعتياديا أو ضمن تغيير وزارى جذري وإنما كان بسبب بعض الشكوك التي تخوم حوله وأنه يستعمل شركاته كمصدر لغسيل الأموال ويستغل سلطته الوزارية في ذلك.

كان كل ما كتبه علي صحيحا! أصابني التفكير في هذا الأمر بالدوار.. كنت أصدقه في بعض الكلام لكن لم أتخيل قط أن يكون فعلا ضحية عصابة تجار أعضاء!

على الرغم من أنه لم يقبض عليه بتهمة تجارة الأعضاء إلا أن هذا لا ينفي وجودها.

المسكين.. تذكرت أنه أخبرني ذات مرة بالنص "أنا طفل كان في عيني بريق لكن الحياة أطفئته.. وأشعلتني"

نزلت الدموع على خدي مرة أخرى..

آثرت الحكومة السلامة وأجبرته على تقديم استقالته حتى يتم الأمر بسلاسة، بالطبع لم يكتب ذلك في الملف وإنما كتب فقط أنه تقدم باستقالته من تلقاء نفسه وتم قبولها، لكن ليس من المعقول أن يتقدم هو باستقالته من تلقاء نفسه كي يسلط المزيد من الشكوك حوله؛ لذا الأرجح أنه تم إجباره. أقول وهذا رأيي ويحتمل الصواب والخطأ.

كان هذا واجبا بعدما توفيت ابنة وزير الداخلية على طاولة العمليات في أحد مستشفياته.. لم ينفك وزير الداخلية يقوم بالتلميح على فشله وأنه كان السبب. بعدها بثلاثة شهور استقال.

مصادفة؟!

كنت لأقول ذلك لولا أنني أعرف كيف تُدار الأمور هنا.

المهم. بعدها بعدة أشهر تم التحقيق معه في قضية اختلاس أموال عامة وغسيل أموال وتهرب ضريبي (لم يتم التطرق لتجارة الأعضاء)، وتم الحكم عليه بالسجن سبعة أعوام، لكن محاميه توصل إلى اتفاق مع الحكومة وهو إجراء تصالح مع الحكومة مع دفع غرامة قيمتها تربو على العشرة ملايين جنيه بقليل، وبالفعل قام بإجراء التصالح وخرج من السجن وهو الآن يقيم بفرنسا وحيد بعدما هجرته زوجته الثانية بعد الحكم بإدانته مباشرة، بالطبع لا داعي لذكر أن محاميه كان الداهية "راضي منصور".

هذا ينقلنا إلى الملف الثاني وهو ملف راضي منصور.

كان رجل عبقريا بحق..

هو صاحب أفضل سجل لمحامي مصري على الإطلاق، إنه داهية، لم يخسر إلا عددا من القضايا تعد على أصابع اليد بالرغم من أنه شارك في عدد كبير جدا من القضايا الحساسة. لم تثبت عليه أي تهمة أبدا بالرغم من القضايا العديدة التي رفعت عليه ومحاوله إثبات أنه كان شريك للدكتور حاتم في مشروع غسيل الأموال ذاك.

توفي قبل خمس سنوات بورم خبيث في الدماغ "**Glioblastoma multiform**" أحد أخطر أنواع الأورام وأشدّها فتكا. قام بإجراء أكثر من ثلاث عمليات جراحية في ألمانيا لاستئصال الورم، لكن جميعها باءت الفشل أو على أقل تقدير لم تؤتي النتيجة المرجوة منها. جدير بالذكر أن السبب الأرجح لإصابته بهذا الورم هو كثرة استخدام هاتفه المحمول.. كان يستعمله كثيرا لينجز أعماله.

أكان الجزء من جنس العمل؟! ربما. أهي فلسفة فارغة ورغبتي في أن أجعل لكل شيء سببا؟ لم لا؟!

الغريب في الأمر أن الظابط المسئول عن تقديم البلاغات -التي بائت بالفشل- في راضي منصور والذي قاد التحقيقات ضده هو ذاته كان مشاركا في القبض على د. حاتم وإثبات تهمة غسيل الأموال واختلاس أموال عامة عليه. هو صاحب الملف الثالث المقدم "مؤمن السبع".

بالرغم من أنه كان بعيدا عن القضية إلا أنه كان يملك دليلا قويا ضد د. حاتم، كان سببا الرئيسي في إثارة الشبهات حوله ومن ثم إجراء التحقيقات؛ لذلك تم إشراكه في التحقيقات بأمر مباشر من وزير الداخلية حينها.

في الأخير يبدو أن علي كان هو المغفل عندما صدق أن مؤمن لن يقوم بالتحقيق في هذا الأمر خلسة.. كان يريد فقط أن يحميه.

ووجدت أيضا صورة تجمعهم هو ود. حاتم أثناء وجوده في السجن.

كان يقف مؤمن بزيه الرسمي رافعا رأسه بشموخ، والدكتور حاتم وراء القضبان تبدو على وجهه ملامح الحسرة والانكسار، لقد تحطمت إمبراطوريته.. هاهو الآن يقف عاجزا ذليلا.. وأمام من!.. أمام طموح شاب صغير لا يعيره أحد اهتماما.. في لحظة كان يملك كل شيء أما التي تليها.. فلا شيء.

يذكرني بقصة أوزيانداس...

كانت تلك واحدة من أسعد اللحظات التي عشتها، لحظة معرفتي ما حل بحاتم وراضي، إذ عندما قرأت مفكرة علي وأحسست الألم الذي كان يعانيه وودت لو أمسكت معذبيه وأقتلهم بيدي العاريتين دون نظرة رحمة أو شفقة.

ربما لم يكن ما حل بهم ليشف غليل علي كثيرا؛ فالدكتور حاتم يعيش في فرنسا وراضي منصور لم تثبت عليه أي تهمة إدانة قبل وفاته -على الرغم من أن كثير من الشبهات مازالت تحوم حوله حتى يومنا هذا وهناك قضايا جاري العمل عليها- لكن حري بالمرء أن يعلم أن الدنيا لم ولن تكون عادلة أبدا؛ لذلك هناك أخرى.. حيث يسود العدل.. حيث لا حكم إلا حكم الواحد المُقسط الجبار..

وددت لو أخبرك أنه تم القبض عليهم بعدها مباشرة أو أنهم لاقوا أشد أنواع العذاب والتنكيل لكن أنت شخص بالغ وتعرف كيف تسير الأمور هنا..

كان الأمر كله أشبه بقصة بوليسية خرافية من القرن التاسع عشر، لكن كما

قال علي "إنها الحياة.. هي أفضع من مئة فيلم رعب.. لا بل أكثر.. إنها

حقيقية"

فكرت أن أنشر قصته للعامة لكن بالطبع دون ذكر اسمه أو اسم أي شخص حقيقي حفاظا على خصوصيته، اعترافا مني بالخطأ في حقهِ عندما ظننته يهذي ولم أصدق قصته في المرة الأولى بالرغم من أنه لجأ إلى، لكنني خنت ثقته.

أردت أن يعرف الناس كم عانى. كيف يهدم الحزن قلوبا.. كيف أحاله شبحا!

كانت قصته خيالية في عالم حقيقي.. هو أقرب للخيال منه للواقع!



قررت أن أجعل اسمه المستعار كاسم صديقي الشرطي الذي ساعدني في العثور على النهاية والذي رحب كثيرا بالفكرة.

اتصلت بعلي - لم يكن العثور على رقم هاتفه الجديد باليسير - لأطمئن على حالته وأخبره بما أنا مقدم عليه.

كان بشوشا جدا كان يضحك كثيرا، لم يكن هذا هو ذات الشخص الذي عرفته قبل عشرة أعوام، حتى إنه كان يلعب مع أحد الأطفال وعندما سألته عنه أخبرني أنه "أحمد" .. ابنه .. سر سعادته. رحب بفكرتي كثيرا لكنه أكد على أمر الخصوصية هذا كثيرا.. كان قد أقفل هذا الجزء من حياته إلى الأبد ولا يريد أن يعرفه أحد عنه.

أخبرني أيضا أنه عاد يكتب من جديد.. كان هذا أسعد خبر سمعته عن أحد مرضاي.. أسدل الستار على قصته أخيرا.. انتهت معركة ولم تنته الحرب.. مادامت الحياة مادامت الحرب..

أخبرني مئات المرات أن الزمن ليس بقادر على أن يزيل عنه حزنه.. لن يضحك مرة أخرى..

هاهو الآن يضحك.. هو رب أسرة سعيدة..

في الأخير لا أقول إلا كما قال عبدالوهاب مطاوع: "وإنما هكذا هي الحياة لوحة لاتتم وأنشودة لا تكتمل.. وسيمفونية مبهجة أحيانا.. وشجية أحيانا.. وناقصة غالبا.. لكن الأمل في الله وفي رحمته لا ينقطع أبدا"





دار نبوغ للنشر والتوزيع